

محاكم القضاة في فرنسا



تعريب
رمسيس عوض

690

محاكم التفتيش فى فرنسا

فكر ريموند السادس (ونت تولوز) فى الانحناء أمام العاصفة بالانضمام إلى صفوف الحملة الصليبية بغية إرضاء الكنيسة باضطهاد عدد من المهرطقين. ورأى فى ذلك حماية لنفسه ومملكته من أى تدخل خارجى. وشجعه على اتباع هذه السياسة أن الكنيسة وعدت بحماية ممتلكاتهم فى الحفظ والصون، وفى مأمن من المصادرة. حول الحملات الصليبية الألبيجانسيانية وغيرها يدور كتاب محاكم التفتيش فى فرنسا.

المشروع القومي للترجمة

محاكم التفتيش في فرنسا

تعريب : رمسيس عوض



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٦٩٠

- محاكم التفتيش فى فرنسا

- تعريب : رمسيس عوض

- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

**هذه ترجمة مختارات من
محاكم التفتيش فى فرنسا**

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة .

شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo

Tel. : 7352396 Fax : 7358084.

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس الأعلى للثقافة .

الفهرس

٧	الفصل الأول : الحملات الصليبية الألييجانسيانية
٢٣	الفصل الثاني : أوكيتانيا [جنوب فرنسا]
٤١	الفصل الثالث : مقاطعة لانجويدوك
١٠٧	الفصل الرابع : فرنسا

الفصل الأول

الحملة الصليبية الألبيجانسيانية

الحملة الأولى بيزيه وكاركاسون : Beziers - Carcasonn

كان من السهل على قوات الشمال الفرنسى مهاجمة أمراء أوكيتانيا Occitania فى الجنوب بسبب افتقارهم إلى الوحدة والتماسك . ومن جانبهم حشد سكان الجنوب جيشا للتصدى للهجوم الذى يتعرضون له ، وتضايق سكان أوكيتانيا ضيقاً شديداً من وجود الفرنسيين الغزاة بين ظهرائهم ، واحتدم من جديد التنافس القديم بين ريموند كونت تولوز وغريمه فيكونت بيزيه حيث شعر كل منهما بأن الآخر يتربص به الدوائر .

وفكر ريموند السادس كونت تولوز فى الانحناء أمام العاصفة بالانضمام إلى صفوف الحملة الصليبية بغية إرضاء الكنيسة باضطهاد عدد من المهرطقين ، ورأى فى ذلك حماية لنفسه ومملكته من أى تدخل خارجى ، وشجعه على اتباع هذه السياسة أن الكنيسة وعدت بحماية ممتلكات كل من يشترك فى الحروب الصليبية . وفكر كونت تولوز لو أن جميع حكام أوكيتانيا انضموا إلى صفوف الصليبيين لأصبحت كل ممتلكاتهم فى الحفظ والصون وفى مأمن من المصادرة . ولو كان الأمر بيد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) وحده لنجحت خطة كونت تولوز البارعة، ولكن أعوان البابا مارسوا ضغطاً شديداً عليه حتى لا يثق بعهود حكام أوكيتانيا ، وخاصة لأن كونت تولوز كان يعطيهم من طرف اللسان حلاوة بون أن ينفذ أياً من وعوده . وكان أرنود أمورى أكثر أعوان البابا تشككا فى نوايا كونت تولوز . ولكن

هذا الكونت كان غافلا عن حقيقة المشاعر المعادية له داخل الكنيسة . واقترح أن يتحالف مع غريمه فيكونت بيزييه، ولكن الفيكونت رفض التحالف معه ؛ الأمر الذي اضطره إلى التصرف بمفرده ، ولهذا سعى إلى التصالح مع الكنيسة بغية حماية أملاكه من المصادرة . وكان كونت تولوز على أية حال يدرك أن المفوض البابوي في أوكيتانيا لا يثق به ، ولهذا طلب من البابا تعيين مفوض آخر يستطيع التفاوض معه واعدأ الكرسي البابوي بتنفيذ كل مطالبه .

واستجاب البابا لطلب الكونت تولوز بناء على حسابات سياسية رأى أنها في صالحه ، فعين ميلو مفوضا بابويا بدلا من أموري ولكنه أمره بالانصياع لأوامر أموري في كل شيء . ولم يعلق البابا أهمية كبيرة على إخلاص كونت تولوز وصدقه ؛ فهو في حالة صدقه سوف يتخلى عن حماية جماعات كبيرة من المهراطيين ، وحتى في حالة خنله وخداعه فإن الكنيسة سوف تستفيد من نظاهره بالخضوع لها لأن مثل هذا التظاهر سوف يمنعه من مقاومة الحملة الصليبية ، وهذا بدوره سوف يؤدي في النهاية إلى إضعاف جبهة الأمراء الآخرين المارقين والذين يوفرّون الحماية للمهرطيين . وبذلك يسهل على الكنيسة الانفراد بكونت تولوز والقضاء عليه ، ونصح البابا أعوانه باتباع سياسة عزل حماة المهراطيين وتفتيتهم حتى يسهل على الكنيسة القضاء عليهم الواحد تلو الآخر . يقول البابا في رسالة وجهها إلى مفوضيه بهذا الشأن : لا تبدأوا بالهجوم على كونت تولوز طالما أنه لا يندفع بنزق إلى الدفاع عن الآخرين . كونوا حكماء وأخفوا نواياكم . اتركوه وشأنه في البداية حتى تتمكنوا من مهاجمة من يصرحون بتمردهم عليكم ؛ فلن يكون من السهل علينا سحق أعداء الله لو أننا أعطيناهم فرصة الاتحاد في سبيل الدفاع المشترك ، وفي الناحية الأخرى سيكون من السهولة بمكان سحقهم طالما أن الكونت لا يساعدهم ، وربما ينصلح حاله إذا رأى المصائب تترى على رؤوسهم . ولكنه إذا لم يرعوا واستمر في مخططاته الشريرة وهو معزول ويستند إلى قواته الخاصة فحسب فسوف يتمكن من حربه دون كثير من المتاعب .

وفي المقابل سعى كونت تولوز إلى الاستفادة من سياسة البابا أنوسنت الثالث، فقد أثّج صدره أن يرى الحملة الصليبية تخضع للحكام الذين يشقون عصا الطاعة

عليه ويخلقون له المشاكل وعلى رأسهم ريموند روجر فيكونت بيزييه ، وخاصة لأن التجربة دلت على أن أية حملة صليبية تبدأ قوية في حينها ، ثم لا تلبث أن يعتريها الضعف والوهن . وطبقا لتقديرات كونت تولوز فإن غريمه فيكونت بيزييه لن يستطيع الصمود أمام الحملة الصليبية أكثر من عام ينفرط بعده عقد الحملة الصليبية ويتلاشى حماسها فتعود من حيث أتت إلى الأراضي الفرنسية وبذلك يسهل عليه الاستيلاء على ممتلكاته وابتلاع منطقة ترينساخل .

أظهر كونت تولوز تصميمه على التصالح مع الكنيسة مهما كان الثمن . ومن أجل هذا اعترف بفشله في مراعاة أيام الأعياد الكنسية كما اعترف بحمايته للهرطقة . وحتى يثبت نواياه الحسنة قام بتسليم قلاع السبع إلى الكنيسة . وفي ١٨ يونية ١٢٠٩ اضطلع المفوض البابوي ميلو بتعنيفه تعنيفا شديدا . وفي اليوم التالي أمسك كونت تولوز بالصليب واعد بتقديم العون للحملة الصليبية قدر استطاعته .

وفي الوقت نفسه بدأت الحملة الصليبية مسيرتها حيث إنها غادرت مدينة ليون يوم ٢٤ يونية ١٢٠٩ لتصل في ٢٠ يوليو من العام نفسه إلى مدينة مونتبلية وهي معقل مهم من معاقل المذهب الكاثوليكي في الجنوب . وبسبب إعلان كونت تولوز عن ولائه المطلق للكنيسة الكاثوليكية ، وجهت الحملة الصليبية أهدافها العسكرية نحو أراضي فيكونت بيزييه ريمون روجر الذي عرف بسمعته السيئة في حماية المهرطقين شأنه في ذلك شأن كونت تولوز نفسه ، فضلا عن أن فيكونت بيزييه وفر الحماية لكثير من المهرطقين الكاثوليين . وانسحب ريموند روجر إلى كاركاسون أكثر مدنه تحصينا . ولكن مدينة بيزييه التي انسحب منها كانت محصنة تحصينا كافيا الأمر الذي جعل سكانها واثقين في قدرتهم على مقاومة الحصار الذي فرضته الحملة الصليبية عليهم . وساعدهم على هذه المقاومة احتقارهم العظيم للكنيسة إلى جانب غيرتهم الشديدة على استقلالهم عنها لفترة طويلة ، وظهرت هذه الثقة بالنفس عندما تحدوا أسقفهم رينودى مونتبيروكس عندما رفضوا تسليم ٢٢٢ مهرطقا كاثوليا ووالد نسيانيا نظير عدم إلحاق الأذى بمدينتهم حيث إنهم اعتبروا الحملة الفرنسية الصليبية وليس الهراطقة تمثل الخطر الحقيقي عليهم .

وهكذا تصدت مدينة بيزيه للحملة الصليبية القادمة من الشمال الفرنسى وقاومتها بشدة . ولو أن سكان بيزيه تحملوا الحصار المفروض عليهم لفترة أطول لدب التعب فى أوصال المهاجمين ولعادوا أدراجهم . ولكن بعض سكان بيزيه تسرعوا وخرجوا من مدينتهم للقاء المهاجمين فاستطاع المهاجمون دحرهم وردهم على أعقابهم وما أن دخل الصليبيون بيزيه حتى ارتكبوا فيها مجازر شنيعة وهائلة هلك فيها الكاثوليك والهرطقة والرجال والنساء والشيوخ والأطفال على حد سواء . وأبلغ المفوض أرنولد أمورى والفرحة تملأ قلبه الكرسى البابوى بمقتل نحو عشرين ألف شخص فى هذه الجزرة . ومن المحتمل أن يكون هذا الرقم مبالغاً فيه ولكن من المذهل أن نرى المفوض البابوى يعبر عن جذله لمقتل هذا العدد الهائل من الناس . والغريب أيضاً أن القيادة الأرستقراطية لهذه الحملة الصليبية لم تستبشع هذه المجازر فى حين إنها استبشعت بل تدخلت لوقف أعمال السلب والنهب باعتبارها منافية لسلوك الأشراف والنبلاء . وهكذا انتصرت الحملة الصليبية على المهرطقين فى بيزيه ، فقررت المضى إلى كاركاسون التى استسلم حكامها للكنيسة وطلبوا منها أن تشملهم برعايتها .

وبسبب هذه الانتصارات الصليبية الكاسحة تعهد سكان المدينة الكبيرة ناربون باتخاذ الإجراءات الصارمة ضد المهرطقين . وتعبيراً عن ولائهم للكنيسة قام كثير من نبلاء ناربون بتسليم قلاعهم وممتلكاتهم إلى الجيش الظافر ، وهرب البعض إلى الجبال يحتمون بها . والجدير بالذكر أن كاركاسون لم تسقط فى يد الصليبيين بسبب تحصيناتها الجيدة ولكن لسوء حظها حاصرتها قوات الحملة فى أيام القيظ الشديد فلم تستطع مواصلة المقاومة بسبب نفاد مخزون مياه الشرب لديها . والجدير بالذكر أيضاً أن الأمر انتهى بريمند روجر حاكم بيزيه إلى الاستسلام فتم أسره وظل حبيساً فى الأسر حتى وافته المنية بعد شهور قلائل . وكان مصير بيزيه فى هذه الحرب أسوأ من مصير كاركاسون فقد سمحت الحملة الصليبية لجميع سكان كاركاسون بالرحيل عنها دون التعرض للأذى بعد تسليم أراضيهم وممتلكاتهم للكنيسة . . وغنى عن الذكر أن هذا العفو شمل المهرطقين الكاثوليين . أما فى

حالة بيزيه فإن الحملة لم تسمح بالرحيل لغير ريموند روجر واثنى عشر من أتباعه .
وعلى أية حال كان ريموند روجر حاكم بيزيه فى كاركاسون عندما سقطت بيزيه فى
أيدي الصليبيين .

وبعد سقوط بيزيه وكاركاسون فكرت قيادة الحملة أن تعهد إلى دوق بيرجندى
وكونت نيفير وسانت بول . بتولى مقاليد الحكم فى هاتين المدينتين ولكنهم اعتذروا عن
عدم اضطلاعهم بهذه المهمة المشرفة ، فوقع اختيار الحملة على ضابط صنديد أبلى
بلاء حسنا فى محاربة المهترطين فى كاركاسون وأظهر ولاءً شديدا لكنيسة سيمون
دى مونتفورت Simon de Monfort كان سيمون يجمع بين الطموح والواقعية فقد أدرك
منذ البداية أن الحملة الصليبية سرعان ما سوف يعتريها الوهن وينفرط عقدها عقب
سقوط مدينتي بيزيه وكاركاسون كما أدرك أن هاتين المدينتين تمثلان جزءاً ضئيلاً
من أراضى ترنسافل التى يتعين عليه الاستيلاء عليها . فضلا عن أنه أدرك أنه فرنسى
غريب من أهل الجنوب الذين لن يقبلوه حاكما عليهم . وأظهر سيمون دى مونتفورت
ترددا فى قبول هذه المهمة . ولكنه اضطر إلى قبولها تحت ضغط شديد من الكنيسة .
وكما توقع سيمون القائد المحنك ، انفرط عقد الحملة الصليبية حيث عاد إلى بلادهما
كل من دوق بورجندى وكونت نيفير تاركين برفقة سيمون نحو ثلاثين فارسا وعددا
ضئيلاً من الجنود المرتزقة .

كان شتاء عام ١٢٠٩ - ١٢١٠ بشير خير كما كان نذير شؤم على سيمون ،
ففى بداية الشتاء توغل سيمون فى منطقة ترانسافل ونجح فى الاستيلاء على مدينتي
ليموكس فى جنوب أوكيتانيا وأبى فى شمالها دون أية مقاومة تذكر . وفى طريقه
الظافر استسلم له كثير من المدن الصغيرة . ولحسن حظ سيمون توفى فى سجنه
حاكم بيزيه المعزول ريموند روجر ، فالت جميع أملاكه إلى سيمون دى مونتفورت عن
طريق شرائها من أرملة ريموند روجر وابنه الرضيع .

ولكن الحظ الذى ابتسم له سرعان ما تبدل ، فقد أخذت المدن التى استسلمت له
فى التمرد عليه كما أنه تم قتل وأسر الكثيرين من القواد الموالين له . فعلى سبيل
المثال قام كونت فوا باسترجاع إحدى القلاع التى كان قد سلمها إلى سيمون .

والتفت سيمون من حوله فوجد نفسه يقود جيشا صغير العدد يحاصره المتمردين فى كل جانب ، وتتضح لنا مشكلات سيمون فى خطاب أرسله إلى البابا جاء فيه ما يلى : « إن النبلاء الذين اشتركوا فى الحملة الصليبية تركونى بمفردى تقريبا يحيط بى أعداء يسوع المسيح من كل جانب ويحتلون الجبال والتلال . وليس فى استطاعتى أن أحكم هذه البلاد لمدة أطول إلا بمساعدتكم ومساعدة المؤمنين المخلصين . إن الحرب وويلاتها أصابت البلاد بالفقر المدقع كما أن الهراطقة الذين خربوا ودمروا وتخلوا عن بعض قلاعهم لا يزالون يحتفظون بقلاع أكثر تحصينا وينوون الذود عنها . ويتعين على أن أدفع إلى الجنود الذين يبقون معى رواتب أكبر من الرواتب التى أدفعها فى الحروب الأخرى . وإنى لم أتمكن من الاحتفاظ ببعض هؤلاء الجنود إلا بعد أن دفعت لهم ضعف رواتبهم ».

ولولا تفكك جنود المقاومة فى أوكيتانيا وشدة مؤازرة الموالين له لما تمكن سيمون دى مونتفورت من الاحتفاظ بإحدى القلاع الأساسية والتخفى فيها حين انصرام فصل الشتاء وحلول فصل الربيع . وفى الربيع حضرت زوجته أليس وأمدته بتعزيزات إضافية كان لها الفضل فى ترجيح كفته على المناوئين له فقد نجح فى إخماد التمرد المندلع ضده واستعادة المواقع التى خسرها .

وفى عام ١٢٠٩ نجح سيمون فى الاستيلاء على قلعة برام التى احتوى فيها عدد ممن حنثوا بوعود ولأنهم له كما أن أحد أفراد الكتيبة غدر به ومكن أعداءه من الاستيلاء على قلعة مونتريال فأمر سيمون بشنق هذا الكاذب الغادر كما قام بفقء العيون وقطع الأنوف والشفاه العليا لكل أفراد الحامية التى تمكن من التغلب عليها . ولكنه اكتفى وفقاً عيناً واحدة لواحد منهم لاستخدامه مرشداً كى يدلّه على الطريق إلى قلعة كابارية التى لم تكن قد سقطت بعد فى يد سيمون . والجدير بالذكر أن تقطيع أوصال الأعداء وفقء عيونهم سياسة اتبعها من قبل كل من ريتشارد قلب الأسد وفيليب أوغسطس . والجدير بالذكر أيضا أن معاملة سيمون للحاميات المعادية الأخرى التى انتصر عليها كانت أقل قسوة ووحشية . وعلى أية حال يبدو أن هذه المعاملة الوحشية لأسرته المهزومين جعلت منهم عبرة للآخرين ودفعتهم إلى الاستسلام له من أجل الحفاظ على حياتهم وأطرافهم من البتر .

وهكذا استطاع سيمون فى ربيع وصيف عام ١٢١٠ أن يستعيد كل ما نجح أعداؤه المتمردون فى الاستيلاء عليه بدون مقاومة تذكر ، ثم ضم إليه فلقين جديدتين هما مينرفا ونرميس . وبوجه عام أطلق سيمون هذه المرة سراح أسراه من المهرطقين ولكن المفوض البابوى أرنود أمورى أصر على إنزال العقاب بزعماء التمرد الذين خيروا بين التراجع عن هرطقتهم أو الموت حرقا فتراجعت ثلاث نساء عن هرطقتهن فى حين اختار أكثر من مائة وأربعين مهرطقا الموت حرقا ، بل إنهم قفزوا داخل النار المضرة بمحض إرادتهم .

ورغم أن سيمون استولى على قلعتى مينرفا وسيمون بشق الأنفس ، فإن سقوطهما فى يده قضى قضاء مبرما على كل مقاومة ضده . وإذا كان جنوب أوكيتانيا قد أظهر مقاومة فإن شمالها استسلم دون مقاومة . والجدير بالذكر أن مدينة ألبى لم تشهد أى قتال عنيف فيها أو حولها بسبب حنكة أسقفها الذى استطاع الاحتفاظ بعلاقة ودية بكل من سيمون وأهالى ألبى . ورغم ذلك صمم المهرطقون المتشبثون بهرطقتهم فى ألبى على الاحتماء بالجبال الواقعة فى جنوب أوكيتانيا وخاصة فى المنطقة الممتدة من تولوز إلى جبال البيرنيز . وشجعهم على هذا الرحيل الجماعى أن أحد نبلاء ألبى وفر لهم الحماية . وإذا كانت الحملة الصليبية لم تقنع كافة الهرطقات من منطقة ألبى وألبيجوا Albigeois فقد نجحت محاكم التفتيش فى نهاية المطاف فى استئصالها جميعا .

وقوع كونت تولوز ريموند السادس فى المصيدة :

فى وقت باكر من عام ١٢١١ استتبت مقاليد الأمور لسيمون دى مونتفورت وأصبح الحاكم الشرعى لأوكيتانيا .

ولكن الكنيسة ظلت تواجه بعض المشاكل الخطيرة رغم كل الانتصارات التى أحرزها سيمون دى مونتفورت ، فقد ظل عدد الهرطقة كبيرا بسبب تسامحه معهم ، فضلا عن أن كونت تولوز ريموند السادس الذى تشككت الكنيسة فى حقيقة نواياه

ظل يحتفظ بجزء كبير من أوكيتانيا . ومن ناحيته خشي سيمون أن يحاول كونت تولوز استعادة ما فقد من ممتلكات ، وكانت السلطة الكنسية شديدة الاقتناع بأن الهرطقة سوف تستمر طالما استمر كونت تولوز ريموند السادس في أوكيتانيا ؛ ولهذا بادر سيمون بالهجوم عليه بمباركة البابا وأتباعه رغم أنهم كانوا يتفاوضون للوصول إلى اتفاق معه . وتشككت الكنيسة في تواطؤ كونت تولوز على اغتيال بيير دي كاستلنو ولكن الكنيسة لم تستطع أن تقيم الدليل على صحة شكوكها . وأيضاً كانت الكنيسة تشتبه في هرطقته دون أن تتمكن من إثبات هذه التهمة عليه إلى جانب تسامحه مع المهرطقين . وعلى أية حال فقد فعل سيمون دي مونتفورت الشيء نفسه حيث إنه ترك معظم المهرطقين الكاثاريين وشأنهم مكتفياً بحرق زعاماتهم التي وقعت في يديه . ومن نافلة القول أن نذكر أن الحملات الصليبية الألبيجنسانية فشلت في سحق الهرطقة المتفشية في جنوب فرنسا ، ورغم ذلك فلا شك أنها مهدت الطريق أمام محاكم التفتيش للقضاء عليها .

وبسبب تشكك الكنيسة في أمر كونت تولوز ألحت عليه أن ينشط في التصدي للمهرطقين وأن ينفذ وعده باستئصال شأفتهم . وتحت وطأة الضغوط التي مارستها الكنيسة عليه سافر إلى باريس شاكيا إلى ملكها فيليب أوغسطس من كثرة تدخل الكنيسة في شئونه ، ولكن الملك اكتفى بحسن استقباله دون أن يستجيب له ، حيث إنه لم يرغب في توريط نفسه في شئون الجنوب . ثم سافر ريموند السادس كونت تولوز إلى روما في باكورة عام ١٢١٠ لمقابلة البابا الذي أحسن وفادته دون أن يؤازره حتى لا يغضب كرادلته منه .

وأسقط في يد كونت تولوز فسعى إلى التفاهم المباشر مع سيمون لإنهاء المشكلة ، غير أن جهود التصالح باءت جميعها بالفشل . والجدير بالذكر أن مفوضى البابا أسهموا في إفشال الجهود الرامية إلى التوفيق بين هذين الخصمين وحالوا دون تصالحهما ، حيث إنهم أراؤا إذلال كونت تولوز ووضعه تحت رحمتهم تماماً ، كما أنهم أصرّوا على قيام كونت تولوز بطرد المهرطقين من أراضيه ، ولكنه كرر رفضه ذلك مما جعلهم يوجهون إليه إنذاراً بنزع سلاحه والسماح لسيمون بدخول أراضيه كي يتمكن

من طرد المهروطين . وأيضاً اشترط الإنذار أن يحتفظ ريموند السادس بلقبه وجانب من دخله نظير أن يتولى سيمون إدارة دفة الحكم في بلاده . ورأى ريموند أن هذه الشروط مهينة فغادر الاجتماع في غضب فاستصدرت الكنيسة في ٦ فبراير ١٢١١ أمراً بفرض الحظر الكنسي عليه . وفي ١٧ أبريل من هذا العام اعتمد البابا أنوسنت الثالث هذا الحظر وأمر مندوبيه بالاستيلاء على أراضي ريموند السادس ، وهكذا أصبح الطريق أمام سيمون معبدا لبدء مرحلة ثانية من الحملة الصليبية بدأت بشن هجوم على آخر معقلين في أراضي ترنسانييل وهما قلعة كاباريه وقلعة لافور . وفي حين سقطت كاباريه في يد سيمون بدون مقاومة ظلت لافور القريبة من تولوز تقاوم حتى شهر مايو ١٢١١ . ولعب أسقف لافور الجديد دوراً في هذه الحرب التي شنها سيمون حيث إنه شجع مئات المقاتلين من تولوز على الانضمام إلى جيشه الذي كان يحاصر لافور فتصدى لهم المهروطون المحاصرون غير أن كونت تولوز اتخذ موقفاً مذبذباً ومتربداً في هذا الصراع الأمر الذي أوغر صدر الكنيسة ضده .

شن سيمون دي مونتفورت هجوماً عاتياً على قلعة لافور وعلى قائد حاميتها الغادر أيمري مونتريال . وبعد نجاح سيمون في اقتحام القلعة قام بشنق قائدها وتنفيذ حكم الإعدام في ثمانين فارساً مهروطاً من المدافعين عنها . وبلغت قسوة سيمون دي مونتفورت ذروتها حين قام بإلقاء سيدة القلعة المهروطة الكاثارية جيرالدا في بئر ثم هال عليها كومة من الحجارة حتى أخمد أنفاسها ، وفي الوقت نفسه تم إحراق ما يقرب من أربعمائة زعيم من زعماء الهرطقة . ورغم القضاء على كل هذا العدد الكبير من المهروطين فإن ذلك لم يضعف شوكتهم كثيراً حيث إنهم غيروا تكتيكاتهم ووجدوا البديل في التحصن في المدن .

ونتيجة مجزرة لافور استسلم سيمون عدد كبير من المدن والقلاع في إقليم تولوز . وخطط سيمون لمحاصرة مدينة تولوز ، غير أنه تعجل في الهجوم عليها تحت ضغط من المفوض البابوي أرنولد أموري وأسقف فولك فارتكب بذلك خطأ إستراتيجياً فتولوز ليست بيزييه أو كاركاسون ، بل هي واحدة من أكبر مدن أوكيتانيا ويبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة . ورغم التعزيزات التي وصلت إلى سيمون في فصل

الصيف فقد فشل فى الاستيلاء على تولوز . حتى الكاثوليك بداخلها لم يضيقوا بالهرطقة بين ظهرائهم ذرعاً كما أن تولوز ظلت لمدة قرن كامل تسعى ماوسعها السعى إلى الاستقلال ، ومن ثم رفضت تحكم سيمون دى مونتفورت فيها ، بل إن أهل تولوز أصرروا على تحدى الكنيسة الكاثوليكية ، فعندما ساومتهم هذه الكنيسة وعرضت عليهم الإبقاء على حياتهم وممتلكاتهم نظير انفضاضهم عن كونت تولوز أبوا وأكدوا أنهم لن يخونوه بأى حال من الأحوال . ولا ريب أن كونت تولوز تمتع بدعم أهلها له ، فقد اعتبروه نصيراً للحريات المدنية كما رأوا فى احتلال الغرباء لمدينتهم تهديدا لهذه الحريات ، وأمام مقاومة أهل تولوز العنيفة لها فكت قوات سيمون حصارها لهذه المدينة . وشعر الكونت تولوز بتحسن وضعه القتالى فلم ير داعياً إلى استمرار التفاوض مع سيمون فقطع المفاوضات وخاصة عندما تقدم حكام غرب أوكيتانيا لمؤازرته . وبعد انسحابه من محاصرة تولوز هاجم سيمون إقليم أوكيتانيا من الجنوب والشمال وطارد كونت فوا حتى باب قلعته واستولى على جميع أراضيه ثم تقدم بقواته إلى كاهور فى الشمال حيث تخلى أسقفها الحاكم عن سيمون بمجرد مغادرته لأراضى كاهور ليعلن فروض الطاعة والولاء لغريمه ملك فرنسا ، كما أن عددا من أوكيتانيا المهزومين فى الجنوب أمثال كونت فوا وكونت كومنجر وفيكونت بيرن وسفارى دى موليون بدأوا فى استجماع قواهم والانضمام إلى صفوف كونت تولوز ، ولو أن هذا الكونت لم يستسلم لتخاذله وانضم إلى المناوئين لسيمون دى مونتفورت لاستطاعوا جميعاً إلحاق الهزيمة به . وحدثت أول مواجهة بين قوات سيمون وبين المناوئين له ممن أشرنا إليهم فى بلدة يقال لها كاستلنودارى على الحدود الفاصلة بين أراضيه وأراضى كونت تولوز ، وهناك تركزت قوات سيمون الأساسية . وفى البداية سارت المعركة لصالح الكونت فوا غير أن سيمون نجح فى دحرها . وكما أسلفنا لو أن ريموند كونت تولوز حارب إلى جانب الكونت فوا لتمكنا من إلحاق الهزيمة بسيمون الذى بدأ الضعف يعتريه . ولكن بوصول التعزيزات إليه من الشمال فى ربيع عام ١٢١٢ تمكن سيمون من الاستمرار فى محاصرة مدينة تولوز كما سقطت فى يده بلدة أجن وكاهور ومواذك وألبى ، وامتد حصار سيمون لمدينة تولوز من جنوبها إلى شمالها . وبعد سقوط أو ستريف وموريث أحكم سيمون حصاره للمدينة ، وفى

نهاية عام ١٢١٢ دانت لسيمون كل أوكيتانيا وألحق الهزيمة بجيش ريموند السادس ، كونت تولوز المتردد الذي لم يعد لديه ما يكفى لدفع رواتب جنوده فانقضوا عنه . وهكذا أصبح كونت تولوز تحت رحمة سيمون والكنيسة تماما فحاول أن يتصالح معها كي تغفر له خطايا ه ، ولكنها أشاحت بوجهها عنه .

وهكذا أحرزت حملات سيمون دي مونتفورت الصليبية نصرا مبينا على أوكيتانيا التى تفشت فيها الهرطقة ؛ الأمر الذى أثلج صدر البابا أنوسنت الثالث الذى بدأت المشاكل تتجمع من حوله ، قد ناصبه إمبراطور ألمانيا العداء ، وقام ملك إنجلترا بمصادرة معظم أملاك الكنيسة الكاثوليكية فى بلاده ، وكذلك استولى المسلمون على مدينة أورشليم . وفى أوكيتانيا نفسها بدا الأهالى هناك يتذمرون من سيطرة الفرنسيين الأجانب على أراضيهم .

وفى نوفمبر - ديسمبر عام ١٢١٢ استصدر سيمون تشريعات تعطى مزايا كثيرة لطبقة الأكليروس وتقفو أثر قوانين الإقطاع الفرنسى ؛ مما أثار حفيظة أوكيتانيا بسبب ما فعلته هذه التشريعات الفرنسية من تهديد مباشر لتقاليدها وهويتها المحلية . حتى البابا أنوسنت الثالث خشى من أن تتجمع خيوط السلطة فى يد سيمون دي مونتفورت الذى أصبح فيكونت بيزيه ودانت له السلطة فى معظم أرجاء أوكيتانيا . ودعاه خوفه من توسيع سلطة سيمون إلى الكتابة فى منتصف عام ١٢١٢ إلى مفوضيه طالبا منهم أن يعطوا كونت تولوز فرصة لتبرئة نفسه وحظر عليهم مصادرة أملاكه . وزاد من قلق البابا أنوسنت الثالث تصاعد قوة المسلمين فى إسبانيا ، وقد شاركه فى هذا القلق مفوضه أرنود أمورى الذى أصبح مؤخرا رئيس أساقفة ناربون والذى حشد قواته لمحاربة المسلمين فى إسبانيا . وأحرزت هذه القوات نصرا ساحقا على مسلمى إسبانيا فى معركة لاس نافاس دي تولوزا التى وقعت يوم ١٦ يوليو ١٢١٢ . ولعب بيتر أراجون الثانى الذى لم يكن على علاقة طيبة بسيمون دي مونتفورت دورا مهما فى دحر المسلمين ؛ الأمر الذى جعل منه بطلاً مغواراً يشار إليه بالبنان فى جميع أنحاء أوروبا المسيحية . وأخذت أنظار البابا تلتفت إلى استعادة إسبانيا من أيدي المسلمين بعد أن استتب أمر أوكيتانيا للكنيسة

الكاثوليكية بفضل سيمون دى. مونتفورت فاستبدلت بأساقفتها الساكتين على الهرطقة
المكاثارية أساقفة عقدوا العزم على التصدى لها .

وبدل الخطاب الذى أرسله البابا إلى مندوبه أرنود أمورى بتاريخ ١٥ يناير
١٢١٢ على تحول أنظاره من مهرطقى أوكيتانيا إلى مسلمى إسبانيا الكفار . يقول
أنوسنت الثالث فى هذا الخطاب : « إن الثعالب (أى المهرطقين) يدمرون كرمة الله
فى إقليم بروفانس وانتهى الأمر بوقوعهم فى الأسر . يجب علينا الاحتراس من خطر
عظيم ، لقد ترمى إلى أسماعنا أن الكفار المسلمين فى إسبانيا يعدون العدة لحشد
جيش جديد للانتقام من الهزيمة التى لحقت بهم ، فضلا عن أن الأراضى المقدسة
تحتاج إلى العون والمساعدة » .

وهذه إشارة واضحة إلى ضرورة الانتقال من محاربة الهرطقة فى الداخل إلى
محاربتها فى الخارج وفى الأراضى المقدسة .

ثم أرسل البابا فى اليوم المشار إليه نفسه خطابا مستفزا إلى سيمون جاء فيه
ما يلى : « إن ملك أراجون العظيم يشكو من أنك وجهت حملتك الصليبية ضد
الكاثوليك وأنت أرقى دماء رجال أبرياء وأنت ارتكبت خطأ فى حقه حين قمت بغزو
الأراضى التابعة لمرءوسيه من النبلاء (الكونت فوا وكوبنجز وجاستون بيرن)
بينما كان جلالته مشغولا بشن الحرب على الكفار المسلمين رغم وجود هرطقة بين
سكان الأراضى التى قمت بغزوها » .

ولهذا تعين على سيمون أن يعيد إلى المهزومين أراضيه التى استولى عليها
طبقا لما يقوله البابا بغير وجه حق ، وأشار البابا أيضا إلى أن صكوك الغفران
الصادرة لصالح مقاتليه أصبحت لاغية إلا إذا يمم هؤلاء المقاتلون شطر إسبانيا
أو الأراضى المقدسة .

وعندما استيقن بيتر أراجون من أن البابا قلب لسيمون ظهر المجن وأن سيمون
لم يعد يتمتع بالحظوة لديه قام بعقد مجموعة من التحالفات مع النبلاء الموتورين من
سيمون أمثال كونت تولوز وفوا وكومنجز وفيكونت بيرن . ورغم موقف البابا الجديد
المتعاطف مع بيتر أراجون فإن رجال الأكليروس فى أوكيتانيا كان لهم رأى آخر، فقد

أحسوا أن طموح بيتر يمثل خطرا عليهم أكبر بكثير من الخطر الذي يمثله سيمون ، حيث إن بيتر كما رأينا لم يجد غضاضة في إقامة تحالفات مع حكام وأمراء اشتهروا باحتضان الهرطقة وحماية المهرطقين ، وعقد رجال الأكليروس اجتماعا في لافور في يناير عام ١٢١٢ قرروا فيه أن كونت تولوز لا يمكن أن يكون موضع ثقة وأنه المسئول عن انتشار الهرطقة في بلاده ، كما قرروا أن سيمون دى مونتفورت هو الوحيد القادر على إنقاذ الكنيسة الكاثوليكية من براثن المهرطقين في أوكيتانيا ، وأرسل المجتمعون في لافور مبعوثين إلى البابا أنوسنت الثالث تمكنوا من إقناعه بوجهة نظرهم فاستجاب لهم البابا وقام بتغيير سياسته تغييرا كاملاً ، وأنحى البابا باللائمة على بيتر أراجون لأنه ضلله وأعطاه معلومات مغلوطة . ورغم انتصار البابا أخيرا لسيمون دى مونتفورت فإن تردده أضعفه ونال من قوته كما أن بعض جنده انفضوا من حوله . ثم إن توقيع البابا لبيتر أراجون جاء متأخرا بعد أن استطاع أن يجمع حوله عددا من الحلفاء أمثال كونت تولوز . ولكن هذه الانتكاسة لم تدم طويلا فسرعان ما تمكن سيمون من قلب موازين القوى لصالحه ، خاصة لأن جيشه رغم تضائل عدده كان أكثر تنظيما من جيش أعدائه ، كما أنه عرف كيف يتحين الفرصة ويختار الوقت المناسب لمباغتتهم . وبسبب تردد كونت تولوز وتقاعسه استطاع سيمون أن يقطع الطريق على جنوده المشاة ، وظل يلاحقهم حتى أغرقهم في نهر الجارون كما استطاع دحر جميع قوات أوكيتانيا المناوئة له والمناكفة ضده . ورغم انتصاراته الكاسحة فقد ظلت مدينة تولوز ومدينة تاربون صامدتين كما أن مدينة مونبلييه شقت عصا الطاعة عليه . وفشل سيمون في إخضاع منطقة بروفانس خضوعا كاملا لسلطانه . ومن بروفانس اندلعت أول شرارة تمرد ضده .

هذا كله لم يعد أن يكون مجرد انتكاسات سرعان ما تغلب سيمون عليها . فقد دانت له أوكيتانيا في نهاية الأمر مما أقلق البابا وملك أوكيتانيا الفرنسى فيليب أوغسطس على حد سواء . فمن ناحية ساورت البابا شكوك حول نوايا سيمون التوسعية وأن حرصه على توسيع رقعة أراضيه يفوق حرصه على القضاء على الهرطقة ، ومن ناحية أخرى شعر فيليب ملك فرنسا أن هذا الرجل الطموح يهدد سلطته ، وأيضا حاول المفوض البابوى الجديد في أوكيتانيا بيتر بنيفنتو الحد من

طموحات سيمون التوسعية فأعطى فرصة لأعداء الكنيسة للتصالح معها ، كما أنه رفض تنصيب سيمون حاكما على تولوز . وساعد على ذلك أن الكونت فوا والكونت كمنجز وريموند كونت تولوز وغيرهم قدموا فروض الطاعة والولاء لكنيستته ، ورغبة منه فى إثبات ولائه للكنيسة وهبها جميع ممتلكاته . واضطر سيمون إلى إعلان خضوعه الكامل للكنيسة . ولكنه استطاع أن يتحين الفرصة المناسبة للاستيلاء على بقية أراضي كونت تولوز . وعندما احتدم الصراع بين المفوض البابوى الجديد بيتر بنيفنتو وسيمون دى مونتفورت وقف عدد كبير من أساقفة الجنوب فى صف سيمون واعترضوا على محاولة زميلهم تقليد أظافره ، ولا غرو فقد اعتبروه القائد الوحيد الذى تصدى باقتدار للمهرطقين الكاثاريين . وفى يناير عام ١٢١٥ عقد هؤلاء الأساقفة اجتماعا فى مونبلييه ونصحوا زميلهم بنيفنتو أن يعطى تولوز وكل الأراضي التى سقطت فى الحملة الصليبية إلى سيمون ، وتهرب بنيفنتو قائلا إن هذا الأمر مرهون بإرادة البابا فأرسلوا وفدا إلى الكرسي البابوى يطلبون منه تنصيب سيمون حاكما على كل أراضي كونت تولوز فاستجاب إلى طلبهم . وهكذا أحرز سيمون نصرا ساحقا على مناوئيه ودخل سيمون ظافرا إلى تولوز فاضطر حاكمها السابق ريموند إلى اللجوء إلى إنجلترا ووافق البابا على تنصيب سيمون كونت تولوز ودوق ناربون وفيكوت بيزيه وكاركاسون . وحتى يسترضى ملك فرنسا فيليب أوغسطس أسرع سيمون بالسفر إلى باريس فى إبريل ١٢١٦ ليقدم له فروض الطاعة والولاء . وتعبيرا عن رضاه عنه أكد هذا الملك أحقيته فى امتلاك جميع الأراضي التى استولى عليها والواقعة فى وسط أوكيتانيا .

سيمون دى مونتفورت يواجه المعارضة التى تطيح به :

اعتمد سيمون دى مونتفورت فى حملته الصليبية ضد أوكيتانيا على جيش مكون من الفرنسيين أساسا . ولكن بعد أن انتهى من إحراز انتصاراته الساحقة أثر كثير من جنوده مغادرة أوكيتانيا فى الجنوب والعودة إلى فرنسا فى الشمال الأمر الذى ترك سيمون بدون غطاء عسكرى . وبالتالي تعين عليه الاعتماد على سكان أوكيتانيا . ولكنهم كانوا فى الواقع لا يحملون له الود فهو غريب عنهم بقدر ما كان الغزاة

الفرنسيون غرباء عنهم . غير أن عداوة أهل أوكيتانيا لسيمون لم تكن ظاهرة بل تكمن تحت السطح وتنتظر من يفجرها . وانتظر أهل أوكيتانيا الموالون لكونت تولوز المهزوم ريموند (السادس) اندلاع أية شرارة تمرد على سيمون كي يسارعوا بالانخراط فيه بهدف إعادته إلى سدة الحكم بقوة السلاح . وأيضاً بعد عام ١٢١٥ فتر حماس الفرنسيين لمواصلة الحرب الصليبية التي بدأوها على أوكيتانيا . ثم إن شخصية سيمون لم تكن جذابة من الناحية الجماهيرية . ثم إن البابا أنوسنت الثالث المؤمن بشن حرب صليبية على المهرطقين مات وحل محله البابا أونوريوس الثالث (١٢١٦ - ١٢٢٧) الذي فضل المفاوضات على خوض الحروب وأيضاً فقد سيمون تعصيد كثير من رجال الكنيسة المنتمين إلى الجيل الجديد بخلاف انتصار الجيل القديم له .. ذلك الجيل الذي تحمس له وهب للزود عنه لدى الكرسي البابوي . ثم إن ملك فرنسا فيليب أغسطس فقد اهتمامه بشئون الجنوب بسبب المشاكل السياسية التي اعترضته وانشغال فرنسا بشن الحرب على إنجلترا .

بدأ سيمون يواجه المشاكل الحقيقية عندما هبط كونت تولوز ريموند السادس برفقة ابنه ريمون السابع في ميناء مارسيليا التي كانت مستقلة عن حكم كونت تولوز ووعدت بقية منطقة بروفانس ومناطق الشمال التابعة لعائلة هذا الكونت بتقديم العون له ولابنه . وفي أقل من شهر واحد تجمع جيش عرمرم في مدينة أفينيون في انتظار اللحظة المناسبة للانقضاض على سيمون . وسعى ريموند السادس لدى أراجون كي يساعده في إثارة التمرد في تولوز تاركاً ابنه ريموند السابع ليقود قواته المتمركزة في بروفانس .

وفي شهر مايو عام ١٢١٦ سنحت لريموند السادس وولده فرصة الهجوم على سيمون عندما وضعت مدينة بوكير على الشاطئ الغربي لنهر الرون نفسها تحت تصرفهما . وتمكن سيمون من التصدي لهذا الهجوم ولكن حاميته اضطرت إلى الاحتماء في قلعة المدينة ، عندئذ لجأ كل فريق إلى تطويق الفريق الآخر . فمن ناحيته حاول ريموند السابع محاصرة الحامية في القلعة حتى تتصور جوعاً وفي الناحية الأخرى حاول سيمون أن يقطع خطوط إمدادات ريموند ويجره إلى التلاحم في معركة

حامية الوطيس . غير أن سيمون فشل فى حصار مدينة بوكير الواقعة على شاطئ النهر، الأمر الذى مكن ريموند وقواته من العيش فى بحبوحة ورغد فى حين عاش جيش سيمون الفرنسى على الكفاف . وقام سيمون بهجوم باسل ثلاث مرات على هذه المدينة ولكن أعداءه ردوه على أعقابهم الأمر الذى اضطره إلى الاستسلام فى ٢٤ أغسطس ١٢١٦ . واشترط ريموند نظير فك حصاره المضروب على القلعة أن يقوم سيمون فى المقابل بفك حصاره على مدينة بوكير ولكن هذا لم يلحق أى أذى مادى كبير بسيمون لأن هذه المدينة كانت فى الأطراف وبعيدة عن تحصيناته الحقيقية المتمركزة فى كل من بيزيه وكاركاسون وتولوز . غير أن سقوط هذه المدينة فى يد أعدائه كان بمثابة انتكاسة معنوية له حيث إن قوات أوكيتانيا أثبتت كفاءتها وأنها لا تقل تنظيماً عن قوات سيمون الفرنسية . وبدأ شعراء التروبادور يسخرون من سيمون كما أن أعداءه عبروا عن شماتتهم فيه وبدأوا يحيكون المؤمرات ضده .

أما مدينة تولوز معقل الهرطقة والمهرطقين فكانت لا تزال تحتفظ بوجدها وولائها القديم لكونت ريموند وتحمل المقت لسيمون ، وسرعان ما نشب تمرد ضد سيمون فى هذه المدينة ؛ الأمر الذى اضطر جنوده إلى الاحتماء فى الكاتدرائية . واستطاع المتمردون السيطرة على المدينة لفترة وجيزة غير أنهم سرعان ما انهاروا عندما أدركوا أن سيمون يحتفظ بعدد كبير منهم رهائن ، وبأنه نجح فى تدمير تحصيناتهم ، وتدخل أسقف تولوز وراهب دير القديس سونين لدى سيمون لوقف الحرب فوافق سيمون على العفو عن المدينة مقابل دية مقدارها ثلاثون ألف مارك .

ولكن سيمون فى عام ١٢١٦ وأوائل عام ١٢١٧ واجه سلسلة من الثورات والتحديات المحدودة ، غير أنه تصدى لها بكل ما أوتى من قوة وشن حملات متصلة ومتلاحقة على المتمردين ؛ الأمر الذى أنهكه وأنهك جيشه . وفى صيف عام ١٢١٧ استعاد سيمون قوته عندما وصلته إمدادات فى الشمال مكنته من عبور نهر الرون بغية معاقبة أمراء مقاطعة بروفانس الذين سبق أن عضدوا غريمه السابق فى مدينة بوكير ، لكن مناوئى سيمون انتهزوا فرصة انشغاله بملاحقة أعدائه فى بروفانس وغيابه عن البلاد للنيل منه .

كانت مراجل الغضب من سيمون تغلى فى مدينة تولوز التى وعدت حاكمها السابق ريموند السادس بتسليم نفسها له إذا جلب قوات كبيرة تمكنه من الاحتفاظ بها . وبالفعل جلب ما يحتاج إليه من قوات وانضم إليه فى الطريق كونت فوا وكونت كمنجز وعدد آخر من النبلاء ، وتوجه هذا الجيش إلى تولوز ليدخلها فى ١٢ سبتمبر ١٢١٧ دخول الظافرين ، فرحب بمقدمه معظم أهالى المدينة واضطرت الحامية الفرنسية الصغيرة الموالية لسيمون إلى الاحتماء فى قلعة ناربونية التى رأى ريموند السادس أنه من الحكمة عدم محاولة الاستيلاء عليها . وتهلل أهل أوكيتانيا بعودة ريموند حاكمهم القديم وتغنوا بالأهازيج والأغاني الوطنية ، وأيضاً انضم إلى جيش ريموند أعداء سيمون من الجنود الذين جردهم من ممتلكاتهم . وهكذا ولأول مرة توحدت أوكيتانيا التى اشتهرت بالتفكك السياسى والعسكرى وتطلعت إلى قتال سيمون وجيشه من أجل الحصول على استقلالها . ومعنى ذلك أن سيمون بحملته الصليبية استطاع توحيد أوكيتانيا وإلهاب مشاعرها القومية .

كان سيمون دى مونتفورت فى مقاطعة يروفانس عندما علم عن طريق زوجته بأمر تمرد تولوز ضده ، فسارع فى الحال بالرجوع إلى هذه المدينة حاشداً فى طريقه ما استطاع من قوات ، وأسرع بمهاجمة تولوز قبل أن يتمكن أعداؤه من تعزيز تحصيناتهم ، غير أنهم استطاعوا أن يردوه على أعقابهم . ولم يكن فى مقدور سيمون أن يضرب حصاراً حول تولوز بسبب اتساع رقعتها، وأدرك سيمون حرج وضعه العسكرى فاستعان بالبابا أنوريوس الثالث كى يصدر نداء بضرورة مواصلة الحرب الصليبية ونصرة سيمون ، ولكن وصول المتطوعين والمشاركين فيها من الخارج احتاج إلى الوقت . وبينما أدى فشل سيمون فى اختراق تولوز إلى انخفاض روح جيشه المعنوية ارتفعت معنويات أعدائه من أهل تولوز .

وبحلول ربيع ١٢١٨ استطاع كل من الفريقين المتحاربين تعزيز قواته ، وما إن عاد كونت تولوز ريموند السادس إلى أراضيه حتى هب أهلها لمناصرته رافعين الأعلام ، واندفعوا نحوه كما لو كان قد قام من الأموات . وتهلل لمقدمه إلى تولوز الفقراء والأغنياء والشباب والشيوخ والأطفال والرجال والنساء وركعوا أمامه على الأرض ،

واغرورقت عيونهم بالدموع من فرط فرحتهم وتأثرهم بلقياه ، وترجل الكونت ريموند السادس عن جواده عند دير القديس سيرنين تيمنا به ، لأن هذا القديس رفض الوجود الفرنسى فى أوكيتانيا . ودقت الطبول وأجراس الكنائس والفواخير ، ولم ير سيمون بدا من مواجهة أعدائه الذين رموه بحجر شج رأسه فمات فى الحال . ورغم ما عرف عنه من شجاعة وكفاءة عسكرية نادرة ومن صمود وقدرة على اتخاذ القرارات السريعة الحاسمة فقد فشل فى إنشاء مؤسسات فى أوكيتانيا يمكنه الاعتماد عليها فى كسب ود شعبها المهزوم .

وبموت سيمون دى مونتفورت انتهت أولى الحملات الصليبية الألبيجانسية وتقلد ابنه أمورى إدارة الجيش بعد وفاته ، غير أنه كان يفتقر إلى الزعامة فانفض عنه كثير من أتباعه . وزاد من إضعافه أن الكونت كومنجز تمكن من طرد الحامية الفرنسية من بلاده ، كما أن الكونت قوا استولى على السهول الواقعة بين تولوز والجلال . وبعد موت سيمون وعجز ابنه أمورى عن قيادة جيشه لم تر الكنيسة الكاثوليكية مناصا من مناشدة فيليب ملك فرنسا التدخل لمساندة أمورى واعدة هذا الملك بدعم مالى كبير تعطيه الكنيسة له . وكان هذا بمثابة رشوة استمرأها الفرنسيون وألحوا فى طلب المزيد منها لإنفاقها فى أغراض علمانية لاشأن للكنيسة بها . والجدير بالذكر أن هذه الأموال كانت حصيلة الضرائب المتزايدة التى فرضها البابوات على رجال الكليروس بهدف تمويل الحروب الصليبية .

وطلب الكرسي البابوي من لويس ملك فرنسا تسيير حملة صليبية أخرى لمساندة أمورى بن سيمون . ولكن هذا الملك استجاب للطلب البابوي على مضض بسبب الود المفقود بينهما . فقد أثارت كنيسة روما حفيظة هذا الملك عندما أمرته بالامتناع عن غزو إنجلترا وفرضت عقوبات مالية باهظة كى ترفع الحظر الكنسى الذى فرضته عليه ، ورغم أن الملك لويس وافق فى يناير ١٢١٩ على قيادة حرب صليبية تحت ضغط من البابا فإنه كان فى قرارة نفسه عازفا عنها وغير مقتنع بها . وانضم الجيش الفرنسى بقيادة الملك لويس إلى قوات أمورى بن سيمون لمحاصرة مدينة صغيرة تسمى

مارماند حتى انتهى الأمر بها إلى الاستسلام وحدثت فيها مجزرة تقشعر لها الأبدان ، حيث إن القوات الفرنسية الغازية قطعت أوصال الكثيرين من أهل هذه المدينة لدرجة أنها تناثرت في عرض الطرق كما أن الشوارع غرقت في بحر من الدماء .

وبعد سقوط مارماند وتقطيع أوصال أهلها قام الملك لويس بضرب الحصار على مدينة تولوز التي تصدت له وقاومته بشراسة ؛ الأمر الذي أجبر لويس على فك الحصار والانسحاب والعودة إلى بلاده تاركا أموري بن سيمون في حالة ضعف مزرية ، وزاده ضعفا على ضعف تخلى كثير من جنوده عنه ، فضلا عن أنه لم يكن يملك الأموال اللازمة لدفع رواتب المرتزقة الذين يستعين بهم في حروبه . وتهاوت المدن التابعة لأموري مدينة تلو الأخرى ، وبهزيمة ابن سيمون تقدمت قوات ريموند السابع بتأييد من كونت فوا للاستيلاء على المواقع التي سبق لسيمون أن استولى عليها ، ولكن قوات ريموند السابع وكونت فوا تجنبوا الحرب في المدن الحصينة مثل كاركاسون وناربون . وبهذا استطاع ريموند السابع الاستيلاء على كل البلاد التي كان والده قد خسرها في حربه ضد سيمون ، وفي عام ١٢٢٢ توفي ريموند السادس ولكن الكنيسة رفضت الصلاة على جثمانه لشكها في هرطقته

وحتى بعد أن مات ريموند روجر كونت فوا عام ١٢٢٣ خلفه وريث أشد ما يكون تحمسا ونصرة لعائلة كونت تولوز وعداء لعائلة سيمون . وعبثا حاول البابا أونوريوس الثالث الدفاع عن أموري بن سيمون وتحسين صورته فقد ازور عن هذا الدفاع أهل أوكيتانيا كما أن فرنسا تخلت عنه وانتهت الحرب بين ابن سيمون والموالين لكونت تولوز بعقد هدنة في ١٦ يناير ١٢٢٤ بعد أن اضطر أموري إلى تسليم منطقة الجنوب بعد انهزامه الساحق إلى حكم ريموند السابع الذي تمكن من احتلال كل من كاركاسون وبيزويه دون مقاومة . وبطرد النفوذ الفرنسي في أوكيتانيا واندحار سيمون وابنه عاد الهراطقة هناك إلى سابق قوتهم ، وبذلك تكون ريمة قد عادت إلى عاداتها القديمة وتكون الحملة الصليبية الألبيجانسية ضد الهرطقة قد منيت بهزيمة نكراء .

الكنيسة الكاثوليكية ترفض الهزيمة وتسعى إلى اجتثاث الهرطقة :

قلنا إن الهرطقة ازدهرت بشكل ينذر بالشر عندما لحقت الهزيمة بأموري بن سيمون على يد ريموند السابع كونت تولوز الجديد . واستاء البابا استياء شديدا من شدة انتشار الهرطقة ، فقد كان يأمل في اقتلاعها من جذورها الضاربة في أوكيتانيا عامة وتولوز خاصة . ورأى البابا أوتوريوس الثالث أنه من الضروري شن حملة صليبية أخرى تهدف إلى إرغام ريموند السابع على استئصال الهرطقة في بلاده ، ولم يكن هناك من يستطيع شن حملة صليبية غير ملك فرنسا لويس الثامن . غير أن عامي ١٢٢٣ و ١٢٢٤ لم يكونا الوقت المناسب بالنسبة للويس لشن هذه الحرب ، ففي منتصف عام ١٢٢٣ كان ملك فرنسا فيليب أوغسطس يحتضر ، وفي النصف الثاني من هذا العام انصرف خلفه لويس الثامن إلى ترتيب أحواله وحاول إعادة الأمن والاستقرار إلى مدينة بواتو المضطربة والتي كان نبالوها في أحيان كثيرة يناصرون إنجلترا ضد فرنسا . واستطاع لويس الثامن أن يكسر شوكة مدينة بواتو كما استطاع بعد عام ١٢٢٤ الاستيلاء وإحكام قبضته عليها ، وبسقوط بواتو في يده كان في مقدوره تسيير حملة عسكرية ضد الجنوب .

وجرت مفاوضات بين البابا أونوريوس الثالث و لويس الثامن اشترط فيها لويس شروطا قاسية مقابل اشتراكه في شن حملة صليبية على الجنوب ، وتلخصت شروطه في أن تتحمل الكنيسة معظم تكاليف الحملة وأن يسيرها في الاتجاه الذي يريد وأن يضم إلى ممتلكاته الأراضي التي يستولى عليها . وباختصار أراد لويس الثامن اختزال الحرب بالهجوم السريع على مدن تولوز وكاركاسون وبيزيبه وعدم إضاعة حياته مثلما فعل سيمون دي مونتفورت في محاربة سائر أمصار الجنوب . وكذلك صرح هذا الملك بأنه في حالة ذهابه إلى الجنوب فسوف يستولى على كل ممتلكات سيمون مونتفورت . وانزعج البابا من هذه المطالب وشعر بعدم الارتياح تجاه صاحبها وخاصة لأنه كان يسعى إلى تعيين حاكم شديد الولاء له في كل من تولوز وكاركاسون ، فضلا عن أنه أراد من هذا الملك أن يفعل شيئا أعظم يتلخص في قيادة حملة صليبية كبيرة لاسترجاع بيت المقدس في اورشليم .

وعلى أية حال رفض البابا مقترحات لويس الثامن واقترح على هذا الملك أن يقوم بترويع ريموند السابع حتى يقبل التصالح مع الكنيسة ، وغضب الملك من اقتراح البابا بأن يلعب دور البعبع ، ولكن مجرد وجوده ووجود جيوشه الحاشدة على حدود أوكيتانيا كان كافيا لإثارة الذعر فى قلب ريموند كما كان البابا يتمنى ؛ الأمر الذى اضطره إلى السعى لاسترضاء الكنيسة .

وجرت مفاوضات بين الكنيسة وريموند السابع على غرار المفاوضات التى سبق أن جرت بين الكنيسة ووالده ريموند السادس ، وهى مفاوضات انتهت إلى التعثر والفشل . وعجز ريموند السابع أن يقنع الكنيسة بإخلاصه وولائه لها رغم أنه بذل كل جهده لإثبات حسن نواياه ، فقد وعد بمعاقبة المهراطيين وطردهم وإصلاح أية أخطاء يكون قد ارتكبها فى حق الكنيسة ودفع تعويض كبير لأمرى بن سيمون على سبيل الترضية . وقام ريموند السابع بإعادة مدينة أجد إلى الأسقف الذى كان يملكها أصلا ، فضلا عن أنه دفع تعويضات مناسبة إلى الكرادلة الذين سبق له الإضرار بمصالحهم . وبالفعل سعى ريمون السابع إلى ممارسة شىء من الضغط على المهراطيين ، ولا غرو فقد كان لا يعطف عليهم بنفس قدر عطف والده عليهم ، وأراد بذلك تحسين صورته أمام الكنيسة . وقد أمضى ريموند السابع معظم النصف الثانى من عام ١٢٢٤ فى التفاوض مع رئيس أساقفة ناربون أرنود أمرى واعدة باتباع أية أوامر يصدرها البابا إليه وطالبا الصفع من الكنيسة ، ولكن كل جهوده ذهبت أدراج الرياح . فبحلول نهاية عام ١٢٢٤ بات من الواضح أن البابا أونوريوس يناصبه العداء ، ولا غرو فقد كانت الكنيسة لاتزال تدين بفضل عائلة سيمون عليها واستبسالتها فى الدفاع عن مصالحها . ولا شك أن البابا تأثر برأى كرادلة وأساقفة أوكيتانيا الذين أجمعوا على معارضة ريموند السابع والذين شكوا فى تساهله مع المهراطيين على نحو ما فعل والده من قبل .

كانت كنيسة روما آنذاك تتوق إلى مساندة لويس الثامن ملك فرنسا لها ، ولهذا كثر البابا طلبه منه قيادة حرب صليبية جديدة ، وقرر لويس الاستجابة إلى طلب البابا بعد كثير من التردد والتذبذب . ومن جانبهم مهد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية

الطريق إلى ذلك بإزالة أسباب سوء التفاهم الذي شاب فيما مضى علاقة البابا بالملك لويس ، وعقد كرادلة فرنسا مجلسا لإدانة ريموند السابع لتبرير هجوم لويس ملك فرنسا عليه . وفى ٣٠ نوفمبر عام ١٢٢٥ عقد رجال الأكليروس الفرنسيون اجتماعا فى مدينة بوج رقصوا فيه طلب ريموند السابع صفح الكنيسة عنه بدعوى أنه لم يقدم الوعود الكافية لطاعة أوامرها . وفى اجتماع آخر فى يناير ١٢٢٦ تجدد فرض الحظر الكنسى عليه وعلى حاشيته وكذلك على كونت فوا وفيكونت بيزيه . وأكدت الكنيسة أحقية ملك فرنسا فى الحصول على كل أراضى ريموند السابع حتى تغرى هذا الملك بشن الحرب الصليبية التى تريدها ، وفى ٢٠ يناير ١٢٢٦ تعهد ملك فرنسا بإعداد هذه الحملة . وحتى يخطب الكرادلة وده استجابوا لكل الشروط التى سبق أن أملاها على البابا عام ١٢٢٤ ، ولكنهم وفروا على البابا الحرج بأن قاموا بأنفسهم بتقديم ما طلبه الملك لويس من مطالب مثل إعطائه حرية ترك الحملة وقت ما يشاء ، وتعهدت كنيسة فرنسا بدفع عشر دخلها له لمدة خمسة أعوام وهو مبلغ أكبر بكثير من المبلغ الذى سبق أن طلبه عام ١٢٢٤ .

وفى مايو عام ١٢٢٦ حشد الملك لويس جيشا كثير العدد والعدة فى مدينة بوج الأمر الذى أدخل الخوف فى قلوب أهل أوكيتانيا لدرجة أن الكثيرين من أمرائهم سارعوا بتقديم فروض الطاعة والولاء له ، وتخلى كثير من المدن عن مساندة ريموند السابع وانضمت إلى جانب لويس الثامن ابتداء من مدينتى بيزيه وكاركاسون حتى ميناء مارسيليا . غير أن تولوز أظهرت تحديا له وسأيرها فى هذا التحدى عدد قليل من البلدان الواقعة فى غرب أوكيتانيا ، ولكن كان من الواضح أن كفة ملك فرنسا هى الراجحة ، ومع ذلك فقد واجه مقاومة شديدة فى مدينة أفينيون التى ظلت تحتفظ بشيء من الود نحو ريموند السابع . ظلت أفينيون تقاوم الحصار الذى فرضه ملك فرنسا عليها فى ١٠ يونيو ١٢٢٦ ، وطال أمد الحصار فحاول لويس اقتحام المدينة ولكنه فشل فعاد إلى مواصلة الحصار حتى أنهك قوى أفينيون وأرغمها على الاستسلام فى ٩ سبتمبر ١٢٢٦ فدفعت له تعويضا متواضعا قدره ستة آلاف مارك .

وأدى سقوط أفينيون في يد الفرنسيين إلى وجودهم الدائم في الجنوب واستيلائهم على مقاليد الحكم هناك . وعقب سقوط أفينيون انهارت مقاومة أوكيتانيا ، واستسلمت مقاطعة بروفانس للبابا وقبلت وجود حاميات فرنسية فيها ، وبعد ذلك اتجه الملك لويس إلى كاركاسون بون مقاومة . غير أن استسلام أفينيون الذي بث الخوف والفرق في قلوب أهل أوكيتانيا عجز أن يحطم تصميم ريموند السابع وأهل تولوز على المقاومة ، ولكن حصار الجيش الفرنسي لأفينيون لفترة طويلة فت في عضده وكبده خسائر فادحة . وعندما أدرك ملك فرنسا أن ريموند السابع يتميز بتحصينات قوية في تولوز قرر عدم مهاجمتها والرجوع إلى بلاده ثم العودة منها في العام القادم لشن هجوم على تولوز ، ولكن المرض العضال داهمه عند عودته إلى بلاده فمات يوم ٨ نوفمبر ١٢٢٦ ليخلفه لويس التاسع (الملقب بالقدّيس لويس) الذي كان طفلاً عند وفاة والده ، وتولت أمه بلاتش كاستيل مقاليد الأمور بعد وفاة زوجها لويس الثامن ، ولكن أشرف البلاد تمردوا عليها لأنهم كانوا يطمعون في استرداد ما فقدوه من استقلال . وبسبب هذه القلاقل اضطرت فرنسا إلى تعليق حملتها الصليبية واكتفت ببلاتش كاستيل بترك قوة ضاربة في الجنوب كافية لردع ريموند السابع ومنعه من إثارة المتاعب لها .

غير أن ريموند السابع ظل يحتفظ بسيطرته على تولوز والأراضي الواقعة في شمالها في حين أن ملك فرنسا احتفظ بسيطرته على مدن ألبى وكاركاسون وبيزيبه وجميع البلاد الممتدة شرق منطقة ترانسافل حتى مدينة بوكير على نهر الرون . ولم يكن أهل أوكيتانيا في هذه المرة على استعداد لخوض المعارك إلى جانب ريموند السابع مثلما كانوا عقب وفاة سيمون دي مونتفورت ، فقد سئموا القتال وشعروا بالإرهاك من كثرة الحروب . وفي عامي ١٢٢٧ و ١٢٢٨ تطلع أهل أوكيتانيا إلى عقد معاهدة سلام دائم مع الفرنسيين على أساس الاعتراف بالحدود القائمة آنذاك ، والتقى ريموند السابع بالفرنسيين في مؤتمر عقد في مدينة مو في ديسمبر عام ١٢٢٨ استمر إلى يناير ١٢٢٩ ، وأبرموا معاهدة سلام تم التصديق عليها في باريس يوم ١٢ أبريل عام ١٢٢٩ .

كانت شروط هذه المعاهدة قاسية بالنسبة لريموند السابع . ولكنها رغم قسوتها أفادته في أمرين : أولهما - تصالحه مع الكنيسة . وثانيهما - الاعتراف به رسميا كونت تولوز . وبطبيعة الحال لم يكن رضا الكنيسة عنه ممكنا لولا أنه تاب وارعى ووعد بملاحقة الهرطقة وإنزال العقاب بهم . ودليلاً على عزمه على مطاردة الهرطقة أعطى كل من يقبض على مهرطق ماركين (تم تخفيضهما فيما بعد إلى مارك واحد) . وأيضاً أعطى ريموند السابع للكنيسة مبلغ أربعة عشر ألف مارك على سبيل التعويض . وكذلك تعهد ريموند بدفع أربعة آلاف مارك مرتبات لأساتذة اللاهوت وفقهاء القوانين الكنسية الوافدين إلى تولوز بهدف ترسيخ المؤسسة الكاثوليكية في بلد اشتهرت بانتشار المهرطقين الأمر الذي أثمر في النهاية إقامة جامعة تولوز . وأراد ريموند السابع توثيق عرى المودة بملك فرنسا فزوج ابنته من ألفونس شقيق هذا الملك . واستتب الحكم لملك فرنسا بعد أن تمكن من القضاء على جيوب المقاومة التي اعترضت طريقه من وقت إلى آخر مثل المقاومة التي بذلها فيكونت ترانسافل عام ١٢٤٠ لاسترداد الأراضي التي فقدتها عائلته .

وفي عام ١٢٤٢ قام ريموند السابع بتمرد جديد أصاب قدرا محدودا من النجاح وزاد من مشاكله حدوث مجزرة لمجموعة من محققى محاكم التفتيش في مدينة صغيرة في جنوب شرق تولوز تدعى أفيجنونيت . وزاد من مشاكله أن المجزرة وقعت في أراضيه وأن أحد موظفيه أعطى الأمر للمهرطقين بالهجوم على المحققين ، وفي الحال فرضت روما الحظر الكنسي على ريموند السابع وبدأت الكنيسة تفكر في شن حرب صليبية أخرى ، وانفض أتباع كونت ريموند عنه معلنين ولاهم ملك فرنسا لويس التاسع . وأدرك ريموند عدم جدوى الاستمرار في المقاومة فاستسلم للويس التاسع الذي أنزل به عقابا مخففا لإدراكه أنه لم يعد مصدر خطر . وكانت هذه هي المرة الأخيرة التي انخرط فيها ريموند السابع في تمرد ضد ملك فرنسا ، وقد أمضى ريموند السابع البقية الباقية من حياته في البحث دون جدوى عن زوجة تلد له ذكرا يرث ملك تولوز من بعده ، كما أنه سعى إلى استرضاء الكنيسة باضطهاد الهرطقة والتنكيل بهم .

وثأر ملك فرنسا للمجزرة التي أطاحت بمحققى محاكم التفتيش في أفيجنونيت فاستولى على قلعة أشد ما تكون تحصينا هي قلعة مونتسيجو التي كان الأرستقراط

المهرطقون يحتمون فيها . ولم يكن الاستيلاء على هذه القلعة بالأمر الهين ؛ فهي تقع فوق أحد جبال البيرتيز ولا سبيل إلى الوصول إليها سوى عن طريق صعر وعمر شديد الانحدار وكثير المنحنيات ، واستغرق حصار الجيش الفرنسي بقيادة هيو لهذه القلعة عاماً كاملاً من مارس ١٢٤٢ حتى مارس ١٢٤٤ وفي زمهرير شتاء بالغ القسوة .
و حين تم القبض على المهرطقين الذين يحتمون بهذه القلعة خيروا بين نبذ هراقتهم أو الموت حرقاً . ففضل مائتان منهم من الرجال والنساء الموت حرقاً فرحين جذلين على خيانة عقيدتهم الدينية المهرطقة .

وكان سقوط معقل مونتسيجور الضربة القاضية التي شتت المهرطقين المكاثارين بحيث لم تقم لهم أية قائمة بعد عام ١٢٤٤ . وبسحق المهرطقين تعزز حكم العائلة المالكة الفرنسية ، ويموت الكونت ريموند السابع في سبتمبر ١٢٤٩ آت أملاكه إلى لاونس كونت بواتييه وشقيق ملك فرنسا وزوج ابنة ريموند السابع الذي أنجب منها طفلة . وحكم ألفونس تولوز من باريس ولم يظهر في الجنوب إلا في عام ١٢٧٠ وهو يقود حملة صليبية متجهة إلى تونس . وعندما توفي ألفونس وابنته بدون نسل في عام ١٢٧١ بعد عودتهما من الحملة الصليبية آلت جميع أراضيها إلى ملك فرنسا الجديد الذي خلف لويس التاسع . وإنها لمفارقة ما بعدها مفارقة أن تتول الأراضي التي قاتل سيمون دي مونتفورت لعدة سنوات من أجل الحصول عليها والتي حارب ريموند السابع حرباً مريرة من أجل الحفاظ على بعض منها إلى العائلة المالكة الفرنسية بكل هذا اليسر وهذه السهولة . هذه المفارقة جعلت المؤرخ لوتشير يكتب في عام ١٩٠٥ قائلاً : « كل واحد ابتداء من البابا أنوسنت الثالث فصاعداً جاهد وكافح وتعذب دون أن يدرك أنه يعمل لصالح ملك فرنسا » .

(هذه هي الظروف التي نشأت فيها محاكم التفتيش في فرنسا والتي فصلناها في كتابنا « محاكم التفتيش » - دار الهلال ٢٠٠٢) .

الفصل الثانى

أوكيتانيا (جنوب فرنسا) Occitania

إن فرنسا التى نعرفها اليوم تختلف تماما من الناحية الجغرافية عن فرنسا فى القرون الوسطى . حيث إن اسم فرنسا آنذاك كان يشمل فقط المنطقة المحيطة بباريس . وحتى ندرك مقدار صغر مساحة فرنسا آنذاك نقول إن أهالى مدينتى تولوز ومونبلييه فى الجنوب كانوا يتحدثون عن الرحيل إلى فرنسا أو إلى باريس الأمر الذى يدل على أن هاتين المدينتين كانتا فى العصور الوسطى لا تعتبران جزءا من فرنسا . حتى الأراضى الواقعة فى شمال فرنسا الحالية مثل بريتانى ونورماندى كانت لاتخضع حتى أوائل القرن الثالث لسلطان فرنسا . ولكن من الخطأ أن نعتقد أن هذه المناطق الشمالية كانت منبثة الصلة بفرنسا حيث إن الوشائج الثقافية جمعت بينها الأمر الذى جعل توحيدها أمرا ممكنا . غير أن حالة الجنوب (الفرنسى) كانت تختلف تماما وخاصة فى أكويتين Aquitaine وتولوز فاستقلالها عن فرنسا كاد أن يكون كاملا . فضلا عن اختلاف لغة الشمال عن لغة الجنوب الذى يستخدم لغة البروفنسال أو لغة أوكيتانيا Occitania كما يحلو للدارسين أن يطلقوا عليها . وهى لغة أقرب إلى الإسبانية منها إلى الفرنسية لدرجة أن التاجر القادم من مدينة ناربون كان إذا ذهب إلى باريس يحتاج إلى مترجم فى حين إنه يتفاهم بسهولة مع أهل برشلونة . وبالإضافة إلى ذلك كانت القوانين السائدة فى الجنوب تختلف عن قوانين باريس والشمال .

وأیضا اختلف أهل الشمال عن أهل الجنوب فى نقطة بالغة الأهمية وهى أن مجتمعات الشمال كانت ريفية فى حين كانت مجتمعات الجنوب مدنية . ومن ثم كانت

مدن الجنوب أكثر جنوباً إلى الاستقلال من مدن الشمال التي غلب عليها الطابع الريفى ، ففى عام ١٢٠٠ على سبيل المثال تخلى حاكم الجنوب كونت تولوز عن جميع سلطاته تقريباً مانحاً إياها للقناصلة الذين تزعموا الطبقة البورجوازية التي أصبحت لها الغلبة على طبقة النبلاء ، وقد شكل فرسان تولوز جانباً كبيراً من جيشهما لخوض غمار الحرب ضد أعدائها جنوباً إلى جنب مع المدنيين هناك . هذه القوة العسكرية التي جمعت بين الأرستقراط والأهالى فى تولوز وفى غيرها من البلدان ساعدتها على بسط نفوذها على الريف المجاور لها ، وقد سعت تولوز قبيل عام ١٢٠٠ إلى الاستيلاء على القلاع التي تهدد طرق تجارتها الأساسية والتجأت من أجل تحقيق ذلك إلى إبرام التحالفات والمعاهدات وشن الحروب تماماً كما كان الإقطاعيون يفعلون إبان القرون الوسطى . أما الحال فى شمال فرنسا فقد كان مختلفاً لأن الفرسان الأرستقراط أبوا الاختلاط بسكان المدن وأثروا الانفصال عنهم . وعلى أية حال ناصب فرسان الشمال فرسان الجنوب العداء .

ومن المعروف أن سكان الحضر أكثر انفتاحاً من سكان الريف كما أنهم أكثر تسامحاً مع المتشككين وأكثر استعداداً لاستيعابهم ، ويسبب هذه السماح لم يجد اليهود ممن يعيشون على ساحل البحر الأبيض المتوسط أية عوائق كبيرة تعترض سبيلهم ، كما أن الهراطقة رغم كثرة عددهم فى الجنوب فى القرن الثانى عشر لم يجدوا أى تنكيل أو اضطهاد . ورغم تحيز الجنوب الفرنسى ضد المسلمين فإنه اقتدى بعلم المسلمين وحضارتهم ، بدليل أن مدينة مونبلييه سعت إلى الاستفادة من تقدم الطب عند المسلمين فى إنشاء مدرسة طب . كما أن شعر البروفنسال تأثر بشعر شمال أفريقيا .

حتى اهتمامات الشمال الأدبية كانت مختلفة عن مثيلاتها فى الجنوب ففى حين فضل الشمال الأدب الملحمى فضل الجنوب الأدب الغنائى . ولكن كلا الشمال والجنوب اشترك فى تقريظ الشجاعة فى حومة الوغى . ويمكننا أن نقول إن الشمال كان يحمل اسم فرنسا فى حين أن الجنوب المفتت من الناحية السياسية كان لا يحمل أى اسم بعينه وإن كان معروفاً باسم أوكيتانيا التي لا تتحدث اللغة الفرنسية بل لغة

خاصة بها يطلق عليها اسم الأوكتانية . وأوكيتانيا هي الاسم القديم للجنوب الفرنسى وتحدها جنوبا سلسلة جبال البيرنيز وتحدها من الشرق والشمال الشرقى هضبة كبيرة كما يحدها غربا خليج باسكال المطل على المحيط الأطلسى وهى تضم فيما تضم بوردور وبرومشفور وتولوز . وفى القرن الثالث عشر بعد أن قام الشمال بغزو الجنوب أصبح جزء كبير من هذا الجنوب يسمى لانجيدوك ويشمل مقاطعات تولوز وكاركاسون وبيزيه ويوكير ينيم وغيرها من المقاطعات مثل دوقية أكويتين Aquitaine . والجدير بالذكر أن إنجلترا احتلت دوقية أكويتين فى القرن الثانى عشر . فضلا عن أنها كانت مطمعا لملك أراجون الإسباني . وبسبب تفتت أوكيتانيا السياسى لم يتمكن كونت تولوز من إحكام القبضة على مقاطعته . فعلى سبيل المثال كان حكم مدينة ناربيون مقسما بين رئيس أساقفتها والفيكونت .

وكما سبق أن أوضحنا فى مؤلفات سابقة شجع النزاع المحتدم بين الكرسي البابوى والحكام المحليين حول السلطة الزمنية على انتشار الهرطقات .

والجدير بالذكر أن الهرطقة لم تكن شائعة فى شمال فرنسا قدر شيوعها فى جنوبها حيث إن الجنوب كان أقرب من الشمال إلى طرق التجارة المهمة التى تربط الشرق بالغرب . فضلا من قرب الجنوب الفرنسى من الهرطقات المتفشية فى شمال إيطاليا . وبطبيعة الحال ساعد الجنوب الفرنسى على الهرطقة فساد الإكليروس وتفشى الجهل بينهم . فبعض القساوسة كانوا أميين بالمعنى الحرفى للكلمة والبعض الآخر لا يعرف من اللغة اللاتينية ما يؤمله لإقامة القداديس . ناهيك عن لعب الميسر والإفراط فى شرب الخمر ومضاجعة الجوارى والفتيات والتكالب على جمع المال . وفى حين أظهر رؤساء الكنيسة فى شمال فرنسا شيئا من الاستياء من هذا الفساد نرى أقرانهم فى الجنوب يغضون الطرف عنه . فلا غرو إذا شاهدنا البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) ينحى باللائمة على رئيس أساقفة ناربيون ومعاونيه لجشعهم ولأنهم يعينون الفاسدين فى مناصب دينية نظير الرشاوى فضلا عن أن رئيس أساقفة ناربيون تقاعس فى أداء مهام وظيفته إلى حد أنه لم يقم بزيارة أسقفيته على مدى عشرة أعوام . وبسبب استئثار الفساد وجد البابا أنوسنت الثالث نفسه

مضطرا إلى إيقاف أربعة كرادلة عن العمل هم رئيس أساقفة نابون وأساقفة كل من تولوز وبيزييه وقيفييه . ولا ريب أن تفشي هذا الفساد الكنسى ساعد على انتشار الهرطقة لدرجة أن تولوز - وهى من أكبر وأغنى مدن أوكيتانيا - لم تجد أية غضاضة فى أن تختار حكامها وقناصلتها من المهرطقين . وكثيرا ما كان الهرطقة يجادلون رجال الكنيسة الكاثوليكية فى أمور الدين . وفى عام ١٢٠٧ نرى القديس دومينك يستمع إلى مجادلات واحد من زعماء الهرطقة يجادل بأن الكنيسة الرومانية هى كنيسة الشيطان والدنس والزنا . وقد اجتاحت بلاد أوكيتانيا هرطقتان هما الهرطقة الكاثارية أو التطهيرية والهرطقة الوالدنسيانية اللتان عالجتاهما بالتفصيل فى كتاب « الهرطقة فى الغرب (دار سينا - الانتشار العربى ١٩٩٧) . وتعرف الهرطقة الكاثارية بالهرطقة الألبيجنسائية Albigensian نظراً لانتشارها فى مدينة ألبى Albi التى تبعد نحو خمسة وأربعين ميلا من شرق تولوز . وتؤمن الهرطقة الكاثارية بأن العالم المادى من خلق شيطان رجيم وليس من خلق الله سبحانه وتعالى . وهى تشبه إلى حد ما المذهب المائى الذى انتشر قديما فى ربوع بلاد الفرس .

وإذا كانت كرادلة أوكيتانيا أثروا الوقوف مكتوفى الأيدى أمام ذبوع الهرطقة هناك فإن كنيسة روما شعرت بالانزعاج الشديد من انتشارها . وفى عام ١١٤٥ تولى الخطيب المفوه برنارد كليرفو Bernard Clairvaux رئاسة بعثة تبشيرية إلى أوكيتانيا لتحذير الكاثوليك من خطر الهرطقة وإرجاع الضالين إلى جادة الطريق . ورغم المنزلة العظيمة التى حظى بها هذا القديس فى الكنيسة الكاثوليكية فإنه وجد نفسه عاجزا عن أن يفعل شيئا مع مهرطقى أوكيتانيا التى كادت كنائسها تملأ من المصلين . وظلت كنيسة روما تتحلى بالصبر مع المهرطقين لمدة ستين عاما تجادلهم بالحسنى دون طائل . وفى عام ١١٧٨ أصدر المفوض البابوى قراراً بإدانة تاجر شديد الثراء فى تولوز يدعى بيير موراند Maurand كان على علاقة ودية بالمهرطقين ويتبع للهرطقة الكاثارية ونبذ بيير موراند هرطقته وصدر حكم بإرساله إلى الأراضى المقدسة لمدة ثلاثة أعوام يقضيها فى التوبة والغفران . وحين عاد إلى بلاده اختاره أهالى تولوز واحدا من قناصلتها أو حكامها . ومعنى هذا أن الكنيسة الرومانية أخفقت فى ردع الهرطقة المتفشية فى أوكيتانيا الأمر الذى أصاب كنيسة روما باليأس وأثار ثائرتها

فقررت استخدام القوة لاستئصال شائفة الهرطقة . وفى عام ١٢٠٢ أرسلت كنيسة روما راهبا فى طائفة السيستريان بأن المشهورة بالزهد والتقوى يدعى بيير دى كاستلنو Castelnau ويرفقتة زميل من الطائفة نفسها لهداية المنطقة الموبوءة . ورغم حرص هذا المبعوث ورفيقه على إقرار النظام فإنهما فشلا فى اقتلاع الهرطقة من جذورها . وفى عام ١٢٠٥ انضم إلى البعثة التبشيرية رجلان من إسبانيا هما الأسقف أوسما ومرءوسه دومينيك دى جوزمان . واتبع القديس دومينيك سياسة جديدة تتلخص فى انتهاج سياسة الفقر والاتضاع التى يتبعها الكاثاريون ، غير أن نجاح هذه السياسة فى هداية المارقين على الكنيسة كان محدودا واحتدمت مجادلات بين المهراطيين والمبشرين الكاثوليك فى جو من التسامح والحرية . وليس أدل على مدى الحرية التى تمتع بها المهراطيون من أنهم فى إحدى المجادلات نجحوا فى استفزاز القديس دومينيك واستثارة أعصابه فلجأ إلى التهديد باستخدام القوة معهم . وهكذا فشلت مجهودات الكنيسة الكاثوليكية التبشيرية فى الفترة من ١٢٠٢ حتى ١٢٠٧ فى هداية المهراطيين الذين جاهرُوا بإعجابهم بالهرطقة الكاثارية أو التطهيرية .

وفى ضوء فشل الجهود التبشيرية فى استئصال الهرطقة ظهر اتجاه أدى إلى استخدام القوة العسكرية لتحقيق هذا الغرض . فقد فكر البابا ألكسندر الثالث (١١٥٩ - ١١٨١) فى أن يطلب من الحكام والأمراء شن هجمات على المهراطيين فى الداخل والخارج على حد سواء . وبطبيعة الحال كان الكرسي البابوي آنذاك يعتبر المسلمين من المهراطيين . غير أن نجاحه فى هذا الشأن كان محدودا . ورغم ذلك فقد نجح هذا البابا فى حثهم فى عام ١١٨١ على شن هجوم على مدينة لافور الهرطقة . ولكن جهود الحكام والأمراء للتصدي للهرطقة توقفت عند هذا الحد . والجدير بالذكر أن البابوات فى القرن الثانى عشر كانوا بوجه عام عازفين عن استخدام القوة مع أعدائهم . حتى البابا ألكسندر الثالث نفسه أظهر نوعا من الإحجام عن شن حرب صليبية ضمن المهراطيين .

ولكن هذا الوضع تغير بحلول القرن الثالث عشر ، فمنذ أن تولى البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ - ١٢١٦) سدة البابوية جنح البابوات خلال القرن الثالث عشر إلى استخدام العنف واللجوء إلى الحملات الصليبية للوقوف فى وجه المهراطيين والخارجين

على الكنيسة مقابل منح صكوك الغفران للمحاربين . وإلى جانب هذا لم يتورع هؤلاء البابوات عن قمع الحكام المناهضين لهم في ألمانيا وجنوب إيطاليا ، الأمر الذى أشاع الفوضى فيهما . واعتمد البابوات على شمال فرنسا فى حشد الجيوش الصليبية . وكانت حملة أنوسنت الثالث الصليبية ضد المهرطقين فى أوكيتانيا (المعروفة باسم الحروب الصليبية الألبيجنسيانية Albigensiar نسبة إلى مدينة ألبى) هى أولى هذه الحروب وأوسعها نطاقا كثرت الحروب الصليبية التى شنها الكرسي البابوى على المهرطقين فى القرن الثالث عشر وفى الفترة من ١١٨٥ حتى ١٢٨٥ على وجه التحديد . وفى تلك لم يكد يمر عام واحد دون شن حرب صليبية ضد المهرطقين أو التفكير فى الإعداد لها .

ولعل الصواب لا يجانبنا إذا قلنا إن ذلك القرن هو قرن الحروب الصليبية فى الداخل والخارج على الهرةطة والمهرطقين . وفى الفترة من عام ١١٨٩ حتى ١١٩٢ نشبت الحرب الصليبية الثالثة . وتلتها الحرب الصليبية الرابعة (١٢٠٢ - ١٢٠٤) والخامسة (١٢١٧ - ١٢٢١) والحروب الصليبية التى شنها على المهرطقين الإمبراطور فردريك الثانى فى عام ١٢٢٨ ثم حرب ثيبولد شامبانى Thibauld Champagne (١٢٣٩ - ١٢٤١) وحرب القديس لويس (١٢٤٨ - ١٢٥٤ و ١٢٧٠) . والقرن الثالث عشر هو أيضاً القرن الذى شاهد الحروب الصليبية الألبيجنسيانية (١٢٠٩ - ١٢٢٦) التى سوف نركز عليها . فضلاً عن الحرب الصليبية ضد هوهنستوفين Hohenstanwfen (التى امتدت من عام ١٢٤٠ حتى ١٢٦٨) . وأخيراً هناك الحرب الصليبية ضد أراجون (١٢٨٥) التى أقنعت الجيش الفرنسى المشترك فيها بعدم جدوى مثل هذه الحروب . وحتى ندرك مدى تحمس العائلات المالكة - الأرستقراطية للانخراط فى هذه الحروب من أجل الله وخدمة كنيسة والتصدي للمهرطقين والكفار يكفى أن نقول إن خمسة ملوك متعاقبين قادوا بأنفسهم هذه الحملات الصليبية (وهم الملوك لويس السابع . وفيليب أوغسطس ، ولويس الثانى ، ولويس التاسع ، وفيليب الثالث) . وقد لقي ثلاثة الملوك الآخرون حتفهم فى هذه الحروب .

وكما أسلفنا عجز التبشير والحث عن إقناع زعماء أوكيتانيا أمثال ريموند السادس وكونت تولوز وكونت فوا وفيكونات تراسيفيل بالتحرك للقضاء على المهرطقين

حيث إن تصديهم للهرة كان سيغرق البلاد فى حروب أهلية وحيث إن كل عائلة كبيرة كانت تضم بعض المهرة . وعندما تلقى ريموند السادس كونت تولوز طلبا من الكرسي البابوي بقمع الهرة والمهرة فى بلاده اكتفى بالردود المؤدبة التى لا طائل من ورائها مؤكداً أنه مؤمن بالعقيدة الكاثوليكية الحق . غير أن هذه الردود المؤدبة وغير الفاعلة لم تشف غليل البابا أنوسنت الثالث الذى رأى فى الالتجاء إلى القوة حلاً لمشكلة انتشار الهرة . وفى عامى ١٢٠٤ و ١٢٠٥ طلب هذا البابا من ملك فرنسا فيليب أوغسطس مساعدته فى قمع الهرة فى مناطق الجنوب . ونجح البابا فى حث هذا الملك على قيادة حرب صليبية شاملة لاستئصال شافة المهرة الكاثوليك فى أوكيتانيا وأغرى البابا المقاتلين الصليبيين بالاستيلاء على أراضى وأملاك أمراء الجنوب الذين يوفرون الحماية للمهرة . ولكن هذا العرض لم يلق قبولا أو استحساناً لدى ملك فرنسا لأنه رأى أن هذه الأراضى ينبغى أن تنقل إلى رؤساء الإقطاع . وعلى أية حال اعتذر ملك فرنسا فيليب أوغسطس عن عدم الاشتراك فى قمع الهرة المنتشرة فى جنوب فرنسا بأن قال إنه استنفد جهوده فى الانتصار على نورماندى وأنجو وانتزاعهما من يد الغزاة الإنجليز . وأيضاً طلب ملك فرنسا من البابا أن يحصل من ملك إنجلترا على تعهد بعدم العودة إلى احتلال هذه المناطق حتى يتفرع للمهرة فى الجنوب ويتمكن من توجيه ضربة إليهم . وبطبيعة الحال لم يكن فى مقدور البابا أن يضمن تصرفات ملك إنجلترا . وهكذا استطاع الملك فيليب أوغسطس أن ينأى بنفسه عن الاشتراك فى أول حرب صليبية ألبيجانستية . ورغم هذا فلا مناص من الاعتراف بأن ملوك فرنسا رغم خلافهم المتكرر مع الكرسي البابوي كانوا أكثر ملوك أوروبا تحمساً لتنظيم وشن الحملات الصليبية فى الداخل والخارج .

وفى عام ١٢٠٧ قام المفوض البابوي بيير دى كاستلنو بفرض الحظر الكنسى على كونت تولوز ريموند السادس وكذلك فرض الحظر على ممتلكاته . ويرجع السبب فى هذا إلى أن هذا الكونت جرد الكرادلة من ممتلكاتهم إلى جانب توفيره الحماية للمهرة . وأيد البابا أنوسنت الثالث فى خطاب سطره بتاريخ ٢٩ مايو ١٢٠٧ الإجراء الذى اتخذه مفوضه بيير . وكذلك هدد البابا فى هذا الخطاب كونت تولوز

بحشد أمراء الممالك الأخرى لتطهير تولوز من دنس الهرطقة . ونفذ البابا تهديده بأن ناشد ملك فرنسا فيليب أغسطس بسرعة التدخل لقمع الهرطقة في الجنوب .

ومن جانبه حاول ريموند السادس السعى لدى انوسنت الثالث لرفع الحظر الكنسى عنه كما اعتاد أمثاله من الأمراء أن يفعلوا . ولكن البابا رفض رفضاً قاطعاً رغم اجتماعه مرتين بكونت تولوز . وانتهت مفاوضاتهما الثانية في يناير ١٢٠٨ بمشادة كلامية . يقول البابا إن الكونت ريموند وجهه على إثرها إنذاراً إلى كل الكرادلة بوضعهم تحت رقابته الصارمة . وفي يوم ١٤ يناير من هذا العام نفسه اغتيل بيير دى كاستلنو وهو يستعد لعبور نهر الرون دون أن يكون لريموند السادس يد في اغتياله . حتى البابا نفسه لم يتوفر لديه أى دليل على تورطه في هذا الاغتيال بل كانت لديه مجرد ظنون . ورغم ذلك فقد قرر الكرسي البابوي حشد جيش صليبي للزحف من الشمال الفرنسى على تولوز للقضاء المبرم على الهرطقة المستشرية فيها . وحتى يغرى الفرنسيين بالانضمام إلى هذا الجيش وعدهم بغفران الخطايا . وقد أسندت قيادة الجيش من الناحية الشككية إلى المفوض البابوي أرنود أمورى في حين إن القيادة الفعلية دانت لدوق بورجندي والكونت ، ثم برز في ساحة القتال البارون سيمون قائد مونتفورت . غير أنهم لم يكونوا من الناحية العسكرية على المستوى اللائق الأمر الذي أعاق دحر المهراطيين وإحراز النصر عليهم .

الفصل الثالث

مقاطعة لاجويدوك Languedoc

واكب محق الهرطقة فى أوكيتانيا فى الجنوب فقدان أوكيتانيا لاستقلالها وضمها إلى الأراضى الفرنسية فى الشمال . وأصاب الضعف والوهن نفوذ ريموند السابع حاكم تولوز فى الجنوب بحيث أصبح خاضعا لنفوذ لويس التاسع ملك فرنسا . ولاعتبارات سياسية تزوج ريموند السابع من ابنة ألفونس بواتيه شقيق ملك فرنسا . غير أن جميع ممتلكات ريموند آلت بموته إلى ألفونس بواتيه ثم أصبحت فى النهاية جزءاً من أملاك الخاصة الملكية الفرنسية بعد وفاة شقيق الملك . وأصبحت جميع الأراضى الأوكيتانية الواقعة بين أكويتين Aquitaine وپروفانس Provence خاضعة لملك فرنسا الذى اتبع سياسة إضعاف طبقة النبلاء ورجال الأكليروس حتى يضمن سيطرته عليهم . وحتى يؤمن جبهة الجنوب من أى تدخل خارجى أبرم ملك فرنسا معاهدتين مع ملك أراجون فى عام ١٢٥٨ وملك إنجلترا فى عام ١٢٥٩ أصبح بمقتضاها ملك إنجلترا يحتفظ بدوقية أكويتين على أن يكون خاضعاً لملك فرنسا ورغم نجاح ملك فرنسا فى ضم جنوب أوكيتانيا إلى أراضيه فقد ظلت تولوز فى عام ١٢٠٠ تنعم بشئ من الاستقلال . وبانضمام الجزء الكبير من أوكيتانيا الذى احتله ملك فرنسا انسلخت هذه الأراضى المحتلة عن أوكيتانيا غير أن الحكم الفرنسى رأى من الأصح له أن يمنح خمس مقاطعات فى الجنوب نوعاً من الاستقلال والروابط المشتركة مثل اللغة والقانون والإجراءات والإدارة . وتتكون هذه المقاطعات المشتركة من بيريغورد - كويرسى وردوبرج وتولوز وألبى وكارسون بيزيه وبوكير ينميس . وأطلق الفرنسيون على هذا التجمع السياسى والديموجرافى آنف الذكر اسم

مقاطعة لانجويدوك . وهو اسم يختلف عن اسم الشمال الناطق باللغة الفرنسية والمعروف باسم لانجويدويل Longuedoell . ويرجع الفرق بين الاسمين إلى أن أهل الجنوب كانوا ينطقون كلمة نعم بـ Oc فى حين أن أهل الشمال الفرنسى كانوا ينطقونها بـ Ocil التى تحولت فيما بعد إلى Oui ، أى أن الخلاف فى التسمية يرجع إلى أسباب لغوية بحتة . وليس أدل على استقلال لانجويدوك من أنه كان لها برلمان خاص بها .

كانت لانجويدوك أكثر أجزاء أوكيتانيا اتساعاً وأكثرها حيوية . ورغم كل ما شاهده هذه المنطقة من قلاقل وحروب صليبية فإنها حافظت على رخائها وازدهارها وهويتها الثقافية . فضلاً عن كونها شرياناً تجارياً وصناعياً مهماً . وقد ظلت هذه المقاطعة تحتفظ بازدهارها الاقتصادى حتى القرن الرابع عشر الذى شاهد كساداً اقتصادياً عظيماً . ولم يحاول ملك فرنسا التدخل فى شئون هذا الإقليم طالما أنه وازب على دفع الضرائب المفروضة عليه وأطاع أوامر الملكية . وأيضاً من دلائل استقلال هذا الإقليم أنه كانت له لغته وقوانينه وجامعاته الخاصة . وكما ذكرنا تركتهم السلطة الفرنسية لشأنهم فلم تحاول إرغامهم على استخدام اللغة أو القوانين الفرنسية على عكس سيمون دى مونفورت الذى أجبرهم على استخدام بعض القوانين الفرنسية . والجدير بالذكر أن كثيراً من الوظائف الرسمية مثل الإدارة والقضاء كانت تسند إلى أهل الجنوب . والجدير بالذكر أيضاً أن لانجويدوك استطاعت أن تتجاوز الدمار والخراب الذى ابتليت به من جراء الحروب الصليبية وتسترد عافيتها وازدهارها . ولعل الكساد الاقتصادى وحرب مائة العام أضربها أكثر مما أضرت به الحروب الصليبية .

وبسبب احتلال فرنسا لها أصبحت لانجويدوك إحدى مقاطعاتها ، لها لغتها الدارجة وهى اللغة الأوكيتانية . وكما أسلفنا امتنع الفرنسيون عن إرغام أهل الجنوب على استخدام اللغة الفرنسية . وأصبحت اللغة الأوكيتانية المحلية لغة الشعر فى تلك المنطقة . ولكن هذا الوضع أضرب إنتاجها الأدبى حيث صار محلياً وليس رافداً

أساسيا فى الأدب الفرنسى وشيئاً فشيئاً بدأ أهل لانجويدوك يتعلمون اللغة الفرنسية ولكن بلكنة جعلت منهم حتى يومنا الراهن أضحوكة فى نظر أهل باريس . وبمرور الزمن أدرك أهل لانجويدوك أن استخدامهم للغة الأوكيتانية المحلية يمثل عائقاً أمام طموحهم وتقدمهم الاجتماعى ولهذا اتجه البعض منهم إلى أن يكون فرنسا أكثر من الفرنسيين مثل جيوم دى نوجاريت الذى عمل قاضياً فى الجنوب ليصبح واحداً من أهم وزراء الملك فيليب العادل وبلغ من ولاء هذا الرجل للعرش الفرنسى أنه قام بالقبض على البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٤ - ١٣٠٣) والزج به فى السجن عندما دخل هذا البابا فى صراع مع ملك فرنسا بحجة أن ولاءه لوطنه فرنسا يفوق أى ولاء آخر . وجمع شتات المقاطعات المتباينة فى صعيد وطنى واحد كان لابد للحكومة المركزية فى فرنسا أن تترسخ .

ولكن ولاء نوجاريت الأعمى لملك فرنسا لم يكن القاعدة بين أهل لانجويدوك حيث إن معظمهم كان بتشكك فى نوايا الحكومة المركزية فى باريس ويحرص على الاستقلال عنها . بل إن مفاهيم الجنوب الدينية كانت فى كثير من الأحيان أبعد ما تكون عن المفاهيم الكاثوليكية التقليدية . وظلت لانجويدوك تحافظ على هذا الاستقلال الثقافى والدينى لقرون طويلة قبل أن تنصهر تماماً فى بوتقة فرنسا الثقافية والدينية والسياسية . ويدلل المؤرخون على جنوح أهل لانجويدوك نحو المروق الدينى ليس فقط بانتشار الهرطقة فيها فى الماضى بل بانتشار الدين البروتستانتى . وعلى أية حال فلا ريب أن الحروب الصليبية الأليجانستية أسهمت إسهاماً ملحوظاً فى صهر لانجويدوك فى بوتقة السياسة الفرنسية .

وغنى عن الذكر أن بابوات روما كثيراً ما كانوا يحققون مطامعهم السياسية عن طريق الاستعانة بملوك لقمع محاولات الاستقلال عنهم . فعلى سبيل المثال عندما قرر البابوات إحكام السيطرة على صقلية ونابولى وانتزاع الأولى من قبضة عائلة هو هستوفن المناهضة للكرسى البابوى ثم تسيير حملة صليبية فرنسية ضدهما كما تم تعيين أمير فرنسى حاكماً على الجنوب الإيطالى .

محاكم التفتيش فى لانجويدوك

عندما نشأت محاكم التفتيش فى إقليم لانجويدوك فى جنوب فرنسا لم تكن هناك أية سابقة يمكن لهذه المحاكم الاقتداء بها . وكان جانب كبير من سكان لانجويدوك يدين بالهرطقة الكاثارية (التطهيرية) والهرطقة الوالدنسياتية (انظر د. رمسيس عوض الهرطقة فى الغرب . دار سينا للنشر بالقاهرة والانتشار العربى فى بيروت ١٩٩٧) انتشرت الهرطقة فى لانجويدوك انتشار النار فى الهشيم لدرجة أن جميع العائلات لم تخل من وجود مهرطقين بين أفرادها . وكان أهالى لانجويدوك باستثناء الرهبان الفرنسيين الوافدين فى الشمال يناصرون محاكم التفتيش العداء وينظرون إليها شذرا . وقد عبر شعراء التروبادور عن احتقارهم لها وللرهبان الفرنسيين الذين يؤيدونها . يقول جويلم دى موتانا جوت فى هذا الشأن : « الآن تحول القساوسة إلى محققين فى محاكم التفتيش وهم يدينون الناس وفق هواهم . وليس لى اعتراض على محاكمات التفتيش لو أنها أدانت أخطاء الناس بالحسنى وأعدت الضالين إلى حظيرة الإيمان دونما غضب مستشيط وسمحوا للتائبين أن يجدوا الرحمة » . وأيضاً انبرى بيير كاردينال للهجوم على محاكم التفتيش قائلاً : « إن الرهبان الدومنيكان أثناء تناولهم طعام الغذاء يتجاذبون أطراف الحديث حول جودة الخمر التى يحتسونها .. وأنشأوا محكمة تتهم كل من يهاجمهم بأن مهرطق والدنسانى ساعين إلى النفاذ إلى أسرار جميع الناس بهدف بث الرعب فى قلوبهم » .

كان حكام لانجويدوك يتخذون موقفاً متسامحاً من الهرطقة . وحتى إذا لم تكن السلطة الحاكمة مهرطقة فإنها لا تعترض سبيل المهرطقين وتتركهم وشأنهم وتهتم بالحفاظ على الحريات المدنية أكثر من اهتمامها بمحاربة الهرطقة . وفى طول لانجويدوك وعرضها كان النبلاء الأقوياء يجهرون بهرطقتهم أو يحتفظون بها فى قلوبهم سرا . وكما سوف نرى بالتفصيل كانت الكنيسة الكاثوليكية تعتبر ريموند حاكم تولوز فى عداد المهرطقين وكان أهالى لانجويدوك ينظرون إلى محاكم التفتيش على أنها قوة غازية ورمز للسيطرة الأجنبية .

حمل أهل لاونجويدوك المقت لرجال الأكليروس بسبب شدة فسادهم وعنقهم . وكثيراً ما لجأت الكنيسة إلى الاستيلاء على أموال الناس وممتلكاتهم بزعم أن أصحابها مهرطقون ، الأمر الذى اضطر البابا أنوسنت الرابع فى عامى ١٢٤٣ و ١٢٤٥ إلى إصدار أوامره بعدم انتهاج هذه السياسة حتى لا يتهم المهرطقون رجال الكنيسة بأنهم مجموعة من اللصوص والمحتالين تسعى إلى الاستحواذ على ممتلكات الناس بزعم إنقاذ أرواحهم من الهلاك . والجدير بالذكر أن الهرطقة لم تنتعش فقط بين المدنيين من سكان لاونجويدوك بل وبين رجال الدين أنفسهم الذين تمتعوا بالحصانة من العزل رغم هرطقتهم بسبب قلة عدد الأساقفة الذين يمكنهم شلحهم أى عزلهم من وظائفهم الكنسية . ولهذا أصدر البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٣٣ مرسوماً يقضى بمنح الأسقف الواحد (دون حاجة إلى مجمع أساقفة) الحق فى شلح أى كاهن مهرطق وتسليمه إلى الذراع العلمانى لحرقه حياً . وهو نص أدخله هذا البابا فيما بعد على القانون الكنسى . وأيضاً أصدر البابا أنوسنت الرابع فى عام ١٢٤٥ إلى المفوض فى لاونجويدوك أمراً بعدم ترقية أى مهرطق إلى مرتبة أسقف . وقد واجه رجال الدين المتحمسون عداوة مشبوبة من الشعب لدرجة أنه تعذر عليهم استمرار العيش فى أماكن عملهم مثلما حدث لجويلم بيير قسيس ناربون فى عام ١٢٤٦ الأمر الذى أدى إلى امتناع كثير من الكرادلة فى لاونجويدوك من تقديم العون والمساعدة إلى محاكم التفتيش مما أثار حنق البابا أنوسنت الرابع ودهشته . وقد وصف برنارد جوى الأساقفة الذين ناصروا ريموند كونت تولوز بأنهم من أخبث خلق الله وبأنهم الأعداء الحقيقيون الذين يهددون الكنيسة ومحاكم تفتيشها . وكذلك تسبب ادعاء المحققين فى محاكم التفتيش بأنه يحق لهم مراقبة أعمال القساوسة فى بذر بذور الشقاق بين محاكم التفتيش وعدد من رجال الكنيسة ..

وأيضاً واجهت محاكم التفتيش مشكلة عدم وجود أماكن لحجز المتهمين وعدم وجود سجون لوضع المحكوم عليهم فيها . وتهرب الأساقفة من مسئولية إقامة السجون لأعداد السجناء الفقيرة فاضطر الملك لويس التاسع إلى التدخل لبناء هذه السجون . وبسبب هذه العوائق لم يكن من السهل على المحققين فى محاكم التفتيش أداء واجبات وظيفتهم . ولولا إفراطهم فى التعصب وتحمسهم الشديد

لأعمالهم القمعية لربما فتُ هذا فى عضدهم . وقد لعب الرهبان الجائلون والشحاذون الذين نذروا أنفسهم لخدمة الله والزهد فى الحياة دوراً مهماً فى توجيه هذه المحاكم وإدارتها . وأعطاهم عزوقهم المطلق عن زخرف الدنيا طاقة هائلة فى قمع المهرطقين . ولاريب أن محاكم التفتيش أسهمت بنصيب وافر فى إخضاع أوكيتانيا فى الجنوب إلى ملك فرنسا فى الشمال موحدة بذلك الشطرين الشمالى والجنوبى رغم مشاعر الجنوب العدائية ضد الشمال كما سبق أن رأينا عند الحديث عن الحروب الصليبية الألبيجانستية . وكما قلنا وجد المهرطقون فى لانجويديك الحماية لدى النبلاء والأشراف وعلية القوم . ونتيجة قوة المهرطقين وكثرة أعدادهم تعرض بعض الكهنة فى كثير من الحالات للذبح دون رحمة . وفشلت جهود المفوض البابوى الكاردينال رومانو ومجلس تولوز فى حماية العقيدة الكاثوليكية . والجدير بالذكر أن الجامعة التى أنشأها ريموند فى تولوز تعثرت فى أداء مهمتها فى بادئ الأمر رغم أنها استقدمت فقهاء لاهوت للتدريس فيها من باريس . بل إن سكان الجنوب سخرُوا علانية من مداخلات ومجادلات هؤلاء الفقهاء الأمر الذى اضطر ريموند إلى وقف الإعانات عن هذه الجامعة الوليدة التى اضطرت إلى إغلاق أبوابها لبعض الوقت .

ومع اشتداد ساعد طائفة الرهبان الدومينكان بدأ هؤلاء الرهبان يتصدون بقوة وحزم لانتشار الهرطقة فى تولوز حتى قبل أن تنشأ محاكم التفتيش . وفى عام ١٢٢١ اعتلى واحد من غلاة الرهبان المنبر ليعلن أن تولوز مليئة بالمهرطقين الذين ينشرون ضلالهم دون أن يعترض سبيلهم أحد . وضاق حاكم تولوز ذرعاً بشكوى من هذا الراهب لما تتضمنه هذه الشكوى من دعوة إلى القمع . واجتمع القناصلة فى قاعة المدينة وجاء رئيس الأساقفة ببيير داليه لتوبيخ الراهب لقوله بوجود هرطقة فى المدينة . ورغم تفاهة هذه الحادثة فإنها تمثل مؤشراً إلى التوتر الذى شاب علاقة السلطة المحلية فى تولوز بمحاكم التفتيش ورغبة هذه المحليات فى الاحتفاظ باستقلالها عن الكنيسة . ولكن تولوز كما سوف نشاهد اضطرت فى النهاية إلى الخضوع لاستبداد الكنيسة .

ويعتبر رولان كريمونلة المنتمى إلى طائفة الرهبان الدومنيكان الذى انتدبته جامعة تولوز الوليدة من جامعة باريس لتدريس اللاهوت فيها من أوائل الساخطين على اللغة القاذعة التى استحدثتها قناصل تولوز فى هجومهم على الرهبان المتحمسين لتعقب المهرطقين . وذهب رولان كريمونلة إلى أنه اكتشف أن كاهناً فى كنيسة سيرين يدعى جان بيير دونات مات مؤخراً ودفن فى أرض الدير ضل وهرطق وهو على فراش الموت . ويدون الرجوع إلى السلطات ويدون إجراء أى تحقيق قانونى قام الراهب رولان بالاجتماع ببعض الرهبان والقساوسة ونبشوا القبر وأخرجوا الجثة منه وجروها فى الشوارع ثم قاموا بحرقها أمام الملأ . وبعد هذا بوقت قصير سمع هذا الراهب عن قسيس مرموق من أتباع الهرطقة الوالدنسينية يدعى جالفان . فقام رولان بإلقاء عظة هيج فيها خواطر الناس وقاد طغمة من الرعاع إلى البيت الذى مات فيه هذا المهرطق ودمروه وساووه بالأرض . ثم تقدموا إلى المدافن التى دفنت فيها جثة هذا المهرطق وأخرجوها من الأرض وجروها فى المدينة فى موكب حاشد حتى وصلوا بها إلى ميدان الإعدام حيث حرقوها بكل وقار . هذه الأعمال ارتكبها رجال الكنيسة دون أى سند أو تفويض قانونى .

وقبل إنشاء محاكم التفتيش كانت محكمة الأسقفية هى التى تتخذ ما تراه من إجراءات ضد المهرطقين ، وكذلك تكليف الذراع العلمانى أو السلطة المدنية بالتصرف . ولكن الراهب رولان قام بالاشتراك مع الرعاع فى حرق رفات ضحيته دون الاحتكام إلى نصوص القانون . وساعدهم على أخذ القوانين فى أيديهم قيام بعض الأساقفة بشن غارات على المهرطقين خارج أسوار مدينة تولوز فى حين أنهم سمحوا للمهرطقين داخل المدينة بالتمتع بحماية القناصل لهم .

وبالنظر إلى أن عمليات قمع الهرطقة لم تكن قد اتخذت بعد أشكال منظماء فقد شعر الأكليروس بالحاجة إلى تنظيم يضطلع بمهمة مطاردة المهرطقين وعقابهم . ولا شك أن تعيين محققين للتحقيق فى أمور الهرطقة عام ١٢٣٢ كان أول سابقة من نوعها دون أن تثير الاهتمام أو تلفت النظر إليها . وقد كان بيير بون دى سانت جيل رئيس كهنة تولوز وبيير سيلد وجويلم أرتود وأرنود كاثالا من أول الذين عينوا محققين فى

محاكم التفتيش . وعندما نشأت محاكم التفتيش فى ظل هذه الظروف لم يدر بخلد أحد أنها سوف تكون هذا الشئ الرهيب المروع والذى سوف يفضى فى المستقبل إلى كل هذا الهول والرعب . وكان بيير بون دى سانت جيل رئيس كهنة تولوز وبيير سيلا وجويلم أرنود من أوائل المعينين محققين فى محاكم التفتيش .

لم يعدم المهرطقون فى تولوز من يدافع عنهم . فعندما قام المحققان بيير وجويلم بإجراء تحقيق حول الهرطقة المتفشية فى المدينة وأشارا إلى وجود عدد كبير من المشتبه فى هرطقتهم ، انبرى كبار رجال تولوز للدفاع عنهم ، وعندما أدين مهرطق يدعى جين تيسير بتهمة الهرطقة كاد المسئول الدينى أن يقود المتهم إلى المحرقة . ولكن الجمهور المتعاطف مع المهرطق تجمع وهدد المسئول الدينى بالويل والثبور وعظائم الأمور بصوت راعد هادر ، الأمر الذى اضطر ممثل الكنيسة إلى الاكتفاء بإبعاده والزج به فى سجن الأسقفية بينما هو يؤكد أن مسيحيته صحيحة وفوق مستوى الشبهات . وحدث هرج ومرج فى مدينة تولوز وهدد الغوغاء بتدمير دير الدومينكان هناك ورجم رهبانه بالحجارة لأن هؤلاء الرهبان ينكرون بالأبرياء . وأثناء سجنه تظاهر تيسير المتهم بالهرطقة بشدة مرضه ودنو الموت منه وطلب التناول والصلاة من أجله .. ولكن هذه العودة إلى حظيرة العقيدة الكاثوليكية سرعان ما انتهت بالردة إلى الهرطقة . فبعد أن أحضر مسئول مدينة لافور إلى تولوز عددا من المهرطقين الذين تأكدت هرطقتهم وسلمهم إلى الأسقف ، لم يجد تيسير غضاضة فى مخالطتهم والتأثر بهرطقتهم والسير على دربهم لدرجة أنه قرر الانضمام إليهم عندما قام المحققون باستدعائهم للتحقيق معهم . ودعا الأسقف القضاة وعددا كبيرا من المواطنين لحضور التحقيق مع المسجونين ومن بينهم تيسير وانتهى التحقيق بإدانتهم جميعا . وركب تيسير رأسه ورفض التراجع عن هرطقته ولم يعترض أى منهم على إحراقه حيا . والجدير بالملاحظة هنا أن المحققين فى بادئ الأمر كانوا يخضعون لسلطة الأسقف . غير أن المحققين خارج تولوز أجروا تحقيقاتهم فى استقلال تام عن الأساقفة . ففى مدينة كاهور مثلا تصرفوا بدون الرجوع إلى أسقف كوبرسى أو استشارته حيث إنهم فى عام ١٢٢٤ أدانوا عددا من الموتى وأخرجوا جثثهم من القبور وحرقوها الأمر الذى أدخل الرعب فى قلب كاثوليكي مؤمن يدعى ريموند بروكياس فهرب إلى روما .

وحين تم فى تولوز إعلان قرار تنصيب دومينيك قديسا فى الكنيسة أقام الأسقف ريموند قداساً وقورا فى دير الدومينكان ، وبينما كان يغادر الكنيسة لتناول طعام الغداء فى مطعم الدير أرسل إليه القديس يبلغه عن وجود مهرطقين فى بيت يقع فى شارع قريب . وهرع الأسقف معاونوه إلى هناك فاتضح لهم أن صاحب البيت هو بيافين بورسييه مبد تولوز حيث كانت حماته راقدة تحتضر بسبب الحمى التى أصابتها الزيارة مباغطة لدرجة أن المرأة المحتضرة لم تشعر بدخول الأسقف وظنت المرأة أن الأسقف القادم زميل لها فى الهرطقة فأسرت له بمعتقدات عندئذ كشف الأسقف عن هويته وطلب منها نبذ هرطقتها ولكنها أبت ، إدانة هرطقتها وأمر بحملها على سريرها وإضرام النار فيها فى مك وألقى القبض على بورسييه وبرنارد ألديك اللذين وشيا بالكثير من أ ولما فرغ الأسقف ريموند من أمر المهرطقين قفل راجعا مع أعوانه إلى الطعام الذى تركوه بعد أن شكروا الله وشكروا القديس دومينيك على حـ

ومع اشتداد مطاردة المهرطقين تزايدت مقاومتهم وتزايدت ضراوة يدافع عنهم ؛ ففي عام ١٢٣٣ أرسلت الكنيسة اثنين من الرهبان الدوميني كورديس للبحث عن المهرطقين . ولكن المواطنين الغاضبين انقضوا عا بذبحهما . وفى مدينة ألبى ثار الشعب فى ١٤ يونيه ١٢٣٤ عندما رأى من المهرطقين . وعقابا له على ثورته أمر أرنود المسئول الكنسى كانالا امرأة مهرطقة تدعى تسييرها من قبرها لإحراقها . ولكن المسئول الكند نفسه على تنفيذ هذا الأمر . فقام أرنود على الفور بمغادرة اجتماع اا يحضره واتجه إلى الجبانة وأمسك بالمعول وانهاه به على القبر ثم أمره ما بداه ثم عاد إلى السنودس لمواصلة اجتماعه . غير أنه رأى موظفيه ليبلغوه أن حشدا من الغوغاء طردهم من الجبانة . وعندما عاد أرنود إل حشدا من الناس يحتلونها فأحاطوا به وتكاثروا عليه وأوسعوه ضربا و جنبيه وهم يصيحون : « اقتلوه فليس له الحق فى أن يحيا » وحاول با جره خارج الجبانة لذبحه فى حين اقترح البعض إلقاءه فى نهر كارز

الناس أنقذوه وأعادوه إلى اجتماع السنودس حيث تبعه جمع من الناس وهم يهتفون بموته : وبدا أن جميع سكان ألبى توحيدوا وأنهم يؤازرون المهرطقين ويناصبون أرنود العداء الأمر الذى اضطره إلى إلغاء الحظر الذى كان قد فرضه على المدينة المهرطقة ولكن خليفته الراهب فيرر تمكن من حبس الكثيرين وإحراق عدد آخر منهم .

كانت القلاقل أكثر تفاقما فى مدينة ناريون على الرغم من إرسال محققين مخصصين لهم . ففى مارس ١٢٣٤ تطوع الرئيس الدومينيكانى فرانسو فيربر من تلقاء نفسه بإجراء تحقيق مع المهرطقين وزج بالسجن مواطنا يدعى ريموند دارجان . ولكن تنظيما يعرف بأميستانس هب هبة رجل واحد لإطلاق سراحه . ولكن رئيس الأساقفة بيير أميل وأميرى فيكونت ناريون قاما بمحاولة إعادة القبض عليه . غير أنهما وجدا أن أعضاء هذا التنظيم يقومون بحراسة بيته . وما إن رأهما بيير أميل وأميرى كونت قادمين حتى تبعهما أعضاء التنظيم صائحين « قتلوهما .. اقتلوهما . » ونجحوا فى طرد المهاجمين اللذين جاءا لاقتحام البيت . وحدثت مناقشات بين أعضاء التنظيم وبين المهاجمين وألحقوا الأذى بكثير من القساوسة وانتهى الأمر بإلحاقهم الأذى بعدد أكبر من القساوسة ، الأمر الذى دعا رئيس الأساقفة إلى فرض الحظر الكنسى على التنظيم ، ولكن التنظيم تمكن من اقتحام ممتلكاته وطرده من المدينة ، عندئذ ناشد البابا جريجورى التاسع جايم ملك أراجون أن يتدخل للتصدي للمهرطقين ، فى حين اشتكى قناصلة ناريون إلى قناصلة يتييس وطلبوا منهم الدعم والمؤازرة ضد محاكم التفتيش وإجراءاتها القمعية والتعسفية . وانتهى الأمر مؤقتا بعقد هدنة لم تدم طويلا حيث إن رئيس القساوسة أثار المشاكل عندما حاول إجراء تحقيق جديد وإلقاء القبض على عدد من المارقين . وفى عام ١٢٣٥ ثار الشعب فى وجه الرهبان الدومينكان وأعملوا نهبا وسلبا فى الدير ودمروا كل السجلات الخاصة بالإجراءات التى اتخذتها محاكم التفتيش ضد الهرطقة . والتجأ رئيس الأساقفة بيير إلى خطة خبيثة تتلخص فى فصل المدينة عن ضواحيها وقصر عمل محاكم التفتيش على هذه الضواحي ، الأمر الذى ساعده على الحصول على التأييد العسكرى من الحضر ، فاضطرت ضواحي المدينة إلى الاحتماء بريموند كونت تولوز الذى عين اثنين من غلاة المدافعين عن الهرطقة وهما أوليفيه دى ترميس وجونيود دى نيورت زعيمين

لهذه الضواحي . واندلعت حرب أهلية ضروس بين الريف والحضر استمرت حتى أبريل ١٢٣٧ لتنتهى بهدنة امتدت لعام كامل . وفى شهر أغسطس من هذا العام نفسه تمت دعوة كونت تولوز وعظيم كاركاسون للتحكيم بين الطرفين المتحاربين . وتم عقد معاهدة سلام فى مارس ١٢٣٨ . والذي يدل على انتصار الكنيسة فى هذه الحالة على المهراطيين أنها استطاعت إجبارهم على التوبة لفترة عام فى الأراضى المقدسة ومحاربة المسلمين فى إسبانيا .

كان ريموند كونت تولوز كثير الشجار مع الكرادلة الذين اتهموه بحماية الهرطقة . ولهذا لجأت الكنيسة بصفة متكررة إلى فرض الحظر الكنسى عليه . ورغم كثرة شجاره مع الكنيسة فإنه كان يسعى إلى التصالح معها .. وفى معاهدة صلح عقدها عام ١٢٢٩ اشترطت عليه الكنيسة التوجه إلى الأراضى المقدسة فى فلسطين فى غضون سنتين ليشن حملة على الكفار هناك لمدة خمسة أعوام . ولكن ريموند حنث بوعده للكنيسة ، فقد امتنع عن شن الحرب المشار إليها لأنه رأى أن غيابه عن البلدة لفترة خمسة أعوام سوف يعرض حكمه للخطر . وفى عام ١٢٣٠ اتهمته الكنيسة بانتهاك شروط معاهدة السلام التى أبرمها . فاضطر إلى التعهد لها ببذل جهود أكبر للتصدي للهرطقة . وفى عام ١٢٣٢ أمره البابا جريجورى التاسع بأن ينشط فى مقاومتها ، مما اضطره إلى مصاحبة أسقف تولوز فى حملة ليلية لمباغثة المهراطيين الذين يحتمون بالجبال حيث تمكن من القبض على تسعة عشر من غلاة المهراطيين والمهرطقات يتزعمهم القائد باجان سيد بيسيد ثم إغراقهم جميعا . ورغم ذلك لم تسامحه الكنيسة لتراخيه فى محاربة الهرطقة ؛ ولهذا دعا المفوض البابوى أسقف تورناى كرادلة لانجو إلى عقد اجتماع يرمى إلى تقديم شكوى للملك لويس ضد أسقف تولوز لتقاعسه عن تنفيذ الاتفاق الخاص باضطهاد الهرطقة ، الأمر الذى اضطر كونت تولوز إلى استئان قوانين صارمة للحد من انتشار الهرطقة فى فبراير ١٢٣٤ . ورغم أن البابا جريجورى التاسع أصدر أوامره إلى أساقفته وكرادلته بالتوقف عن فرض الحظر المتكرر على هذا الكونت فإنهم فرضوا الحظر الكنسى عليه مرتين فى غضون عام واحد . وحين أصدر هذا البابا أمرا جديدا باستئصال الهرطقة فى تولوز ، تظاهر هذا الكونت بالموافقة وسائر الكرسى البابوى طمعا فى استعادة

ماركيزية بروفانس ، يؤيده فى ذلك لويس ملك فرنسا الذى تزوج أخوه ألفونس من وريثة ريموند كونت تولوز الذى يبدو أنه استطاع أن يتصالح مع البابا جريجورى تصالحا كاملا فقد استقبله هذا البابا فى المقر البابوى كما أسند إليه مهمة قيادة الجيش البابوى لإخضاع أهل روما المتمردين عليه والذين طردوا رئيس الكنيسة من مدينتهم . ورغم أن ريموند تولوز لم يفلح فى إعادة البابا المطرود إلى كرسيه البابوى فقد اعتبره البابا صديقا له .

وعند عودته إلى بلاده ، وجد ريموند كونت تولوز أن الأمور تتجه نحو التفاقم والتأزم . وفى عيد القيامة فى عام ١٢٣٥ وعدت الكنيسة المهرطقين الذين يتوبون عن هرطقتهم بمحض إرادتهم بالعفو عنهم ، الأمر الذى شجعهم على أن يتوافدوا وحداً وزرافات إلى الرهبان الدومينكان لإعلان توبتهم . وبسبب كثرتهم لم تتمكن طائفة الرهبان الدومينكان من استابة المهرطقين الذين أعلنوا تخليهم عن غيهم وضلالهم . فطلبوا من منافسيهم الرهبان الفرانسيكان وغيرهم من قساوسة المدينة سرعة الحضور لاستتابة الجموع الغفيرة . وشجعت هذه التوبة الجماعية الطوعية رئيس الكهنة بون دى سانت جيل أن يلقى القبض على المهرطقين الذين رفضوا الإعلان عن توبتهم بمحض اختيارهم ومن بينهم المهرطق أرنود دومينيل الذى دفعته رغبته فى النجاة بجلده إلى تسليم أحد عشر مهرطقاً من معارفه إلى محاكم التفتيش غير أن أربعة من هؤلاء المهرطقين استطاعوا الهرب بمساعدة جيرانهم من الفلاحين ، ولكن بعض الهرطقة تمكنوا من الإجهاز على هذا المهرطق الفادر من أجل الانتقام لزملائهم ، بل إنهم استخدموا القوة لإطلاق سراح مهرطق يدعى بيير جويلم ديلورت أثناء اقتياد رئيس دير سانت ترنين له للزج به فى السجن . وتناثرت أجساد المهرطقين الذين أحرقتهم الكنيسة فى الشوارع لدرجة أفزعت سكان مقاطعة تولوز فالتمسوا من حاكمهم أن يتدخل لوضع حد لهذه الوحشية . وبالفعل حاول كونت تولوز أن يشفع لدى محاكم التفتيش أن تخفف من وطأة تنكيلها . غير أنها لم تكثرث بشفاعته فاضطر إلى الشكوى إلى المفوض البابوى فى بيير سيك باعتباره مسئولاً عن المجازر التى ترتكبها محاكم التفتيش . وطلب كونت تولوز منه أن يأمر المحقق سيلد بقصر

نشاطه على منطقة كوبرسى . فتم نقله إلى كاهور التى جابها طولا وعرضا وهو يرغم جموعا غفيرة على التوبة والاعتراف بذنوبهم .

ولكن استبعاد المحقق سيلد إلى كاهور أشعل غضب زميله جويلم أرنود الذى استدعى للمحاكمة بتهمة الهرطقة اثنى عشر زعيما فى تولوز من بينهم أحد القناصلة ، ولكنهم رفضوا جميعا المثل أمام المحكمة وهددوه باللجوء إلى العنف وإشعال نار الثورة . ولكن جويلم أرنود قابل هذا التحدى بتحدٍّ أكبر ، الأمر الذى جعل حاكم تولوز يطلب منه مغادرة المدينة أو التخلّى عن عمله . ولكن زملاءه الرهبان الدومينكان أوعزوا إليه المضى فى تصفية المهرطقين والوقوف فى وجه كونت تولوز غير أن القناصلة تضافروا ضد هذا الراهب العنيد وأخرجوه من المدينة بالقوة . ورغم انتقال هذا الراهب إلى مدينة كاركاسون فإنه أعطى أوامره لرئيس سانت أتيان وقساوسة الأبرشية بالاستمرار فى استدعاء وجهاء المدينة المطلوبين للمحاكمة . ولكن هؤلاء الوجهاء قاموا بحجزهم فى قاعة البلدية ثم طردوهم من المدينة وهم عازمون على قتل أى قسيس يحاول تكرار اتهامهم بالهرطقة . وكذلك هددوا أى شخص يطيع أوامر محاكم التفتيش بالويل والثبور ، ثم أصدر هؤلاء الوجهاء إعلانا باسم كونت تولوز بحظر تعامل الأهالى مع الأكليروس وعدم بيع أى شىء إلى رجال الكنيسة بل إنهم حظروا على الفرن أن يخبز أى خبز للأسقف الذى تعرض لهجوم الشعب عليه وعلى مساعديه كما تعرض لسرقة جياده . غير أن حال الرهبان الدومينكان كان أفضل من حال سواهم من رجال الأكليروس حيث إنه كان لهم أصدقاء غافلوا الحراس الذين عينهم القناصلة المتمربون على الكنيسة لمحاصرة بيوتهم وقذفوا فوق الحائط للمحاصرين ضرورات الحياة مثل الخبز والخبز رغم صدور الأوامر إلى الحراس بالقبض عليهم إذا فعلوا ذلك . وتتلخص مشكلة رجال الكنيسة المحاصرين الحقيقية فى نقص الماء الذى يجيئهم من نهر الجارون والذى سيطر عليه المارقون على الكنيسة سيطرة كاملة . ورغم الأخطار المحدقة بهم ظل رجال الكنيسة المحاصرون يكابدون كل هذا العناء وهم يتهللون لإيمانهم بقدسية قضيتهم . ولكن هذا لم يفت فى عضد الراهب جويلم أرنود فأرسل من كاركاسون أمراً باستدعاء المهرطقين للمثل أمامه بصحبة شاهدين على هرطقتهم . ودق رئيس

الدير الأجراس لدعوة الرهبان إلى الاجتماع وخاطبهم قائلا : « أيها الأخوة اخرجوا وتهللوا لأنه يتحتم على أن أرسل أربعة منكم إلى الاستشهاد ... بناء على أوامر أخينا المحقق جويلم رغم أن إطاعة هذه الأوامر معناها التعرض للذبح على الفور كما هدد القناصلة بذلك . فليتقدم للاضطلاع بهذه المهمة كل من يسعى إلى الموت من أجل المسيح » . وأبدى جميع الرهبان المجتمعون رغبتهم في الاضطلاع بهذه المهمة فوق اختيار رئيس الدير على أربعة منهم ، هم ريموند دي فوارا ، وجين دي سانت ميشيل ، وجوى دي ناخار ، وجويلم بليسون . وبلغت جسارة هؤلاء المتطوعين للاستشهاد حدا جعلهم يقتحمون مضاجع المتهمين في بيوتهم . وفي أحدها تصدى للرهبان أبناء واحد من المهرطقين فاستلوا خناجرهم ولكن بعض الحاضرين حالوا دون الاعتداء عليه .

كان هؤلاء الرهبان على أتم استعداد للشهادة في سبيل القضاء على الهرطقة ، الأمر الذى جعل من الصعب على القناصلة التعامل معهم . وفي النهاية قرر القناصلة طردهم من الدير . وفي اليوم التالى الموافق الخامس أو السادس من نوفمبر عام ١٢٣٥ اجتمع الرهبان بعد القداس لتناول طعامهم حيث فوجئوا بمقدم القناصلة على رأس حشد كبير يهددونهم بتحطيم باب الدير . عندئذ سار الرهبان فى موكب إلى الكنيسة المجاورة . وما إن جلسوا على المقاعد حتى اقتحمها القناصلة وأمروهم بالخروج . غير أن الرهبان رفضوا الانصياع فقام القناصلة باقتيادهم خارج الكنيسة عنوة وقسرا . وعندما ارتمى راهبان على الأرض قام القناصلة بتوثيق أيديهما وأرجلهما وحملوهما إلى خارج الكنيسة . وبعد اقتيادهما إلى الشارع اصطف الرهبان فى موكب اتجه نحو مزرعة تابعة لكنيسة أرتين وقد ارتفعت عقائدهم بالابتهاال والصلاة . وأمر القناصلة الحراس بعدم تزويدهم بأى شئ . وفى اليوم التالى قام رئيس الدير بتوزيعهم على عدد من أديرة المنطقة .

وبطبيعة الحال رفضت الكنيسة هذا الاعتداء الصارخ على حرمتها وحملت ريموند كونت تولوز مسئولية ما فعله القناصلة وأصدرت مرسوما بفرض الحظر

الكنسى عليه وأرسلت هذا المرسوم إلى طائفة الرهبان الفرنسيين في تولوز لإعلانه وتنفيذه . ولكن هراطقة مدينة تولوز المتمردة على سلطان الكنيسة بادرت بطرد هؤلاء الرهبان الفرنسيين ؛ وبذلك خلت تولوز تقريبا من جميع رجال الدين ، وأصدرت الكنيسة حظرا آخر على كونت تولوز . وبإدارة رئيس الدير موت دي سانت بالتوجه إلى إيطاليا ليشتكو إلى قداسة البابا من اضطهاد المهترطين لرجال الدين . واستشاط البابا جريجورى غضبا . فأغلظ القول للكونت تولوز في رسالة بعث بها إليه في ٢٨ أبريل ١٢٢٦ مذكرا إياه بالوعد الذى قطعه على نفسه بشن حرب صليبية لتحرير بيت المقدس وأنه حث بهذا الوعد . واتهمته الكنيسة أيضا بحماية المهترطين وتوفير ملاذ آمن لهم ، الأمر الذى ساعد على اشتداد ساعدتهم وعلى تفشى الهرطقة فى تولوز . وأمرته الكنيسة أن يضع حدا لهذه المهزلة ويتوجه على جناح السرعة إلى الأراضى المقدسة على رأس حملة صليبية .

وأىضا أرسلت الكنيسة إلى الحاكم فردريك الثانى أمرا بمنعه من التعامل مع مرءوسه ريموند لأنه مهترطق أو فى حكم المهترطق على أقل تقدير . وكذلك ناشدت الكنيسة لويس ملك فرنسا أن يتدخل لوقف كونت تولوز عند حده وشددت عليه أن يسرع فى إتمام زواج أخيه ألقونس من جين ابنة ريموند الذى لم يجد مناصا من الرضوخ إلى الكنيسة والمثول أمام المحققين فى محاكم التفتيش فى كاركاسون والاجتماع بالأساقفة الذين انتزعوا منه وعدا بإعادة كل الرهبان ورجال الكنيسة الذين طردتهم القناصلة من تولوز . وبالفعل نفذ ريموند هذا الأمر وأعاد إلى تولوز كل الرهبان المطرودين بعد انقضاء عشرة أشهر على طردهم ومن بينهم الراهب جويلم أرنود بطبيعة الحال .

غير أن نشاط المحقق بيير سيلا اقتصر على كوبرسى . وبالنظر إلى أن الراهب العائد جويلم أرنود كان يحتاج إلى من يعاونه فى أعماله الدينية فإن المفوض البابوى رأى أنه من المصلحة تعيين معاون له من طائفة الرهبان الفرنسيين للتخفيف كما ظن من غلواء التطرف الدومينكانى ولتهدئة ثائرة أهل تولوز على الكنيسة . ولكنه اتضح أن الراهب الدومينكانى جويلم أرنود أنس إلى الراهب الفرنسيين أتين دي سانت ثيبرى فاتفقا فى رأى واتخذا المواقف الساعية إلى استئصال الهرطقة .

تصدى الراهب جويلم أرنود للهراطقة بلا كلل أو ملل . وحتى فى فترة نفيه من تولوز إلى كاركاسون انصرف إلى محاكمة السينور دى نيورت وأدائه وأصدر الحكم عليه فى فبراير (أو مارس) ١٢٣٦ . وفى باكورة عام ١٢٣٧ نرى الراهب جويلم ينشط فى تعقب المهرطقين فى كوبرسى حيث تعاون مع المحقق بيير سيلا فى ملاحقتهم فى مونتوبان . وفى فترة غياب جويلم أرنود عن تولوز جنح عدد من عتاة المهرطقين وأبرزهم إلى التوبة والعودة إلى أحضان الكنيسة مثل المهرطق المخضرم المرموق ريموند جرلوس الذى ظل زعيما محبوبا لإحدى الطوائف المهرطقة لأكثر من عشرين عاما ، وفى ٢ أبريل من العام المشار إليه سلم نفسه إلى دير الدومينكان طالبا من الكنيسة قبول توبته وواعدة إياها بتنفيذ كل طلباتها وأثناء اعترافاته بذنبه أماط اللثام عن شبكة المهرطقين الكاثاريين الذين كان على علاقة بهم . وجاءت اعترافاته مفصلة ودقيقة لدرجة أن تدوينها على الورق استغرق عدة أيام . وباح هذا الزعيم التائب بأسماء على القوم والوجهاء من المهرطقين . وبطبيعة الحال بثت اعترافاته الرعب والفرع فى المهرطقين الذين انخلعت قلوبهم خوفا من أن تطولهم محاكم التفتيش .

كانت هذه الحادثة فرصة ذهبية هبطت على جويلم أرنود من السماء . فقد أصابت اعترافات المهرطق التائب زملاءه بالذهول ولم يجرؤ أى منهم على إنكار الاعترافات التى وردت على لسان المهرطق التائب ريموند جروس . واضطر الكثيرون منهم إلى الفرار كما تراجع كثيرون عن هرطقتهم وكشفوا عن وجود شبكات هرطقة جديدة . وهكذا اتسعت دائرة المتهمين وأعدت قوائم طويلة تضم أسماء أناس هرطقوا أثناء احتضارهم الأمر الذى جعل محاكم التفتيش تخرج أعدادا غفيرة فى جثثهم من القبور وحرقتها ثم مصادرة أموال وممتلكات أصحابها . وتحت هذه الضربة الموجعة ترنحت حركة الهراطقة المتفشية فى تولوز وسيق إلى المحرقة فرسان ونبلاء ووجهاء كثيرون من تولوز ، مما أدى إلى انهيار تنظيمهم السرى . وحتى ندرك ضخامة أعداد المهرطقين آنذاك يكفى أن نقول إن حكما واحدا أصدرته محاكم التفتيش فى ١٩ فبراير ١٢٣٨ شمل أكثر من عشرين نائبا صدر ضدهم حكم بالسجن المؤبد .

وبذلك تكون محاكم التفتيش قد أحرزت نصراً مبيئاً على المهرطقين . وحتى
نتمكن من إحكام قبضتها على المهرطقين أقامت هذه المحاكم دوائر عديدة فى كل
المدن تخضع لسيطرتها . ونجحت هذه السياسة القمعية فى تشتيت المهرطقين
ودفعهم إلى الهروب من البلاد . وفى بلدة بروفانس أظهر المحقق بون دى
لاسبار نشاطاً ملحوظاً فى ملاحقة أعداء الكنيسة فى حين ناشدت مدينة مونبيليه
البابا جريجورى أن يتدخل لمنع تدفق المهرطقين الفارين إليها . فأمر هذا البابا
مفوضه جين دى فبينا بالذهاب إلى هناك واتخاذ الإجراءات المناسبة للحيلولة دون
تدفقهم إلى مونبيليه .

ويبدو أن ريموند كونت تولوز ضاق ذرعاً من كثرة أوامر الحظر التى فرضتها
الكنيسة عليه فامتنع عن الوفاء بوعده بالرحيل إلى الأراضى المقدسة كما قام
بالاستيلاء على مارسيليا الثائرة فى وجه حاكمها كونت بروفانس الأمر الذى أثار
غضب البابا جريجورى لما رآه فى ذلك من حماية للمهرطقين . وسعى كونت تولوز إلى
شفاعة الملك لويس والملكة بلاتش لدى البابا الغاضب وشفعاً لديه حتى وافق على
إرجاء قيامه بحملته الصليبية لمدة عام آخر كما أنه أصدر أمراً يقضى بعدم تمكين
الرهبان الدومينكان من السيطرة على محاكم التفتيش نظراً لأنهم على حسب قوله
يحملون لكونت تولوز المقت والكرامية .

ولكن المشاكل بدأت تتفجر من جديد فى مدينة تولوز . وفى ٢٤ يولية ١٢٣٧
فرضت محاكم التفتيش حظراً كنسياً على قناصلها لإحجامهم عن القبض على
المهرطق الألمان دى روا وبعض المهرطقين الآخرين وإحراقهم وضاق ريموند بهذا
التدخل فى شئونه فعقد العزم على وضع حد له . وتكللت مساعيه فى هذا الصدد
بالنجاح . وفى ١٩ مايو ١٢٣٨ استطاع الحصول على أمر بإيقاف أعمال محاكم
التفتيش لمدة ثلاثة أشهر . فضلاً عن أن البابا استمع باهتمام إلى مطالب مبعوثيه
الذين استطاعوا إقناع الكرسي البابوى بالكتابة إلى أسقف تولوز يأمره باستمرار
إيقاف أعمال محاكم التفتيش حتى يتمكن مفوضه الجديد كاردينال بالسترينا من
فحص الشكاوى التى وصلتته عن تجاوزات الرهبان الدومينكان وتمحيص مدى

إمكانية الاستجابة إلى طلب كونت ريموند بقصر النظر في أمور الهرطقة. على الأساقفة كما جرت العادة في الماضي ، وأيضا تم تخفيض فترة الحملة الصليبية التي تعهد بشنها إلى ثلاثة أعوام شريطة أن يعطى لويس ملك فرنسا تأكيدات بالإبحار إلى الأراضي المقدسة في العام التالي وإصلاح أخطائه التي ارتكبها في حق الكنيسة . ومقابل هذه التعهدات حصل ريموند على غفران الكنيسة لخطاياہ . وعلى حل من أى حظر سبق فرضه عليه . والذي لا شك فيه أن المفوض البابوى نجح فكبح جماح محاكم التفتيش حتى عام ١٢٤١ .

وعندما قبل البابا إسناد مهمة التحقيق إلى أساقفة تولوز بدلا من محاكم التفتيش تنفس المهرطقون الصعداء حيث إن الأساقفة تقاعسوا في أداء واجبهم واهتموا بمتاع الدنيا وزخرفها أكثر من اهتمامهم بملاحقة المهرطقين على عكس الرهبان الدومينكان الذين نذروا أنفسهم للقضاء على الهرطقة . وبطبيعة الحال شجع هذا المهرطقين على التماذى في هرطقتهم وأن يطلوا برعوسهم من جديد . وتاق المهرطقون التائبون إلى العودة إلى سابق هرطقتهم بعد نجاحهم في استرداد ممتلكاتهم المصادرة . وتطلعت كل عائلات تولوز إلى الثأر من محاكم التفتيش وما أنزلته من عقاب قاسٍ ببعض أفرادها . كما أن كثيرا من دعاة الهرطقة لازوا بالجبال والكهوف والغابات يبشرون بالمروق . ونظرا لكثرة المهرطقين وقلة السجون لم يتمكن الكرادلة من تنفيذ الأحكام بالسجن في كثير من الحالات .

وفى عام ١٢٤٠ قام ترينسافل Trencavel - ابن فيسكونت بيزييه (وابن عم الكونت ريموند) الذى نجح سيمون دى مونتفورت فى القضاء على والده - بإضرام الثورة على الكنيسة . وأحضر ترينسافل من كاتالونيا فى إسبانيا قوات أحسن أهل بيزييه استقبالا . وتمكنت هذه القوات من تطويق مدينة كاركاسون . وما إن استسلمت له ضواحي كاركاسون حتى قام وأتباعه بذبح ثلاثين رجلاً من رجال الكنيسة بدم بارد رغم إعطائهم الأمان بالذهاب إلى ناربون . ولكن القوات الملكية بقيادة جين دى بومنت Jean de Beaumont سرعان ما أخمدت هذا التمرد وقضت قضاء مبرما على جميع الأشراف المتمردين . ولكن هذه التجربة أوضحت بجلاء أن

رجال الكهنوت العاديين مثل الأساقفة والكرادلة لا يصلحون للتصدي لانتشار الهرطقة بسبب انشغالهم بأمور الدنيا . والجدير بالذكر أن الهرطقة بلغت حدا من العنف والضراوة والبأس والمنعة جعل الكاثاريين في عام ١٢٤١ يعقدون اجتماعا حاشدا على ضفة نهر لارنيتا تحت رئاسة أسقف مدينة ألبى المهرطق أيمري دي كوليت Aymeri de Collet . وأمام استشراء الهرطقة في الجنوب الفرنسي اقتنعت الكنيسة والدولة على حد سواء بأن الاعتماد في محاربة الهرطقة على الأساقفة العاديين بلا جدوى وبأن تفعيل محاكم التفتيش ضرورة لا محيص عنها .

مات البابا جريجورى التاسع مؤسس محاكم التفتيش في ٢٢ أغسطس عام ١٢٤١ . وأغلب الظن أنه قبل وفاته أطلق هذه المحاكم من عقالها بعد أن قيد حركتها لفترة من الزمن على نحو ما رأينا ، ثم تولى الكرسي البابوى من بعده سلسنتين الرابع الذى لم تدم فترة بابويته أكثر من تسعة عشر يوما تبدأ في ٢٠ سبتمبر عام ١٢٤١ وتنتهى في ٨ أكتوبر من العام نفسه . وبوفاته ظلت رئاسة الكرسي البابوى شاغرة لحين انتخاب البابا أنوسنت الرابع في ٢٨ يونيه ١٢٤٣ . ومعنى هذا أن الكرسي البابوى ظل خاليا لما يقرب من عامين كاملين . واتبع ريموند كونت تولوز في تلك الفترة سياسة رامية إلى استرضاء البابا جريجورى التاسع بسبب طمعه في إلغاء الحظر الكنسى المفروض عليه والذى تكرر أربع مرات وطمعه أيضا في التساهل معه في شن الحرب الصليبية التى وعد بالقيام بها لتحرير بيت المقدس من يد المسلمين الكفار ، وفى يوم ١٨ أبريل ١٢٤١ وقع ريموند كونت تولوز معاهدة تحالف مع جايمل الأول حاكم أراجون من أجل الدفاع عن الأراضى المقدسة والعقيدة الكاثوليكية ضد الهرطقة . وبسبب رغبته فى استرضاء الكنيسة لم يعارض ريموند فى عودة محاكم التفتيش بعد توقيفها لفترة وجيزة إلى سابق بأسها وعنفوانها . ولكن يبدو أنه تورط بشكل ما فى التمرد الذى ذكرنا أن ترانسافيل اضطلع به ، الأمر الذى جعل لويس ملك فرنسا يستدعيه فى ١٤ مارس من العام نفسه ، ويجبره على التعهد بالقضاء على المهرطقين المتمردين وأن يسارع بالاستيلاء على قلعة مونتسيجور آخر معقل للهرطقة .

وتلقى حالة أشراف فينويليد الذين انخرطوا فى تمرد ترتسافيل المشار إليه الضوء على العلاقة التى ربطت بين الدين والسياسة فيما يتعلق بنشأة محاكم التفتيش وتطورها ، وكذلك الصعوبات البالغة التى اصطدمت بها هذه المحاكم فى التصدى للمهرطقين المتشبهين بهرطقتهم اعتزازاً منهم بقوميتهم وروحهم الوطنية . ونذكر مصداقاً لارتباط الدين بالسياسة حالة ثلاثة إخوة من علية القوم هم جويلم جويرود Guillem Guiraud ويزنار أوثو Bernard Othe وجويرود برنارد Guiraud Bernard بالإضافة إلى أمهم إسكلارموند Esclar monde حرصت محاكم التفتيش على إلقاء القبض عليهم بتهمة الهرطقة . ووصفتهم التحقيقات الشاملة التى أجرتها محاكم التفتيش برئاسة الكاردينال رومانو عام ١٢٢٩ بأنهم من قيادى الهرطقة البارزين . كما أن مجلس تولوز آنذاك أدان اثنين من هؤلاء الإخوة باعتبارهما عدوين لله وهددهما بالطرد من الكنيسة إذا رفضا الاستسلام فى خلال خمسة عشر يوماً . وفى عام ١٢٢٣ قام هذان الأخوان بحرق ممتلكات بيير أميل رئيس أساقفة ناربون . فضلا عن اعتدائهما عليه وإصابته بجرح وهو فى طريقه إلى الكرسي البابوى الأمر الذى جعل البابا جريجورى التاسع يأمره بالاشتراك مع أسقف تولوز فى اتخاذ إجراء حاسم ضده . ثم قام الأسقف ريموند دى فوجا بالاشتراك مع مسئول الكنيسة فى تولوز بإجراء تحقيق معهما . ثم أخذت شهادة رئيس أساقفة ناربون المعتدى عليه بيير أميل بالإضافة إلى شهادات مائة وسبعة أشخاص آخرين . وأقرت شهادة هؤلاء الشهود بهرطقة الإخوة الثلاثة وبأنهم وفروا الحماية فى قلعة دورن لنحو ثلاثين مهرطقاً من عتاة المهرطقين وبأنهم نجحوا فى اغتيال أندريه شوليت مسئول كاركاسون الدينى انتقاماً منه لأنه كان يسعى إلى جمع الأدلة التى تدينهم . وذكر بعض الشهود بأن برنارد أوثو فى إحدى المناسبات أخرس قسيساً أثناء وعظه فى الكنيسة واستبدل به واعظاً مهرطقاً .

ورغم هذا فإن هؤلاء الإخوة الثلاثة المهرطقين وجدوا من يدافع عنهم ويشهد لهم بصحيح الدين وصحة العقيدة . فقد شهد شاهد منهم بأن برنارد أوثو كان غيورا على دينه الكاثوليكي وأنه أهلك وحده ألف مهرطق . وأيضاً شهد له قسيس آخر بأن أوثو ساعد فى إلقاء القبض على المهرطقين . ورغم هذا الدافع عنهم فإن محاكم

التفتيش عند إعادتها اتخذت موقفاً مناهضاً لهم . وفى عام ١٢٣٥ قام المحقق جويلم أرنود فى فترة وجوده فى كاركاسون وبمساعدة رئيس شمامستها باستدعاء الإخوة الثلاثة ومعهم المهم للمثول أمام محكمة التفتيش . فاستجاب كل من الأخوين برنارد أوثو وجويلم لهذا الاستدعاء وتفقيا تورطهما فى أية هرطقة . ولكن المندوب الملكى ألقى القبض عليهما وأجبر جويلم على الاعتراف بهرطقته فحكمت عليه محكمة التفتيش بالسجن المؤبد فى ٢ مارس ١٢٣٦ فى حين أصر برنارد أوثو على إنكاره . غير أن محكمة التفتيش لم تكتفِ لإنكاره وأصدرت حكمها عليه فى ١٢ فبراير ١٢٣٦ وأجريت الاستعدادات لحرقه .

وأيضا تمت فى ٢ مارس ١٢٣٦ إدانة جيروود وأمه إسكلارموند لامتناعها عن المثول أمام المحكمة . ومن ناحيته أخذ جيروود يحصن نفسه وقلاعه تحصينا عظيماً؛ الأمر الذى أفزع الفرنسيين الذين مارسوا ضغطهم الشديد على المندوب الملكى كي يطلق سراح الإخوة الثلاثة ، فاستجاب المندوب الملكى لهم . ولم يتمكن المحققون فى محاكم التفتيش من التحقيق معهم واكتفوا بإدانة كل العائلة على الورق فقط . ومعنى ذلك أن منعة هذه العائلة المهرطقة السياسية كانت السبب فى عجز محاكم التفتيش عن إصدار أية أحكام عليها . ولكن هروب هذه العائلة المنيعة بجلدها من ملاحقة محاكم التفتيش كان الاستثناء وليس القاعدة . وكذلك بعد مرور عامين فشلت جهود المحققين فى إرغام كونت تولوز على تنفيذ أحكامهم المتعلقة بمصادرة ممتلكات عدد من النبلاء .

غير أن الفشل الذى منيت به ثورة ترانسافيل قوى من ساعد محاكم التفتيش وجعل الأعيان المهرطقين يسعون إلى التصالح معها بدلا من تحديها . وأجبر برنارد أوثو على المثول أمام محاكم التفتيش كما أن المهرطق جويلم دى نيورت أعلن رضوخه واستسلامه وتخلّى عن قلاعه للملك لويس كشرط لتصالح عائلته مع الكنيسة . وعقد الملك مع هذه العائلة اتفاقية صلح فى يناير ١٢٤١ واشترط على الإخوة الثلاثة أن يعيشوا خارج مدينة فينوليد التى يتحصنون فيها . ومن الواضح هنا أن الملك الفرنسى تحالف مع الكرسى البابوى لتطهير جنوب فرنسا من المهرطقين لأسباب اقتصادية بقدر ما هى دينية .

وكما قلنا كان لإخفاق ثورة ترنسافيل أثر عظيم فى انحسار الحركات المهرطقة بشكل واضح وتعاضم نفوذ محاكم التفتيش . وقد حفظت لنا الوثائق سجلا بالأحكام التى أصدرها المحقق بيير سيلا على المهرطقين فى غضون بضعة أشهر بين عامى ١٢٤١ و ١٢٤٢ . وكما سبق أن ذكرنا جرت العادة عند زيارة محققى محاكم التفتيش لأية مدينة أن يعلنوا عن فترة سماح لإعطاء فرصة للمهرطقين للإعراب عن توبتهم باختيارهم ومحض إرادتهم تفاديا لاستعمال أساليب القسر معهم مثل السجن ومصادرة الأملاك والحرق على الخشبة (راجع كتاب « محاكم التفتيش » دار الهلال ٢٠٠١) . وفيما يلى جدول يبين الأحكام التى أصدرها المحقق بيير سيلا وكذلك أماكن إصدارها فى الفترة المذكورة .

اسم المكان	عدد الأحكام	تاريخها
جوردون	٢١٩	عيد ميلاد السيد المسيح فى ١٢٤١
مونتكويك	٨٤	عيد الصوم الكبير فى ١٢٤٢
سوفيتير	٥	
بيلكاير	٧	
مونتوبان	٢٥٤	أسبوع قبل عيد الصعود (٢١ - ٢٨ مايو ١٢٤٢)
مويساك	٩٩	أسبوع الصعود (٢٨ مايو - ٥ يونية ١٢٤٢)
مونتبيزات	٢٢	عيد الصوم الكبير ١٢٤٢
مونتوت	٢٨	عيد الصوم الكبير ١٢٤٢
كاستلنو	١١	عيد الصوم الكبير ١٢٤٢
المجموع	٧٢٩	

وبين مجموع التائبين صدرت الأوامر إلى أربعمائة وسبعة وعشرين منهم بالحج إلى مزار كومبو ستيتلا في الشمال الغربي من إسبانيا . وهو مزار ناءٍ يقع على بعد أكثر من أربعمائة ميل في المسالك الجبلية الوعرة . وكذلك صدر الأمر إلى مائة وثمانية تائبين بالحج إلى قرار كانتربري بإنجلترا . كما أمرت محاكم التفتيش تائبين فقط بزيارة روما واشتراك تسعة وسبعين منهم في الحروب الصليبية لفترات تتفاوت من عام إلى ثمانية أعوام . وليس أدل على العجلة التي تم بها إصدار الأحكام من أن تسجيل اعترافات المهرطقين التائبين في مدينة جورديون البالغ عددهم مائتين وتسعة عشر شخصا وإصدار الأحكام ضدهم لم يستغرق سوى أربعة أسابيع . بل إن الحكم على مهرطقي مونتويان البالغ عددهم مائتين وخمسة وعشرين شخصا لم يستغرق أكثر من أسبوع واحد قبل عيد الصعود أي بمعدل ٤٢ تائبا كل يوم .

وبسبب كثرة أعداد المهرطقين في كل من جورديون ومونتكاك لم يجد المؤمنون الكاثوليك غضاضة في الاختلاط بهم ، الأمر الذي عرضهم بطبيعة الحال للمخاطر والمهالك . وقد كان أحد القساوسة تربطه علاقة وطيدة ببعض المهرطقين يلتقى بهم في كرماتهم ويطلع كتبهم ويأكل فاكهة الكمثرى معهم مما أثار حفيظة محاكم التفتيش فمنعته من مزاولة عمله الكهنوتي وأرسلته للتوبة والاستغفار إلى مزار كومبو ستيتلا ثم إلى روما . وأيضا رأى أحد المواطنين ويدعى سوفيتير ثلاثة هراطقة يدخلون منزل رجل مريض ، ونما إلى سمع سوفيتير أنهم أغروه بالهرطقة الأمر الذي كان كافيا لاستتابته . فضلا عن أن شخصا اسمه بيلكاfer نقل رسالة مهرطق إلى مهرطق آخر فاستتابته محاكم التفتيش وأرغمته على الحج وزيارة الأماكن المقدسة في كل من بوى وسانت جيليس وكومبو ستيتلا . وكذلك استتيب طبيب في مونتويان لأنه عالج ذراع رجل مهرطق بأن ضمدها . وكذلك تمت استتابة بعض المراكبية لأنهم قاموا بنقل بعض المهرطقين في قواربهم رغم جهلهم بهرطقتهم . وعوقبت امرأة لأنها شوهدت وهي تأكل وتشرب مع امرأة أخرى مهرطقة . وكذلك عوقبت امرأة لأنها استشارت مهرطقا من طائفة الوالدنسيين بشأن علاج ابنها المريض . وعوقب رجل لمجرد رؤيته مهرطقين مرتين أو ثلاث مرات . ورغم توبته وتصالحه مع الدير بتقديم بعض الهدايا له فقد أرسلته محاكم التفتيش إلى الحج في كل من كومبوستلا

وكانت تبرى بالإضافة إلى إرغامه على لبس صليب أصفر لمدة عام . وأيضاً أرسل رجل آخر ليحج في كومبوستيلا لأنه تصادف أنه ركب في قارب يقل عدداً من المهرطقين .

وهكذا تغيرت الأحوال من النقيض إلى النقيض فبعد أن رأينا الكاثوليك في منطقة لانجويدوك يخالطون المهرطقين الوالدنسيين والكاثاريين في الحياة اليومية نجد أن محاكم التفتيش بدأت تكشف عن أنيابها وتهدد الكاثوليك بالويل والثبور إذا لم يقاطعوا هؤلاء المهرطقين مقاطعة كاملة ؛ الأمر الذي بث الرعب والفرع في نفوس الأهالي وخلع قلوبهم لجرد سماعهم عن وصول محققين في محاكم التفتيش على رأسهم بيير سيلا وجويلم أرنود . وليس أدل على ضخامة أعداد ضحايا محاكم التفتيش من أن مجلس ناربون التمس من المحققين تأجيل تنفيذ أحكام السجن الصادرة ضد المهرطقين والمشتبه في هرطقتهم لأن أعداداً غفيرة منهم قررت التوبة بعد فوات مدة السماح كما أنه استحال على السلطة المدنية توفير المال اللازم لبناء سجون تكفى لإيواء كل هذا الحشد الغفير من المهرطقين .

وقد ظلت مونتسيجور لعدة سنوات الملاذ الآمن الذي يلجأ إليه المهرطقون الكاثاريون . ورغم تدمير هذا الملاذ الآمن فقد أعاد ريموند دي ميريل بناءه كملاذ استمر أربعين عاماً ودافع عنه ميريل بكل ما أوتي من عزم وقوة . وفي عام ١٢٣٢ استشعر الأساقفة المهرطقون في كل من تنتو آجن وجويلابرت دي كاستريس في تولوز وعدد من القساوسة هناك ضرورة توفير ملاذ حصين يلجأ إليه المهرطقون هرباً من الاضطهاد الواقع عليهم ، فاتفقوا مع ريموند دي ميريل على أن يقوم بتوفير الحماية للمهرطقين الكاثاريين وما يحملون من كنوز . وبالفعل خصص هذا الرجل قلعته الواقعة في منطقة ميرابو كملاذ لهم يحميهم من مطاردة الفرنسيين . وحين شعر المهرطقون بوطأة محاكم التفتيش عليهم لانوا بهذا القلعة . حتى ريموند دي ميريل نفسه لاذ بها عند هروبه مع زوجته كوربا من تولوز عام ١٢٣٧ . ومن المعروف أن ابنته إيسكلارموند استمسكت بهرطقتها وفضلت أن تموت حرقاً على الخشبة على خيانة مبادئها المهرطقة . ولا شك أن هذه المقاومة العنيفة من جانب المهرطقين ضد محاكم التفتيش هددت استقرار الكنيسة والدولة .

وفى ليلة عيد الصعود عام ١٢٤٢ عندما كان بيير سيلا المحقق يختتم أعماله فى هدوء فى يونتويان أصيب بالفرع فى أفيجنونيت وهى بلدة صغيرة تبعد نحو اثنى عشر فرسخا عن تولوز بسبب الأفعال الفظيعة التى اقترفها المحقق الجهم الصارم جويلم أرنود والمحقق المهذب الدمث إيتيان دى سانت ثيبرى . وهى أعمال فظيعة شبيهة بالفظائع التى سبق للمحقق بيير سيلا أن ارتكبها . وتدل الأحكام التى أصدرها هذان المحققان على قيامهما فى نوفمبر عام ١٢٤١ بتطهير كل من مدينتى لافور وسانت بول دى كوجو من المهرطقين وأن حضورهما إلى أفيجنونيت كان فى ربيع عام ١٢٤٢ . وبمجرد أن سمع ريموند دالفارو وأعووانه عن قدوم المحققين إلى بلدة أفيجنونيت حتى استعدوا للتصدي لهم وقطع دابرهم . وأرسل إلى المهرطقين المحتمين بقلعة مونتسيجور يطلب منهم العون والنجدة فقام بيير روجر بإرسال عدد من الفرسان وحاشيتهم إليه على الفور . وتمركزت هذه القوة فى غابة قريبة من أفيجنونيت يقال لها جايك للتزود بالطعام وقد انضم إليها نحو ثلاثين رجلا مسلحا . وتدل السرعة التى استجاب بها هؤلاء المسلحون بطلب العون على عمق الكراهية التى حملها المهرطقون للمحققين ومحاكم التفتيش . وقد يكون من الغرابة أن نجد قسيسا يستضيف هؤلاء المناوئين لمحاكم التفتيش ويحسن وفادتهم فى قلعة يقال لها قلعة القديس فيلكس وحضر المحققون وأتباعهم البالغ عددهم أحد عشر شخصا فرحب بهم حاكم المدينة فى قلعته واستعدوا لافتتاح محكمتهم الرهيبة فى اليوم الثانى . وما إن هبط الظلام حتى تسلل لمراقبتهم عدد من مناوئهم من المهرطقين فوجدوهم يحتسون الخمر ، ثم عماد المتسللون لرصد حركاتهم فوجدوا أنهم بدأوا بالخلود إلى النوم . ويبدو أنهم شعروا بالخطر الذى يهددهم لأنهم ناموا جميعاً فى القاعة الكبرى بعد أن أقاموا المتاريس خلف الأبواب الموصدة . وعن طريق الغدر والخيانة فتح أحد أعوان المحققين باب القصر الذى ينامون فيه ليدلف إليه مهرطقو قلعة مونتسيجور بعد أن انضم إليهم والفاروا وخمسة وعشرون رجلا من بلدة أفيجنونيت . وقام المهاجمون القتلة بتحطيم باب القاعدة واندفعوا نحو المحققين يسفكون دماءهم ويعملون فيهم ذبحا وتقتيلا . وكان دالفارو يزهو بأعماله الدموية وتهشيم جمجمة المحقق جويلم أرنود ولم يكتف المهاجمون بذلك بل أعمالوا فيهم نهبا وسلبا واقتسموا جيادهم وكتبهم

وملابسهم . وما إن وصلت أخبار مذبحة المحققين إلى الكرسي البابوي حتى سارع بجمع الكرادلة من أجل اعتبارهم شهداء السيد المسيح وكان أول ما فعله البابا أنونسنت الرابع عند اعتلائه الكرسي البابوي في يونيه ١٢٤٣ أن أكد استشهاد هؤلاء المحققين الضحايا . غير أن تطويهم واعتبارهم قديسين جاء متأخرا في عام ١٨٦٦ في عهد البابا بيوس التاسع .

كانت مجزرة أفيجونيت التي ارتكبها للمهرطقون المتمردين ضد المحققين خطأ فادحا لأنها بثت الرعب في قلوب الناس حتى الذين لا يحملون الود لمحاكم التفتيش وأقنعتهم بضرورة استئصال الهرطقة . وأجرى الراهب فيرير المحقق في محكمة تفتيش كاركاسون تحقيقا لمعرفة ملابسات المجزرة كما أن بعض المشتركين فيها أدلوا باعترافاتهم التفصيلية بعد سقوط ملاذ المهرطقين في قلعة مونتسيجور عام ١٢٤٤ . ولكن الجناة الحقيقيين تمكنوا من الفرار . واستسلم جانب من المتمردين فتمت ترقية واحد من أشد العصاة وهو ريموند ألفارو إلى وظيفة مسئول تولوز . أما زعيم المتمردين الآخر وهو جويلم دي ماسنتيس بويل فقد أقسم على الولاء للحاكم الفرنسي ألفونس شقيق لويس ملك فرنسا في عام ١٢٤٩ بعد أن وافت المنية ريموند حاكم تولوز . ولا شك أن اشتراك جويلم دي ماسنتيس بويل في التمرد على المحققين ينم عن اشمئزاز الكثيرين من قسوة محاكم التفتيش وجبروتها ؛ فقد تمرد هذا الرجل عليها بعد أن كان من أشد الناس ولاء للكنيسة إبان فترة عمله عام ١٢٣٣ في لافور لأنه في تلك الفترة نفذ الأوامر التي أصدرتها محاكم التفتيش إليه وقبض على عدد من المهرطقين ونقلهم من لافور إلى تولوز حيث تم إحراقهم على الفور . ومن سوء حظ الكونت ريموند وقعت مجزرة أفيجونيت في وقت كان يرنو فيه إلى استعادة نفوذ ومكانة عائلته الحاكمة ويطمع في تحقيق استقلال تولوز وخاصة لأن الكونت ريموند اشتهر بعدائه للمحققين الدومينكان وعارض نفوذهم وطلب إلى الكرسي البابوي ألا يرسل أيا من المحققين الدومينكان إلى أراضيه ، مؤكدا للبابا رغبته الجادة في استئصال الهرطقة . وحتى يظهر الكونت ريموند جديته طلب من الأساقفة أن يلعبوا دورا نشطا من أجل استئصالها ووعد بتقديم الدعم لهم . ورحب ريموند كونت تولوز بأن يتولى الرهبان مهمة التحقيق مع المهرطقين بشرط أن يحتفظوا باستقلالهم عن التنظيمات الرهبانية التي ينتمون إليها . وقد هدد أحد معاونيه في كلمة ألقاها في

كنيسة وساك بالقبض على أى شخص ينفذ العقوبات التى يفرضها عليه المحققون ومصادرة ممتلكاته ؛ لأنه لم يخولهم سلطة المحاكمة . ولهذا كان من الطبيعى أن تعتبره محاكم التفتيش شريكا فى المجزرة التى حدثت .

كان كونت ريموند قد فقد مؤخرا جانبا من أراضيه ، استولت عليه عائلة كابيت Capet . ومن أجل استرداد ما فقد تحالف كونت ريموند مع ملوك إنجلترا وكاستيل وأراجون وغيرهم من الأمراء ، ولكن حدوث مجزرة أفيجنونيت كان السبب فى انفضاض بعض الموالين له عنه كما أنه بدا كما لو كان انتصار المهراطيين على محاكم التفتيش أمراً لا محيص عنه . ولكن تدخل قوات لويس ملك فرنسا حسم الموضوع بشكل نهائى لصالح الكنيسة ومحاكم التفتيش ضد المهراطيين المتمردين؛ الأمر الذى جرد ريموند كونت تولوز من مساندة حلفائه الإنجليز والجاسكون . وعندما انتشر الطاعون وتسبب فى انسحاب الجيش الفرنسى تحرك المقاتل المخضرم إمبرت دى بيجو Imbert de Beaujeu ليحل محل هذا الجيش فى الوقوف فى وجه كونت ريموند . وعندما شعر هذا الكونت أن الأمور تجرى لغير صالحه عرض الصلح مع الكنيسة قاطعا على نفسه عهداً باستئصال الهرطقة ومعاقبة مرتكبي مجزرة أفيجنونيت، ووافقت الكنيسة على الصلح بعد أن اشترط عليه ملك فرنسا أن يتعهد بأن يجعل كل مواطن من رعاياه فوق الخامسة عشرة يتصدى للمتمردين والخارجين على الكنيسة ، كما توعده ريموند نفسه فى حالة عودة الهرطقة إلى تولوز . وهكذا رجحت كفة الكنيسة على كفة المهراطيين .

ويانتصار الموالين للكنيسة الكاثوليكية على المهراطيين أخفقت محاولة الجنوب الفرنسى لاستعادة استقلاله ، فضلا عن أن محاكم التفتيش أكدت سطوتها . وعبثا حاول ريموند كونت تولوز مرة أخرى ضم الجيش المنعقد فى بيزيه بتاريخ ٢٠ أبريل ١٢٤٣ وحث أساقفة مقاطعته فى كل من تولوز وكاهور وألبى وروديتر ومندوبيهم سواء كانوا ينتمون إلى طوائف السستريان أو الدومينكان أو الفرانسييسكان على مطاردة المهراطيين والتحقيق معهم بكل همة ونشاط واعداء إياهم بتقديم العون لهم فى تنفيذ الأحكام . وبعد اعتلاء البابا أنوسنت الرابع سدة الكرسي البابوى سعى عدد من الرهبان الدومينكان بدافع الرعب مما حدث لزملائهم فى مجزرة أفيجنونيت

إلى التنحى والتوصل عن الاضطلاع بمهمة التحقيق مع المهرطقين ولكن البابا رفض رغبتهم فى التنحى وأمرهم بمواصلة التحقيق مع المهرطقين حتى لو أدى ذلك إلى استشهادهم .

غير أن الضعف والتردد الذى أظهره بعض رجال الدين فى التصدى للهراطقة لم يمنع من وجود رجال دين نشطاء وعلى أتم استعداد لتعريض أنفسهم لمخاطر مقاومة المهرطقين . وساعد على ذلك أن الرجل العادى أصابه الغثيان من جراء المجازر البشعة التى ارتكبها المهرطقون فى أفيجنونيت ومن جراء فشل التمرد الذى قام به ريموند . وقد دفع اشمئزاز عامة الناس من المجازر التى راح كثير من الرهبان ضحيتها إلى التمسك بالمعتقدات الراسخة ورفض المروق عليها . وفى أكتوبر عام ١٢٤٢ قام دوراند أسقف مدينة ألبى بتكوين تنظيم يهدف إلى التصدى للهراطقة ثم ما لبث أن نشأت تنظيمات أخرى مماثلة فى أماكن أخرى ، وتولى القديس سيليا حماية التنظيم الذى أنشأه أسقف ألبى . وتعهد أعضاء هذا التنظيم بتوفير الحماية لزملائهم ومساعدة الأسقف فى تنفيذ الأحكام التى يصدرها ضد المهرطقين والمتواطئين معهم فى ألبى وفودوا وتوفير الحماية والسلامة للمحققين فى محاكم التفتيش . ورصد هذا التنظيم مكافأة من الفضة لمن يلقى القبض على مهرطق ويسلمه إلى السلطات . ثم إن البابا الجديد أنوسنت الرابع برفضه إعفاء رجال الكنيسة من واجب التصدى للهراطقة كان فى واقع الأمر يحثهم على تقديم كل معونة ممكنة للمحققين حتى لا يتعرضوا لخطر البابا عليهم . فضلا عن أن البابا وعد بإعطاء المنح والعطايا لكل من يقف بجانب المحققين ويساعدهم فى أعمالهم . وأيضا أصدرت الكنيسة تعليماتها للرهبان الدومينكان أن يبذلوا كل ما فى وسعهم للحيلولة بون عودة الهراطقة إلى الانتشار . كما أرسلت مفوضا كنسيا جديدا اسمه زوين إلى منطقة لانجويديوك وذلك بعد أن شكا محققو محاكم التفتيش من أن أسلاف هؤلاء الرهبان أطلقوا سراح عدد غفير من المهرطقين فى السجن بعد تبرئة ساحتهم . وأمر المفوض الكنسى الجديد زوين بملاحقة المهرطقين المفرج عنهم وإنزال العقاب الذى يستحقونه بهم .

وساعد على تضيق الخناق على المهرطقين أن حاكم تولوز ريموند تصالح مع الكرسي البابوي . وفى عام ١٢٤٣ قام ريموند بزيارة إيطاليا حيث تقابل مع الأمير فردريك الثانى فى أبوليا والبابا أنوسنت الرابع فى روما بعد أن استمرت الكنيسة فى فرض الحظر عليه لمدة عشرة أعوام . وأيضا توسط لويس ملك فرنسا وبذل مساعيه الحميدة لدى الكرسي البابوي كى يقبل التصالح مع الكونت ريموند . وبتولى أنوسنت الرابع كرسي البابوية بعد نياحة البابا السابق جريجورى التاسع أصبح الجو مهيئا لتضمه الكنيسة إلى أحضانها . وفى ٢ ديسمبر ١٢٤٣ أحلته الكنيسة من أى حظر كانت قد فرضته عليه كما أن الكنيسة غفرت له ذنوبه فى ١ يناير ١٢٤٤ . وأبلغت لويس ملك فرنسا وكرادلة المملكة بهذا الحل وأذاعته فى جميع الكنائس . وفى ٧ يناير ١٢٤٤ صدرت الأوامر للمفوض البابوي زوين بأن يحسن معاملته ويمتنع عن التحرش به . ولكن يجدر بالذكر أن هذا الحل من الذنوب كان حلا مؤقتا ؛ الأمر الذى مكن المحققين فيرير وجويلم ريموند بعد مجزرة أفيجنونيت من اتهامه بالتواطؤ مع المهرطقين مما جعله يشكو من هذا الاتهام للكرسي البابوي فى أبريل ١٢٤٣ . وفى ١٦ مايو ١٢٤٤ صدر مرسوم بابوي بإلغاء الحظر الكنسى المفروض على ريموند إلغاء كليا . بل إن الكرسي البابوي أنعم عليه بعدد من الامتيازات تضمنها المرسوم الذى أصدره قداسته فى ١٨ مارس ١٢٤٤ . ولعل أهمها ذلك الامتياز الصادر فى ١٢ مايو ١٢٤٥ والذى ينص على عدم خضوعه لأية سلطة دينية قد يعن لها فرض الحظر الكنسى عليه . وبتصالح ريموند مع الكنيسة الرومانية أصبحت علاقته بها سمنا على عسل .

ولم يكن بالإمكان كسر شوكة المهرطقين طالما ظلت قلعة مونتسيجور فى أيديهم . ولهذا كان من الضرورى استيلاء أنصار الكنيسة على هذه القلعة حتى يمكن إخماد التمرد الذى نشب عام ١٢٤٢ والذى تزعمه رئيس أساقفة ناربون وأسقف ألبى ومسئول كاركاسون الدينى وعدد من النبلاء والأرستقراط . وبطبيعة الحال لم يقف المهرطقون مكتوفى الأيدى فقد أرسل إليهم أعوان الكونت ريموند خبيرا ماهرا فى الشئون والمعدات العسكرية اسمه برتراند دى باكاليريا ، كما أمدتهم أنصار التمرد بالمال والذخيرة . وفى ربيع عام ١٢٤٣ حوصرت القلعة فبذلت مقاومة عنيفة ووقفت

النساء بجانب أزواجهن المهرطقين يشددن أزهرهم كما أن الأسقف الكاثارى المارق برتراند مارتن حثهم على الاستماتة فى المقاومة واعداء إياهم بالنعيم الأبدى . وليس أدل على التعاطف العام الذى حظى به المهرطقون المحاصرون من أن محاصريهم سمحوا لهم بإقامة خطوط اتصال مع أصدقائهم فى الخارج وأسروا إليهم أحيانا ببعض خطط الهجوم عليهم . حتى الكنز الذى احتفظ به المهرطقون فى حصن مونتسيجور أمكن تسريبه من القلعة المحاصرة نحو عيد الميلاد عام ١٢٤٣ . وظلت الاتصالات السرية جارية بين المهرطقين داخل الحصن وكونت ريموند خارجه واعداء إياهم بالمساعدة العسكرية والإمدادات إذا أفلحوا فى الصمود حتى عيد القيامة عام ١٢٤٤ ولكن فترة الحصار امتدت نحو عام كامل ؛ الأمر الذى فت فى عضد المهرطقين المحاصرين . وفى ليلة أول مارس ١٢٤٤ قام بعض رعاة الجبل بإرشاد ضاربي الحصار على القلعة إلى المسالك والشعاب الجبلية المؤدية إلى الحصن . وهكذا سقط الحصن واستسلمت حامية المهرطقين بعد مفاوضات قصيرة . وقبل اللاجئون إلى القلعة الاستسلام وتسليم عتاة المهرطقين إلى الكنيسة مقابل الحفاظ على حياة الآخرين وعند سفح الجبل أقام ضاربو الحصار حظيرة ملأوها بأكوام الخشب وطلبوا من عتاة المهرطقين نبذ هرطقتهم ولكنهم أبوا فألقوا بهم فى النار التى التهمت أجسامهم . وهكذا تم إحراق مائتين وخمسة مهرطقين دفعة واحدة . وأرسل أنصار الكنيسة إلى البابا يزفون إليه بشرى استسلام المهرطقين بعد نجاحهم فى سحق رأس التين على حد قولهم .

أما المهرطقون الذين أبقاهم المحققون على قيد الحياة فقد خضعوا للاستجواب الدقيق بهدف استخلاص المعلومات عن المهرطقين الدانين والقاصين والأموات والأحياء والصغار والكبار . وتم استجواب أحداث فى نحو العاشرة من العمر كما تم تسجيل كل البيانات التى كشفت عنها الاستجوابات لدرجة أنها شملت مهرطقين قدامى يرجع تاريخ هرطقتهم إلى أربعين أو ثلاثين سنة خلت وينتمون إلى مناطق نائية مثل كاتالونيا فى إسبانيا . وأيضا تم استجواب التجار الذين كانوا يمدون قلعة مونتسيجور بالأطعمة . ونبشت عظام المهرطقين من قبورهم . والجدير بالذكر أن

المهرطق أرنود دى بريتوس الذى فر إلى لومباردى أرغم عند القبض عليه على كشف أسماء من وفروا له المأوى وحضروا دروسه المهرطقة .

انكسرت شوكة المهرطقين الكاثاريين فى الجنوب الفرنسى وصودرت ممتلكاتهم وانتقلت إلى حوزة الكنيسة وأولى الأمر . وقد نظم الشاعر إيزادن دى فيليمور فى تلك الفترة قصيدة جاء فيها أن المهرطق سيكارد دى فيجويراس عبر عن شكواه من خيانة أعز أصدقائه له . وليس فى مقدور أحد تقدير عدد المهرطقين الذين تمت استتابتهم وصدرت ضدهم أحكام بالسجن مدى الحياة وهم بالآلاف . ولكن من المؤكد أن أعدادهم كانت هائلة بدليل أن مجمع ناربيون طلب من المحققين إرجاء الحكم عليهم بالسجن نظراً لاستحالة بناء سجون تكفى لاستيعاب هذا العدد الضخم من المهرطقين ممن تابوا وسعوا إلى التصالح مع الكنيسة بعد نفاذ مهلة التوبة التى حددتها لهم البابا أنوسنت الرابع فى ديسمبر عام ١٢٤٣ . ويكفى للمرء أن يتخيل ضخامة أعداد المهرطقين التائبين إذا عرف أن الآلاف منهم كشفوا فى توبتهم عن جميع معارفهم من المهرطقين كما كشفوا عن أسماء المهرطقين من معارفهم ممن تحولوا إلى الهرطقة أثناء احتضارهم على فراش الموت . أى أن المهرطقين الأحياء اعترفوا على المهرطقين الأموات الأمر الذى دفع محاكم التفتيش إلى نبش قبورهم واستخراج عظامهم وحرقها فى النار . واعتاد الناس رؤية أجساد الموتى المتحلة وهى تجر فى الشوارع ومنظر المحارق المقامة لحرق أجداثهم . ورغم انتصار محاكم التفتيش على المهرطقين فإن هذا لم يمنع من اندلاع الأعمال الانتقامية التى ارتكبتها نفر من المهرطقين اليائسين ؛ الأمر الذى جعل السلطات الكنسية تحذر المحققين أحياناً من زيارة أماكن الهرطقة التى تمثل خطراً على حياتهم . وكان هذا هو السبب الذى حدا بالبابا أنوسنت الرابع عام ١٢٤٧ أن يخول المحققين سلطة استدعاء المهرطقين إليهم .

ومن ناحيتهم بذل المحققون فى محاكم تفتيش لانجويدوك نشاطاً هائلاً وكبيراً فى ملاحقة المهرطقين . وكان أشد هؤلاء المحققين بأساً هو برنارد دى كوى Bernard de Caux الذى يعتبر بمثابة المحرك أو الدينامو وراء تعقبهم فى تولوز ، وذلك

بعد أن أمضى مدة خدمة فى كل من مدينتى مونتبرالييه وأجين ، والجدير بالذكر أن زميله المحقق جان دى سانت بيير Jean de Saint - Pierre كان يشاركه حماسه المتأجج نفسه . وقد عمل الاثنان بهمة ونشاط بالغين فى ملاحقة المهرطقين بكل ما أوتيا من قوة وحزم . وتلقى الشذرات الوثائقية التى احتفظ لنا بها التاريخ الضوء على نشاطهما المحموم خلال الفترة من ١٢٤٥ حتى ١٢٤٦ زارا خلالها ما لا يقل عن ستمائة موقع مهرطق وغطيا ما يقرب من نصف إقليم لانجويدوك . وقد تم كثير من هذه التحقيقات فى المدن الصغرى . ففى مدينة أفيجنونيت بلغ عدد التحقيقات مائتين وثلاثين تحقيقا وفى مدينة فانجو مائة تحقيق وفى ماس سانت بويل أربعمائة وعشرين تحقيقا ويرجع الفضل فى هذا التوثيق إلى مولينيير الذى أخطأ فى إحصاء عدد التحقيقات التى سجلها حيث إن العدد الصحيح لها يتراوح بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف تحقيق . ولا شك أن كثيرا من هذه التحقيقات كان متعجلا لا يراعى ضميرا أو وازعا كما يتضح من الأحكام التى أصدرها المحقق بيير سيلا ضد المهرطقين المائلين أمامه . ورغم هذا الكم الهائل من التحقيقات نرى أن أساقفة لانجويدوك فى عام ١٢٤٥ يشكون من أن محاكم التفتيش عاملت المهرطقين هناك باللين والرافة . وبالنظر إلى أن الكنيسة الرومانية آنذاك كانت تفتقر إلى المعايير الموحدة والمنسجمة فى تحقيقاتها مع المهرطقين فقد أصدر البابا أنوسنت الرابع عام ١٢٤٥ إلى محققى محاكم تفتيش لانجويدوك بالتمهل والتريث عند إصدار الأحكام المغلظة مثل السجن والحج إلى الأراضى المقدسة ومصادرة الممتلكات لحين يضع مجمع ليون وشيك الاجتماع قواعد عامة يلتزم بها جميع المحققين . وهى قواعد تمت بلورتها على كل حال فى مجمع بيزيه المنعقد عام ١٢٤٦ .

قلنا إن ريموند كونت تولوز تصالح فى أخريات أيامه مع الكنيسة الكاثوليكية وعضدها كثيراً فى التصدى للهرة بعد أن كان يشجعها ويساندها . وحتى يثبت ولاءه للكنيسة الكاثوليكية أصدر أوامره بضرورة حضور رعاياه عظام الرهبان فى كل مدن المملكة وقراها . وفى عام ١٢٤٩ عندما كان يمكث فى بيرليج بالقرب من مدينة أجين أمر بحرق ثمانين كاثوليكيا بدم بارد اعترفوا فى حضرته بارتكاب بعض الأخطاء الدينية ، مظهرا بذلك قسوة توازى - إن لم تكن تفوق - قسوة محاكم

التفتيش . وقد شكا من أن النبلاء المهرطقين يتسللون بكثرة إلى مملكته لاستعادة سابق قوتهم . وبوفاة الكونت ريموند في ٢٧ سبتمبر ١٢٤٩ آلت أملاكه إلى ابنته وإلى زوجها الفرنسي ألفونس بواتييه شقيق لويس التاسع ملك فرنسا الذي شن حملة صليبية فاشلة على مصر .

وفي عام ١٢٥٥ سقط آخر معاقل الهرطقة في الجنوب الفرنسي ، فبعد سقوط قلعة مونتسجيور هربت فلول المهرطقين النبلاء المتبقية إلى الجبال للاحتباء بها ولكن قوات محاكم التفتيش تمكنت من ملاحقتهم في كل مكان واستطاعت الاستيلاء على آخر معاقلهم وهي قلعة كويريبوس في جبال البيرنيز حيث إن المسئول الديني في كاركاسون استطاع محاصرتها في ربيع عام ١٢٥٥ . ولكن المهرطقين دافعوا عن قلعتهم بشراسة . وفي ٥ مايو ١٢٥٥ ناشد المسئول الديني عن كاركاسون الأساقفة المجتمعين في مجمع بيزيه أن يمدوه بالمساعدة مثلما فعلوا من قبل وقت حصار قلعة مونتسجيور . ولكن الأساقفة استجابوا له بحذر ؛ الأمر الذي حدا به إلى الشكوى من عدم تقديم أية مساعدة فعالة له . ولكنه شحذ همته حتى استطاع التغلب على فلول المهرطقين الذين اضطروا إلى التشرذم والاختباء في الكهوف والغابات والاحتباء بالنباتات الشائكة فأمر باجتنائها حتى يتمكن من الوصول إلى وكر المهرطقين .

باندحار الهرطقة أحكمت محاكم التفتيش قبضتها على النبلاء المهرطقين مهما علا قدرهم . وكان في مقدمة هؤلاء النبلاء الكونت فوا المنتمى إلى عائلة واسعة الثراء عريقة المحتد تمتد أراضيها الفسيحة على جانبي البيرنيز ، مما منح هذه العائلة نوعا من المنعة والاستقلال عن كونت ريموند . وكان عامل هذه العائلة النبيلة المهرطقة الكونت روجر برنارد الثاني يتسم بالشجاعة والإقدام وتحدى الكونت ريموند الذي تصدى له كي يخضعه لسلطاته . ومن المعروف أن زوجة الكونت روجر برنارد الثاني وأخته انتمتا إلى طائفة الوالدنسيين المهرطقة . كما أن أخته الأخرى اعتنقت الهرطقة الكاثارية . وقد اعتبرت الكنيسة الكاثوليكية الكونت روجر برنارد الثاني واحدا من ألد أعدائها . وفي عام ١٢٢٩ استسلم برنارد الثاني للكونت ريموند قاطعا على نفسه عهدا بمحاربة الهرطقة . وفي عام ١٢٢٧ نصح هذا الرجل ابنته فيسكونت كاستيلو

فى أراجون أن تسمح لمحاكم التفتيش بدخول أراضيه مما أدى إلى إدانة عدد غير من المهرطقين . ورغم أن هذا الرجل تعرض لاتهام الأسقف أوربيل له بالهرطقة فإنه استطاع فى عام ١٢٤٠ أن يكسب رضاء الكنيسة عنه قبل وفاته عام ١٢٤١ . وبعد وفاته ترك للكنيسة ثروة عريضة تضم ديراً عتيقاً هو دير السستريان فى بوليون حيث لفظ أنفاسه الأخيرة وهو يرتدى زى الرهبان .

ورغم كل ما فعلته عائلة فوا لإثبات ولائها للكنيسة فإن هذه الكنيسة لم تسامحها على ماضيها المتساهل مع المهرطقين . فضلاً عن أن الكنيسة كانت تتطلع إلى إثبات مروقها طمعاً فى الاستيلاء على ثروتها الضخمة ، ولهذا نرى بعد مرور اثنتين وعشرين سنة على وفاة روجر برنارد ، أى فى عام ١٢٦٢ إحياء للإجراءات القديمة التى كانت الكنيسة بصدد اتخاذها ضده ثم أغفلتها بعد أن تصالح معها . واستعانت فى ذلك بأحد الخدم الأوفياء الباقين على قيد الحياة ، وهو عجوز يدعى ريموند برنارد دى فلاسكان الذى لم يفارق روجر برنارد إبان فترة مرضه ، وحضر الراهب بونس محقق محكمة تفتيش كاواسون إلى حيث يعيش الخادم الوفى فى مازيريس وحقق معه . وحين عجز هذا المحقق عن أن يتنزع من الخادم أى دليل على هرطقة سيده تحت ضغط التعذيب والاضطهاد اعتبر شهادته غير مرضية وزج به فى غياهب السجن . واستمرت محكمة التفتيش فى تعذيبه لمدة اثنين وثلاثين يوماً قرر بعدها المحقق بونس إعادته إلى كاركاسون لكفاءة أداء محاكم التفتيش هناك . وبعد قضاء يوم من الراحة فى دير بوليون سجل هذا الكاتب الوفى يوم ٢٦ نوفمبر ١٢٦٢ فى حضرة بعض الرهبان التحقيقات التى تعرض لها مؤكداً أنه لم ير سيده الكونت يرتكب أى انتهاك للعقيدة الكاثوليكية وأضاف أنه سوف يكون كاذباً وخائناً إذا هو سمح لنفسه بأن يقر بغير ذلك تحت وطأة التعذيب . ورغم كل ما تمتع روجر برنارد الثالث من حظوة لدى الكرسي البابوى فقد دأب محقق محكمة تفتيش فاربون آيتين دى جاين على مضايقته وتهديده أثناء مرضه العضال . وشكا روجر برنارد الثالث للكرسي البابوى من كثرة مداهمات قوات محاكم التفتيش لأراضيه بزعم البحث عن المهرطقين لدرجة أن أراضيه تعرضت للخراب . ولم ينقذه من براثن محاكم التفتيش غير موته فى فبراير عام ١٢٦٥ . وأسوة بوالده روجر برنارد الثانى رقد جسده

المسجى فى ملابس رهبان دير السيستريان ، ورغم وفاته اللاحقة فى عام ١٢٩٢ أخفق محقق محكمة تفتيش كاركاسون برتراند دى مكير مونت فى التدليل على مرقه وانحرافه عن صحيح العقيدة الكاثوليكية .

ونستدل مما نقدم أن أى شخص مهما علا قدره لم يكن فى مأمن من محاكم تفتيش لانجويدوك التى رأسها إيتين جاتين وبوتسى دى بوييه لعدة سنوات امتدت من عام ١٢٧٣ حتى عام ١٢٧٥ استطاعا خلالها بجدهما ونشاطهما الإيقاع بعدد هائل من المهرطقين . ورغم الانخفاض فى عدد المهرطقين الأحياء بسبب تعقب محاكم التفتيش لهم ، فإن تهمة الهرطقة باثّر رجى بعد الموت ظلت سارية كما ظلت سارية عمليات نبش قبور الموتى المتهمين بالهرطقة ، وشجع الكنيسة والأمراء على ملاحقة الضحايا بعد الموت إغراء مصادرة ممتلكاتهم والاستيلاء عليها .

وفى عام ١٢٧١ عاد حاكم الجنوب الفرنسى ألفونس شقيق ملك فرنسا لويس التاسع مع زوجته جين بعد الحملة الصليبية الفاشلة التى شنّها شقيق الملك على تونس . وتوفى الأمير الفرنسى وزوجته دون ذرية الأمر الذى أدى إلى اندثار حكم عائلة ريموند حاكم تولوز وأيلولة ممتلكاتها إلى ملك فرنسا . وأدت سياسة استيلاء ملك فرنسا على أراضى وممتلكات عائلة ريموند إلى زيادة سلطة الدولة وانحسار سلطة الكنيسة . فعلى الرغم من ولاء ملك فرنسا لويس التاسع إلى الكنيسة فإنه كان من الطبيعى للغاية أن يحرص على صيانة مصالحه الشخصية أكثر من حرصه على مصالح الكنيسة . ويتضح لنا هذا بجلاء من حالة حفيده فيليب « الحسن » الذى تولى عرش فرنسا عام ١٢٨٦ وهو فى السابعة عشرة من عمره .

وفى عام ١٢٠٣ وصل الأمر بأحد مستشارى لويس التاسع ملك فرنسا ويدعى نوجاريت إلى تحدى سلطة البابا بونيفاس الثامن تحديا سافرا ، ويوجه إليه وهو الحبر الأعظم تهمة الهرطقة مما أثّج صدور أهل تولوز واعتبروه نوعا من الانتقام لما كابدوه فيما مضى من سوء معاملة الكنيسة لهم . وبالمقارنة شعر أهل الجنوب الفرنسى أن خضوعهم لسلطة الدولة أرحم من خضوعهم لقسوة محاكم التفتيش وتعسفها ، والجدير بالذكر أن شعب ألبى وكاركاسون جأ بالشكوى من قسوة

المحقق جين جالاند Jean Jalande وجين فيجوريه Jean Vigoureux واستجمع هذا الشعب شجاعته فرفع شكواه إلى فيليب هاردى عام ١٢٨٠ . ويبدو أن التذمر الحقيقى ضد محاكم التفتيش لم يعد نابعا من المهراطيين بل أصبح يأتى من بعض الصالحين من رجال الدين والقضاة والحكام المدنيين المستائين من استيلاء الكنيسة والكرسى البابوى على أموال المهراطيين وممتلكاتهم المصادرة . وحين استحدثت محاكم التفتيش أسلوب تعذيب ضحاياها زاد من هلع الناس وسخطهم على هذه الممارسات البشعة . وأيضا زاد من هلعهم أن أحدا منهم لم يشعر بالأمان من ملاحقة محاكم التفتيش له ولعائلته حتى بعد مواراتهم الثرى ، وهذا ما حدا بقناصلة كاركاسون وبعض رجال الدين البارزين فيها إلى تدبير مؤامرة فى عامى ١٢٨٣ و ١٢٨٤ تهدف إلى تدمير جميع ملفات محاكم التفتيش وما تحتويه من اعترافات . ورغم اكتشاف أمر هذه المؤامرة فإنها تدل بجلاء على الفجوة الكبيرة التى تفصل بين محاكم التفتيش والأهالى . وعبثا حاول أهل كاركاسون فى عام ١٢٨٥ تقديم الشكاوى للمسئولين الدينيين والمدنيين فقد تمكنت المحاكم بما لها فى سطوة وقدرة على التخويف وانتزاع الاعترافات أن تتغلب على هذه الشكاوى .

ورغم قدرة محاكم التفتيش على القضاء على الأرستقراط المهراطيين فإن هذا لم يمنع من انتشار الهرطقة فى صفوف المستويات الأدنى سواء كانت من الفلاحين أو الطبقة البورجوازية . وفى مقدمة المهراطيين برزت أسماء راييموند ديبلوك Raymond Debloc ورييموند جودايل Raymond godayl (أو ييديه) اللذين أدانتهم محكمة تفتيش كاركاسون عام ١٢٧٨ إلى جانب المهراطى جويلم باجس Guillem Pages . وأثبتت الأيام أن محقق محاكم التفتيش الجديد المعين مؤخرا فى كاركاسون واسمه نيكولاس دابرفيل لا يقل فى قسوته عن سابقه . وعندما جأر شعب كاركاسون بالشكوى من قسوته لدى ملك البلاد تم الزج بمحرر الشكوى فى السجن ولكن هذا لم يفت فى عضد ضحايا محاكم التفتيش . وفى ١٣ مايو ١٢٩١ أرسل الحاكم فيليب خطابا إلى نائب حاكم كاركاسون يشرح له الأضرار التى ألحقها محاكم التفتيش هناك بسبب ما استحدثته من أساليب التعذيب مصدرا أوامره إلى موظفيه بعدم الانصياع لمحاكم التفتيش إلا فى حالة وجود سبب قوى يدعو إلى ذلك مثل

اعتراف المهراطيين أنفسهم بذنبهم وشهادة الأشخاص المحترمين والموثوق بهم ضدهم . وبعد مضي شهر واحد كرر فيليب أمره بعدم طاعة محاكم التفتيش وأعلن أنه بصدد إرسال مندوبين له إلى منطقة لانجويدوك كي يستيقنوا من الوضع بأنفسهم . ويدل هذا على مدى التوتر الذي أخذ يعتري علاقة السلطة المدنية بالسلطة الكنسية . وردت السلطة الدينية على ذلك بأن قام جويلم دي سانت سين محقق كاركاسون في عام ١٢٩٢ بأمر جميع القساوسة هناك بالتبليغ عن أى شخص يعوق عمل المحققين .

وفي سبتمبر عام ١٢٩٢ اتبع فيليب سياسة الدفاع عن اليهود . ورغم أن محاكم التفتيش لم تقم باضطهادهم بوصفهم طبقة أو شريحة من شرائح المجتمع ، فإنها اعتبرتهم مهراطيين في حالة ردتهم إلى الدين اليهودي بعد اعتناقهم الدين المسيحي ، أو في حالة حث المسيحيين على نبد دينهم من أجل اعتناق اليهودية . في هذه الحالة فقط أصبح يحق لمحاكم التفتيش أن تدينهم وتسلمهم إلى الذراع العلماني . وبالنظر إلى أن كثيرا من اليهود اتبعوا أسلوب التقية حيث إنهم تظاهروا بالتحول إلى المسيحية درءا لإيذاء العالم المسيحي لهم فقد سبب ذلك صداعا مستمرا لمحاكم التفتيش الأمر الذي دفع البابا كليمنت الرابع إلى إصدار مرسوم يجرم هذا في عام ١٢٦٨ . ثم قام البابوات الآخرون بتجديده لدرجة أن بعض المحققين تخصصوا في هذا النوع من الهرطقة مثل الراهب برتراند دي لاروش Bertrand de la Roche محقق بروفانس وجويلم دوكسير Guillaume de Ouxerre الذي أطلق عليه رسميا محقق المهراطيين واليهود المرتدين في فرنسا . وبطبيعة الحال كان اليهود في وضع اجتماعي ضعيف للغاية لا يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم . وفي عام ١٢٩٠ أمر فيليب اليهود بالمثل أمام المحاكم الملكية ، كما تسلم سيمون برستيت مسئول كاركاسون نسخة من المرسوم البابوي الخاص بمحاكمة اليهود أمراً بعدم الخروج عنه . كما صدرت الأوامر في حالة وجود لبس بإحالة قضايا اليهود إلى المجلس الملكي . وأيضا صدرت أوامر ملكية إلى كل المحققين والرهبان مهما ارتفع شأنهم بالامتناع عن القبض على أى يهودي في فرنسا بدون إخطار سابق للجهات المدنية التي تقرر ما إذا كان هناك ثمة مبرر قانوني لتقديمهم إلى المحاكمة بدون الرجوع إلى المجلس الملكي . وأمر سيمون برستيت Simon Birstete موظفيه بالدفاع عن اليهود وعدم فرض أية عوائق عليهم

من شأنها تعجيزهم عن دفع الضرائب المستحقة عليهم وعدم القبض على أى واحد منهم إلا بعد التبليغ بالسبب .

وأعطت سياسة فيليب هذه أملا لليهود فى صيانة كرامتهم الأدمية ، ولكن هذه السياسة سرعان ماتبدلت أحوالها . فقد أصدر مسئول كاركاسون تعليماته إلى Aiméric فيسكونت ناربون بضرورة تقديم العون إلى المحققين فى محاكم التفتيش كما جرت العادة . ورغم ماتضمنه هذا من تحد لإرادة فيليب فإنه تمسك بموقفه وأصدر فى نهاية عام ١٢٩٥ أمرا ملكيا لتطبيقه على سائر أرجاء المملكة يحظر بمقتضاه القبض على أى شخص بأمر أى راهب مهما علا قدره إلا إذا كانت هناك مبررات قوية ومقنعة أو تفويض بأبوى بذلك ، وإلا لزم إطلاق سراحه . ويبدو أن التعليمات التى أصدرها فيليب لم تكن فى بادئ الأمر فعالة حيث إنتنا نراه فى أواخر عام ١٢٩٦ يشكو إلى مسئول كاركاسون من كثرة عدد المقبوض عليهم . ويبدو أن تعليمات فيليب أصبحت نافذة المفعول فيما بعد ؛ لأن الوثائق تخبرنا أن فوك دى سانت جورج Foulques de Saint - Georges نائب المحقق فى محكمة تفتيش كاركاسون أمر آدم دى ماروليس Adam de Marolles بالقبض على عدد من المشتبه فى هرطقتهم . ولكن الرجل أحال الموضوع إلى رئيسه روبرت دارتوى Robert d'Artois ضابط الملك فى منطقتى لانجويدوك وجاكسون .

كان موقف فيليب من محاكم التفتيش يمثل ضربة قاضية عليها ؛ حيث إن هذه المحاكم اعتمدت اعتمادا مطلقا على المساعدات التى تقدمها لها السلطات المدنية ، غير أن فيليب توخى الحذر فى تصرفاته ولم يحاول على الإطلاق إثارة عداوة الأساقفة ضده ؛ حيث إن تعليماته التى تحظر القبض على المهرطقين كانت تشير إلى الرهبان دون الإشارة إلى محاكم التفتيش أو ذكرها بالاسم . وبدأ شجار فيليب مع البابا بونيفاس الثانى يلوح فى الأفق وخاصة فى الفترة من يناير ١٢٩٦ حتى فبراير ١٢٩٧ وهى الفترة التى شاهدت صدور عدد كبير من المراسم البابوية الهادفة إلى فرض قيود على السلطة المدنية ؛ الأمر الذى أثار ثائرة فيليب ودفعه إلى مقاومة السلطة البابوية ومحاكم التفتيش فى كل أرجاء مملكته . وفى أكتوبر ١٢٩٧ أخطر البابا

الثامن بأنه أمر محقق محكمة تفتيش كاركاسون باتخاذ الإجراءات ضد بعض موظفي مدينة بيزيه ممن شك البابا في مروقهم . ولا شك أن تدخل البابا السافر في شئون السلطة الزمنية جعل فيليب يشعر بدنو الخطر منه ؛ الأمر الذي وسع الهوة التي تفصل بين السلطة الزمنية ومحاكم التفتيش ، غير أن علاقة البابا بوتيفاس الثامن السيئة مع الكردينالين جياكومو Giacomo وبييترو كولونا Pietro Colonna جعلته يعيد حساباته ويسعى إلى التصالح مع الملك فيليب واسترضائه ؛ وهو ما جعله يوافق في مايو ١٢٩٧ على أن يعطى أساقفته العشور للملك ، بالإضافة إلى قبوله عمل بعض التنازلات السياسية الأخرى . وإزاء حرص الكنيسة على التصالح معه أبدى الملك فيليب حسن نواياه نحو الكرسي البابوي وقبل أن يخضع رعاياه لسلطة المحققين ومحاكم التفتيش . واغتتم بوتيفاس الثامن هذه الفرصة ليصدر مرسوما بتاريخ ٣ مارس ١٢٩٨ يأمر بخضوع السلطة المدنية خضوعا مطلقا لأوامر محققى محاكم التفتيش حتى لا توقع على أفرادها عقوبة الحظر الكنسى الذى يصبح اتهاما بالهرطقة إذا استمر مفروضا عليهم لمدة عام . وهكذا رد بوتيفاس الثامن الصاع صاعين لتجرؤ الملك فيليب على تشريعاته البابوية . وحتى يتجنب الملك فيليب استئناف الشجار مع البابا أثر الانحناء أمام العاصفة وأصدر تعليمات إلى موظفيه بطاعة محاكم التفتيش والأساقفة ومعاقبة من تقوم هذه المحاكم بإدانتهم . ويدل الخطاب الذى أرسله فى ٢ مارس من العام نفسه - المشار إليه بأن الراهب أرنو دجين Arnaud Jean محقق محكمة تفتيش بامبير الذى يطمئن اليهود إلى عدم اتخاذه أية إجراءات قاسية جديدة ضدهم - على أن الملك فيليب لم يعد يوفر الحماية لهم . واستمر الملك فيليب على علاقة طيبة مع البابا حتى عام ١٣٠٠ عندما دب الشجار بينهما من جديد بصورة أمرٌ وأعنف مما كانت عليه . واستمر هذا الشجار على أشده حتى تمكن فيليب يوم ٨ سبتمبر ١٣٠٣ من الإمساك بالبابا بوتيفاس الثامن فى مدينة أناجنى ثم وفاته فى الشهر التالى .

وفى ظل هذا الصراع المرير الذى احتدم بين الخصمين أصبحت حياة الشعب فى لانجويدوك جحيما لا يطاق . وكان محقق محكمة تفتيش كاركاسون نيكولاس إبيفيل رجلا قاسى القلب إلى أقصى الحدود . وكان له مساعد لا يقل عنه فى قسوته

هو فولن دي سانت جورج رئيس دير ألبى . كما كان له مساعد آخر شديد التعصب هو الأسقف برنارد دي كاستانيت Barnard de Castanet الذى لا يقل قسوة وجشعا عن زميله . وليس أدل على جشع أساقفة مدينة ألبى من أنهم بالاتفاق مع الملك لويس التاسع استأثروا بنصف ممتلكات المهرطقين المصادرة . وقبل ترقيته إلى رئيس دير عام ١٢٧٦ نجح برنارد فى إثارة حفيظة شعبه عليه بسبب جشعه وقسوته لدرجة أن الرعا ع هاجموا قصره فى عام ١٢٧٧ وكادوا أن يفتكوا به . فضلا عن أنه فى عام ١٢٨٢ شرع فى بناء كاتدرائية عملاقة تضم كنيسة وحصناً أقامهما من ممتلكات المهرطقين التى نجح فى الاستيلاء عليها .

وبطبيعة الحال انتهز المهرطقون فرصة القيود التى فرضها الملك فيليب على محاكم التفتيش فى مضاعفة نشاطهم ، وبدا أن سلطة الكنيسة تخبو وتضمحل وأن السلطة المدنية تقوى وتشتد . وكان وضع محاكم التفتيش فى كاركاسون أسوأ من غيرها من الأماكن ؛ نظرا للمقت الشديد الذى كان الملك فيليب يحمله لها . وفى عام ١٢٩٥ لم يجد أعيان كاركاسون الذين سبق أن قدمتهم محاكم التفتيش إلى المحاكمة فى عام ١٢٨٥ أية صعوبة فى تحريض أهل كاركاسون على التمرد ، واستطاع المتمردون إحكام السيطرة على كاركاسون وإلحاق الضرر الواضح بالرهبان الدومينكان وأعوانهم . وقام المتمردون بطرد الراهب نيكولاس إبريقيل من فوق المنبر وأخذوا يرمونه بالحجارة ويستلون عليه سيوفهم ، فضلا عن أنهم أوسعوا بقية الرهبان ضربا وإهانة بمجرد ظهورهم فى الأماكن العامة . ويرجع رد الفعل العنيف إلى قسوة الكنيسة غير المبررة فى تعاملها مع الأهالى .

ونتيجة لهذا التمرد توقف العمل فى محاكم التفتيش لعدة أعوام ، وتهاوت هذه المحاكم عندما امتنعت السلطة الزمنية عن مساندتها . ولكن هذا لم يستمر طويلا، وانتهى حين عقد الملك فيليب هدنة مع البابا ثم تصالحا ، فشعر الأهالى بعدم الاطمئنان فأرسلوا مبعوثين إلى البابا بونيفاس الثامن برئاسة ممثلهم أيمرك كاستيل وبعض الرهبان الفرانسييسكان المتعاطفين معهم . واستمع البابا إلى شكواهم واقترح انتداب أسقف فيسنزا لدراسة الموضوع ورفع تقرير بشأنه، ثم أسند هذه المهمة إلى

الكاردينال سابينا الذى ساوم الأهالى طالباً منهم رشوة قدرها عشرة آلاف فلورينة . ولكن رئيس البعثة أيمرك رفض واعتقد أن بإمكانه دفع رشوة أقل مقابل رفع الحظر الكنسى المفروض على المدينة ؛ الأمر الذى أثار غيظ البابا بونيفاس الثامن وحفيظته ضد أيمرك وهدد بأن كل ملوك العالم المسيحي سوف يعجزون عن إنقاذ كل شعب كاركاسون من الحرق وخاصة أيمرك كاستيل . أنهك الصراع المحتدم بين الكرسي البابوي والسلطة المدنية أهل كاركاسون كما أضر بمصالحهم الاقتصادية . وفى البداية خرج محقق محكمة تفتيش كاركاسون الواعظ الراهب نيكولاس دبرفيل من هذا الصراع ظافراً . ويات من الواضح أن الأهالى سنّموا هذا الصراع وفقدوا القدرة على مقاومة السلطة الكنسية ، وتطلع الأهالى إلى نهاية لهذا الصراع الذى جر عليهم خراب البيوت ؛ فتم عقد اجتماع فى ٢٧ أبريل ١٢٩٩ حضره قضاة كاركاسون ومحقق محكمة تفتيش كل من ألبى وبيزييه ومحقق تولوز وموظفو وأتباع الملك فيليب إلى جانب عدد كبير من رؤساء الأديرة والأعيان . وقبل محقق محكمة تفتيش كاركاسون أن يرفع الحظر عن أهلها مقابل بعض الشروط المعتدلة مثل الاكتفاء بمعاقبة من تثبت هرققتهم دون إذلال المشتبه فى أمرهم أو مصادرة أملاكهم . ورغم اعتدال هذه الشروط فإن شك الأهالى فى الكنيسة جعلهم يطلبون مهلة مدتها أربع وعشرون ساعة لدراسة الأمر ، ثم اجتمع الأهالى فى اليوم التالى وأعلنوا رفضهم للشروط . ومرت ستة أشهر أخرى بلغ الإعياء بالأهالى كل مبلغ فعدّوا اجتماعاً فى ٨ أكتوبر من العام نفسه . وفى هذا الاجتماع طلب قناصلة كاركاسون رفع الحظر عنها . واستعمل المحقق نيكولاس الرأفة معهم فأمرهم بالتكفير عن ذنوبهم ببناء كنيسة تكريماً لذكرى القديس لويس التاسع . وقد تم الانتهاء من بناء الكنيسة فى عام ١٣٠٠ بتكلفة قدرها تسعون ألف جنيه تورنوازيّ وقام القناصلة نيابة عن الأهالى بنبذ الهرطقة فى السر . وقررت محكمة التفتيش استتابة اثنى عشر مواطناً فى كاركاسون من تهمة الهرطقة وهم أربعة قناصلة متقدمون فى العمر وأربعة مستشارين واثنان من المحامين واثنان من الكتبة . وتروى لنا الوثائق المصير البائس الذى لقيه جويلم جاريك Guillem Garric الذى ألقوا به فى زنزانة فى كاركاسون لم يخرج منها إلا بعد مرور ٢٢ عاماً عندما استدعته المحكمة للمثول أمامها فى ١٢٢١ ، وخيرته محكمة

التفتيش بين المنفى والاشتراك فى إحدى الحروب الصليبية ؛ فجثا الرجل المتهاك على ركبتيه للتعبير عن تقديره لرأفة المحققين به وحسن معاملتهم له . وبعد بضعة أعوام ثارت ضجة عندما تمكن الراهب برنارد ديلسيو Bernard Delicieux من الاطلاع على نصوص الاتفاق الذى توصلت إليه كاركاسون مع الكنيسة ، واكتشف من خلالها أن القناصل اعترفوا بأن الأهالى كانوا عن بكرة أبيهم يتعاطفون مع المهرطقين ، وأن القناصل هم الذين نبذوا الهرطقة نيابة عن كل أفراد مجتمعهم . ولكن هذه الاستتابة لم تنجهم من توقيع العقاب الرادع إذا عادوا إلى سابق هرطقتهم أو من توجيه تهمة الانتكاس إليهم . وسرى السخط بين أهالى كاركاسون وهاجوا وماجوا ؛ الأمر الذى دفع المحقق جيوفروا دابلى Geofroi d'Ablis إلى إصدار تصريح فى ١٠ أغسطس ١٢٠٢ يطمئنهم فيه إلى أنه لن يحاول مطلقا استغلال بنود الاتفاقية . وما إن حضر الملك فيليب إلى كاركاسون فى عام ١٢٠٥ حتى أعلن أن الاتفاقية مزورة ؛ وعاقب جوى كابرييه Gui Coprier بسبب توقيعه عليها . واعترف هذا الرجل أن محقق كاركاسون نيكولاس دانيفل أعطاه رشوة قدرها ألف جنيه تورانوازي مقابل التوقيع على الاتفاقية .

وعندما اضطرت محاكم التفتيش إلى التوقف عن العمل نشطت الهرطقة الكاثارية بشكل واضح ، وفى عام ١٢٩٩ دق مجلس مدينة بيزيه ناقوس الخطر معلنا أن الهرطقة باتت تتهدد البلاد من جديد ومطالبها بملاحقتها . وفى مدينة ألبى دق الشقاق كالعادة بين ممثل السلطة الكنسية الأسقف برنارد وبين شعبه الذى اشتكى إلى بلاط الملك فيليب ؛ فطلب هذا الأسقف المساعدة من كل من المحققين نيكولاس ديبفيل وبرتيراند دى مكيرمونت ، وقرب نهاية عام ١٢٩٩ صحت مدينة ألبى على نبأ زلزل أركانها مفاده أن محاكم التفتيش هناك ألقت القبض - بتهمة الهرطقة - على خمسة وعشرين شخصا من أكثر المواطنين ثراء واحتراما وأكثرهم انتظاما فى حضور القداس ومراعاة لواجباتهم الدينية . وأجريت محاكمات هؤلاء الأشخاص بسرعة غير عادية . ويبدو أنهم تعرضوا للتعذيب لأنهم سارعوا بالاعتراف بذنبهم والكشف عن أسماء شركائهم بعد أن أنكروا الاتهامات الموجهة ضدهم . وهذا ما يؤكد واحد من الضحايا اسمه جويلم كالفيرى Guillem Calverie . ورغم أن

المتهمين لم يحرقوا بسبب إنكارهم للتهمة الموجهة إليهم فقد حكمت عليهم محاكم التفتيش بالسجن المؤبد وهم مكبلون بالأغلال .

وبدت البلاد جاهزة للتمرد في وجه السلطة الكنسية . وشجع هذا التمرد ذلك الشجار الذي تجدد بين الملك فيليب والبابا بوتيغاس الثامن . وعندما تقاعس الملك فيليب عن مد يد العون إليهم لم يجدوا مانعا من التطلع إلى ملك آخر يجمعهم . وتدل حادثة القبض على أسقف بيبير واتهامه بالخيانة العظمى عام ١٢٠١ على حقيقة مشاعر أهل لانجويدوك الذين كرهوا الفرنسيين واعتبروهم غرباء وطغمة من الطغاة الأجانب ؛ لدرجة أنهم لم يجدوا غضاضة في تغيير ولائهم إلى إنجلترا أو أراجون إذا وجدوا أن مصالحهم تقتضي ذلك . ولا شك أن هشاشة حكم باريس والشمال الفرنسي على لانجويدوك كان يرجع في الأساس إلى سياسة الملك فيليب المتغيرة وغير المستقرة .

وروعت محاكمات محاكم تفتيش ألبى الأهالي ؛ لأن ضحايا هذه المحاكمات كانوا يعتبرون كاثوليكًا لا غبار على إيمانهم ، وأن الهدف من وراء محاكمتهم هو نهب ثروتهم والاستيلاء عليها . وذاع بين الناس اعتقاد بقدرته نفر من المحققين أمثال جين دي فوجو وجويلم دي مولسيون وجين دي سانت سيني وجين جالاند ونيكولاس دايفيل وفولوك دي سانت جورج على انتزاع ما يشاءون من اعترافات من أى متهم سواء كان بريئًا أو مذنبًا ، وأن قدرتهم على تزوير السجلات فائقة . وقد اشتهر هؤلاء المحققون بالقدرة على إلصاق التهم بمن يشاءون حتى ولو كانوا قد ماتوا وشبعوا موتًا . وعندما توفي أسقف كاركاسون جوتيه دي مونتيرون Goutier de Montbrun أظهروا وثائق تثبت أنه كان يتعبد في محراب المهرطقين وأنه هرطق وهو على فراش الموت . غير أن رئيس أساقفة كاركاسون كان يعرف أن شاهدا اسمه جوردين فيرول Jourdain Ferrolh لم ير بنفسه جوتيه دي مونتيرن وهو يتعبد في محراب الهرطقة؛ ومن ثم فإن شهادته باطلة، ولهذا حث جين مارتن Jean Martin رئيس الأساقفة على تدمير هذه السجلات المزورة وطرد الرهبان الدومينكان من وظائفهم . وعندما شعر محققا كاركاسون وتولوز نيكولاس دايفيل وبيير مولسيون بأنه من المحتمل توجيه تهمة التزوير إليهما قاما بإخفاء السجلات في برويل واستبعاد البيانات المزورة منها .

ووقعت حادثة أكدت لشعب كاركاسون شرور محاكم التفتيش . فعندما تواعد البابا بونيفاس الثامن بالانتقام من إيمريك كاستل بإحراق والده كان يعنى ما يقول وساعده على هذا الشر أن المحقق نيكولاس كان طوع بنانه . كان فابرى والد أيمرك مواطنا مرموقا فى كاركاسون يجمع بين التقوى الشديدة والشهرة العريضة . وكانت تربطه بطائفة الرهبان الفرنسيكان علاقة طيبة ، وحرص هذا الرجل على حضور القداديس قبل وفاته فى عام ١٢٧٨ ، وفى أيامه الأخيرة أحاط به جمع من هؤلاء الرهبان ولازمه وهو فى النزاع الأخير ستة منهم وبالنظر إلى قدرة محاكم التفتيش على قلب الحقائق رأسا على عقب وتزييف الأحداث فإنها لم تجد أدنى صعوبة عندما أصدرت عام ١٢٠٠ لافطة أمرت جميع كنائس الأبراشية بقراءة نصها على المترددين عليها ، وأهابت اللافتة بكل من يعن له الدفاع عن ذكرى كاستيل فابرى المثول أمامها حيث إنه ثبت لها أن هذا الرجل هرطق وهو يحتضر . وقد انتهزت محكمة التفتيش فرصة غياب ابنه عند نشر هذا الإعلان ، وجاء للدفاع عن هذا الرجل الصالح عدد من الرهبان الفرنسيكان الذين أوصى لهم بجانب كبير من ثروته وتشاور الرهبان الفرنسيكان فيما بينهم وقرروا إرسال مندوب عنهم يدعى برنارد دى ليجوس (تو ديلسبيه) توجه إلى رئيسه الموجود آنذاك لحضور اجتماع من مارسيليا لتلقى التعليمات منه ، وخاصة لأن تصرفات محكمة تفتيش كاركاسون بدت وكأنها تتآمر ضد طائفة الفرنسيكان الذين يقيمون أودهم من التجوال فى البلاد والشحاذة من العباد . وأيضا وقع الاختيار على إليازاد دى كليرمونت كى يتعاون مع المندوب برنارد ولم يضع المحقق نيكولاس الوقت حيث شرع فى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بإدانة والد أيمرك المتوفى . وفى يوم ٤ يوليو عام ١٢٠٠ تقدم كل من برنارد وإليازاد للإدلاء بأقوال الرهبان الذين مكثوا مع والد أيمرك وهو فى النزاع الأخير ، غير أن المحقق نيكولاس رفض الاستماع إلى شهادتهما . وعندما ألحا عليه أن ينصت إليهما ترك لهما الحجرة وانصرف . ولما عاد برنارد وإليازاد بعض الظهر ليطلبا من المحقق نيكولاس إعطاءهما شهادة تذكر ماحدث وجدا باب محكمة التفتيش موصدا .

عندئذ قرر الرجلان المدافعان عن والد أيمرك أن يلتمسا من البابا التدخل لوضع الأمور فى نصابها ، ولكن اللجوء إلى البابا لم يكن بالأمر الميسور خوفا من أن يؤدى

إلى الاصطدام بالمحقق نيكولاس . حتى متسلم الشكوى ارتعدت فرائصه وطلب من الشاكين أن يتكتما اسمه . وبعد مرور تسعة عشر عاما حين تم تقديم برنارد أحد الشاكين إلى المحاكمة رفض الكشف عن اسم متلقى الشكوى . وأيضا وجد الشاكيان عسرا بالغا فى العثور على كاتب يشهد بسلامة إجراءات استئنافهما ؛ فقد أبى جميع كتبة كاركاسون تسجيل الاستئناف المقدم منهما لدرجة أنهما اضطرا إلى إحضار كاتب من خارج كاركاسون . ودرءا للأذى طلب المستأنفان أن يشملهما الكرسى البابوى بحمايتهما وحماية جثة كاستيل فابوى وجميع أفراد دير الفرنسيسكان . وعندما توجه المستأنفان إلى مقر المحقق نيكولاس وجداه مغلقا مرة أخرى. ولهذا تمت تلاوة نص الاستئناف فى الشوارع قبل لصقه على باب محكمة التفتيش . وبعد وقت ليس بالقصير وفى عام ١٣١٩ على وجه التحديد استخدمت محكمة التفتيش هذا الملصق لإدانة برنارد . وتبين أن الاستئناف لصالح كاستيل فابرى لم يكن مجديا حيث يتضح من السجلات التى خطها أرنولد أساليت Assalit عام ١٣٢٢-١٣٢٣ أن أراضى وضياع المتوفى كاستيل فابرى كانت لاتزال تخضع للمصادرة . ولم تقف قسوة محاكم التفتيش عند هذا الحد ، حيث إنها فى عام ١٣٢٩ قست بأن أمرت بنبش جثة زوجته ركسند وإخراجها من القبر .

كان من الممكن أن يهمل التاريخ حالة كاستيل فابرى لولا أن هذه الحالة جعلت معلم دير كاركاسون برنارد ديلسييه يصطدم مع محاكم التفتيش ، كان برنارد ديلسييه قرة عين طائفة الفرانسييسكان التى انضم إليها نحو عام ١٢٨٤ . وقد وقع عليه الاختيار معلما بسبب شدة تبحره فى العلم مما أتاح له فرصة الاتصال بأنضج العقول فى زمانه . وكمعلم كانت فصاحته مضرب الأمثال كما كان يكره الهرطقة من سويداء قلبه ويريد اجتثاثها من جذورها . ولكنه كان فى الوقت نفسه يؤمن بفساد محاكم التفتيش بسبب خضوعها لسيطرة الرهبان الدومينكان . ولهذا آمن بأنه من الخير لهذه المحاكم والعقيدة الكاثوليكية لو أن هذه المحاكم أصبحت فى أيدي منافسيهم من الرهبان الفرنسيسكان . وفى الوقت نفسه تبرم البابا بوتيافاس الثامن من تصرفات وشطط الرهبان الدومينكان فاستبدل ببعض المحققين الدومينكان فى كل من بادوا وفسينزا بعضاً من المحققين الفرنسيسكان ، ورأى المعلم الفرانسييسكانى

برنارد أنه من المستحسن أن يحدث مثل هذا الشيء فى لانجويدوك لإزاحة الظلم والاضطهاد عن كاهل أهلها . وبطبيعة الحال كان ذلك سببا فى احتدام النزاع بين طائفتى الدومينكان والفرانسيكان وفى صب الرهبان الدومينكان جام غضبهم عليه . وفى رغبته التخفيف عن ضحايا محاكم التفتيش نراه فى عام ١٢٩٨ يساند الالتماس الذى رفعه أهل كاركاسون إلى البابا بونيفاس الثامن تؤيده فى ذلك سائر أديرة الفرنسيسكان . وانبرى برنارد من فوق منابر أديرة الفرنسيسكان يطالب بضرورة استبعاد الرهبان الدومينكان من محاكم التفتيش وتغيير رهبان فرانسيسكان بهم ؛ مما جعل الدومينكان يهاجمون دير الفرنسيسكان الذين نجحوا فى ردهم على أعقابهم .

وعبثا اشتكى المحققون فى محاكم التفتيش لدى الكرادلة الفرنسيسكان من أن الراهب الفرنسيسكانى برنارد يعوق أعمالهم وأعمال المكتب المقدس . وقدم الفرنسيسكان برنارد إلى محاكمة صورية انتهت بإثبات براءته .

وعندما انقضت محاكم التفتيش على المهرطقين فى ألبى فى أواخر عام ١٢٩٩ وأوائل عام ١٣٠٠ انخلعت قلوب عامة الناس . وكان الشقاق بين الملك فيليب والبابا بونيفاس الثامن قد بدأ يتفجر من جديد ، ورأى فيليب أن الموقف الجديد يتطلب منه ظهوره بمظهر حامى شعب لانجويدوك ، والرافض لسطوة وجبروت محاكم التفتيش؛ فقرر الأمر بإجراء تحقيق مع المسئولين عن هذه المحاكم ، ولكنهم أبوا وتكبروا ورفضوا الانصياع للأوامر الملكية . وفى عام ١٣٠١ أرسل الملك فيليب إلى منطقة لانجويدوك اثنين من موظفيه وأمرهما بإصلاح ما اعوج وفسد من أمور محاكم التفتيش ووضع حد لمباذلهما . وكان اسما هذين الموظفين جين دى بيكوينى Peguigny وريتشارد نوفيه Nepveu .

استقر هذان المصلحان فى تولوز حيث كان فولك دى سانت جورج يعمل محققا منذ عام ١٣٠٠ ، واستطاع هذان المصلحان جمع الأدلة الدامغة التى تدين هذا المحقق للجوءه إلى التعذيب والاعتداء على عفاف الفتيات اللاتى استعصين عليه عندما حاول اغتصابهن . وجاء أسقف ألبى لتبرير الإجراءات الظالمة التى اتخذتها محاكم

التفتيش ، وشجعهم وجود ممثل الملك فيليب بين ظهرانيهم فباحوا بحقيقة مشاعرهم المعادية نحو المحققين . وما إن شاهدوا أسقف ألبى يقترب حتى تجمهر ضده جمع غفير غاضب يصيح : « الموت للخائن » . وكاد الجمع أن يفتك به ولكنه نجا بمعجزة . وفكر البعض فى إحراق قصره ولكن شجاعتهم خانتهم ، ومع ذلك فقد تجرأ عليه وجهاء المدينة واستعانوا بالكتابة فى مقاضاته ومقاضاة المحقق نيكولاس أيفيل لدى بلاط الملك فيليب ، الذى انتهز الفرصة لتجريدته من امتيازاته الزمنية وتوقيع غرامة ضخمة عليه ، تصل إلى عشرين ألف جنيه اقتطعت من ثروته غير المشروعة لتنول إلى خزانة الملك .

واستدعى مندوباً الملك الراهب برنارد ديلسييه الذى كان يعلم فى ناربون واعتبراه حليفاً لهما بسبب الدور الذى لعبه فى فضح حقيقة محاكم التفتيش فى قضية كاستيل فابري . وترأس ديلسييه الوفد الذى أرسله أهالى ألبى كى يطلب من الملك فيليب التدخل لردع المحققين . وكان البلاط الملكى آنذاك يجتمع فى بلد يدعى سينليس فجاء إليه رهبان دومينكان كثيرون للدفاع عن محاكم التفتيش . واقترح برنارد على الملك فيليب تعليق محاكم التفتيش حين الانتهاء من التحريات والاستجابات ، وكذلك تعليق عمل الرهبان الدومينكان حين صدور الأحكام البابوية عليهم . وفى حضرة الذات الملكية قدم فولك الراهب اعترافه بمساندة الراهب جويلم فى توجيه اتهامات لا تقوم على أدلة وبراهين إلى بيكويني الذى وجه بدوره اتهامات مماثلة إلى فولك . وتكونت لجنة مكونة من رئيس أساقفة ناربون ورئيس الشرطة الفرنسية للاستماع إلى حجج وأقوال كل من الطرفين المتنازعين . وجاء قرار هذه اللجنة لصالح بيكويني ؛ فأمر الملك بعزل المحقق فولك المشكوك فى حقه . وطلب أن يتولى تنفيذ قرار العزل رئيس طائفة الدومينكان فى باريس باعتباره صاحب الحق فى عزل المحققين من وظائفهم . ولكن الرجل عقد اجتماعاً دينياً تقرر فيه إبقاء المحقق فولك فى وظيفته بعض الوقت حين انتهائه من المحاكمات التى بدأها . واستشاط الملك فيليب غضباً من هذا القرار فأرسل مجموعة من الخطابات الغاضبة إلى أولى الأمر . ولم يكتف بهذه الخطابات بل كتب فى ٨ ديسمبر ١٢٠١ إلى محقق تولوز ومسئول تولوز وألبى يقول إن صرخات شعبه وأناته ومن بينها أنات رجال الكنيسة والوجهاء جعلته يقتنع بأن المحقق فولك مذنب فى حق الأهالى وأنه يضطهدهم ، كما أنه يقوم

بتعذيبهم لانتزاع الاعترافات منهم ، فضلا عن لجوئه إلى شهادات الزور ضد الأبرياء . وأضاف الملك الغاضب أن هذا الظلم ينذر بتمرد الناس وثورتهم ؛ ومن ثم وجب تصحيح الأوضاع على وجه السرعة . وعندما توفى فولك فقيرا في ليون اعتبرته طائفة الدومينكان شهيدا .

لم يكتف الملك فيليب بردع المحقق فولك والتخلص منه بل إنه اضطلع بإدخال إصلاحات في محاكم التفتيش تدل على سعيه الحثيث إلى إخضاع السلطة الدينية إلى السلطة المدنية ، وأول هذه الإصلاحات وضع السجن الذى شيده الملك فيليب على أراضيه فى تولوز لاستخدام محاكم التفتيش فى يد شخص يتولى الأسقف والمحقق اختياره ، فإذا اختلف الاثنان فى رأى يقوم مندوب القصر باختيار من يراه مناسبا . فضلا عن أن الملك جرد المحققين من سلطة القبض التعسفى وأوجب عليهم التشاور مع الأساقفة المحليين . وفى حالة الاختلاف فى رأى ينعقد اجتماع لهذا الغرض يتكون من بعض العاملين فى الكاتدرائية وعدد من الرهبان الفرنسيين والدومينكان . وكذلك حظر الملك فيليب القبض على أى مشبوه إلا بعد اتخاذ الإجراءات أنفة الذكر ، اللهم إلا إذا كان المهرطق أجنبيا ويمكنه الهروب . وكذلك استن الملك اشتراطات مماثلة خاصة بدفع الكفالة وأصدر تعليماته بعدم طاعة الأسقف أو المحقق إذا كانا يتصرفان على هواهما . قال الملك : « نحن لا نستطيع إقرار أن نتوقف مصائر رعيتنا على قرار شخص بمفرده يمكن أن تكون المعلومات المتوفرة لديه قاصرة ، هذا إذا لم يكن الطمع والجشع يحركانه » . ورغم أن هذه الإصلاحات لم تكن كافية لإصلاح محاكم التفتيش بشكل حاسم ونهائى فإنها أصابت نجاحا مؤقتا ؛ فقد توقفت فجأة ممارساتها فى القبض على العباد وخاصة عندما تجسدت هذه الإصلاحات فى شكل أوامر عامة خلال عام ١٢٠٢ فضلا عن إعادة إصدار التشريع الصادر عام ١٢٩٢ والخاص بحماية اليهود من اضطهاد محاكم التفتيش . والجدير بالذكر أن هذه الإصلاحات واکبها فى الوقت نفسه حرص من جانب الملك فيليب على استئصال الهرطقة حيث إنه قام بإحياء المرسوم المتشدد الذى كان الملك لويس قد أصدره بشأن محاربة الهرطقة . وعند تعيين جويلوم دى مورير Guillaume de Morieres للعمل فى محكمة تفتيش تولوز أصدر الملك فيليب إلى مندوبه تعليمات بأن يضع السجن الملكية تحت تصرف هذا المحقق وإعطائه الراتب المعتاد وتقديم كل العون له .

غير أن هذه اللوائح الملكية الجديدة فشلت فى التخفيف من وطأة ظلم محاكم التفتيش على كاهل مدينة ألبى بالذات ، الأمر الذى أدى إلى اندلاع أعمال العنف والشغب فيها ، حيث ألقى بالكثيرين منهم فى غياهب السجن التابع لمحكمة تفتيش كاركاسون . وأرسلت ألبى وفدا كبير العدد من الذكور والإناث لمقابلة الملك فيليب . وصاحب هذا الوفد اثنان من الرهبان الفرنسيين هما جين هكتور Jean Hectar وبرتراند فيليديل Bertrad de Villedolle وحضر المقابلة بأمر ملكى برنارد ديلسييه الذى كان على علاقة سيئة بالبابا بسبب اعتراضه على محاكم التفتيش . وعندما اجتمع هذا الوفد بالملك فيليب وعدهم بزيارة لانجويدوك على وجه السرعة ومنع أعضاء الوفد ألقى جنيه من حصيلة الممتلكات التى استولى عليها الملك من المارقين . غير أن هذا لم يكن كافيا لإرضاء أهل ألبى الساخطين . فضلا عن أن استبعاد المحقق نيكولاس دابرفيل لم ينجح فى تهدئة خواطر شعب ألبى المتذمر ؛ حيث حل محله محقق آخر فى كاركاسون يدعى جيوفروى دابليس Geoffroi d'Ablis لا يقل سوءا عن سلفه ، والذى أحضر معه خطابات ملكية مؤرخة فى ١ يناير ١٢٠٢ تأمر جميع المهرطقين بطاعته . وفى ظل هذا الشر المستتر تصاعدت حدة تدمير الأهالى ضد محاكم التفتيش ، وبالنظر إلى أن ألبى لم يكن فيها محكمة تفتيش محلية خاصة (حيث إنها كانت تتبع محكمة تفتيش كاركاسون) فقد صب أهالى ألبى جام غضبهم على طائفة الرهبان الدومينكان باعتبارهم المتحكمين فى هذه المحاكم . واستهلا لا لمقدم عام ميلادى جديد توجه هؤلاء الرهبان كعادتهم يوم ٢ ديسمبر ١٢٠٢ للتبشير فى الكنائس فإذا بجمهرة من الشعب تهاجمهم وتطردهم من منابر الأديرة وتقابلهم بصيحات الاستهجان قائلين : « الموت للخونة » . واستمر هذا الوضع الملهب والمتوتر ضد الدومينكان لعدة أعوام لدرجة أنهم خافا على حياتهم امتنعوا من النزول إلى الشارع ، وأيضا امتنع الشعب الساخط عن دفع أية نذور للكنيسة كما قاطعوا القداديس . وبلغ السخط بأهل ألبى على الكنيسة مبلغا جعل الأهالى يحون اسمى القديس دومينيك (مؤسس طائفة الدومينكان) والقديس بطرس الشهيد من البوابة الرئيسية للمدينة . واستبدلت بهذه الأسماء أسماء متمردين على الكنيسة وزعمائهم أمثال بيكونين ونيفو وأرنود جارسيا Arnold Garsia وبيير بروبي Pierre Probi .

لم يكن سجناء محاكم التفتيش فى ألبى قد أطلق سراحهم بعد ، الأمر الذى حدا ببرنارد ديلسو المناهض للكرسى البابوى أن يحث بيكوينى وفد الملك فيليب إلى لانجويدوك على الحضور إلى كاركاسون لمناقشة الأمر واتخاذ ما يراه مناسباً . وفى صيف عام ١٢٠٢ حضر بيكوينى حيث قابل عدداً كبيراً من أهالى ألبى الذين توسلوا إليه تحريرهم من سطوة محاكم التفتيش وتدارس أسلوب رأب الصدع بين المحقق نيكولاس أبرفيل وقناصلة كاركاسون ، وفى عظة نارية ملتهبة إلى الشعب كشف الراهب برنارد ديليو عن الشروط التى توصل إليها الطرفان المتنازعان ، فجن جنون الشعب وثارت تأثرتهم ودمروا منازل بعض القناصلة المعروفين بصداقتهم لمحاكم التفتيش ، وأيضاً هاجم الثائرون كنيسة الدومينكان وحطموا نوافذها والتماثيل الموجودة فى الممرات الخارجية ، وهال بيكوينى موفد الملك أن يرى سجون. محاكم التفتيش تستباح ويعتدى عليها على هذا النحو ، كما أنه تردد كثيراً قبل أن يتخذ قرار إطلاق سراح سجنائها . وفى أغسطس ١٢٠٢ استسلم المحقق جيوفروا دابليس فقام بيكوينى بترحيل سجناء محاكم التفتيش فى ألبى إلى السجون الملكية ، ولكنه امتنع عن تسليمهم إلى الملك فيليب كما أشار عليه برنارد ديلسييه . غير أن محاكم التفتيش ما لبثت أن استعادت سيطرتها من جديد .

على أية حال حرص المصلحان المعينان من قبل الملك فيليب على معرفة ما تعرضوا له من تعذيب ومعرفة الذين أجبروهم على اتهام آخرين بالهرطقة زوراً وبهتاناً . وانتهز الرهبان الفرنسيسكان هذه الفرصة السانحة للكيد للرهبان الدومينكان المهيمنين على محاكم التفتيش بإذاعة بيانات السجناء على أوسع نطاق ممكن مما أثار مشاعر الأهالى وحفيظتهم على هذه المحاكم . وكذلك انتهز المحقق القاسى جيوفروا دابليس هذه الفرصة للنيل من غريمه بيكوينى موفد الملك فاستدعاه إلى المحاكمة بتهمة عرقلة أعمال محاكم التفتيش وعندما رفض بيكوينى المثول أمام المحكمة قام جيوفروا بفرض الحظر الكنسى عليه . وبمجرد أن وصل الخبر إلى مسامع طائفة الدومينكان فى باريس بادروا بتأكيد الحظر الكنسى المفروض على غريمهم . وهكذا تمخض عن هذا النزاع نشوب صراع بين الكنيسة والدولة . فعلى الصعيد المدنى توسل شعب وقناصلة مدينة ألبى إلى الملكة كى تحت زوجها الملك

فيليب على ألا يتخلى عنهم ويسحب المصلحين اللذين أوفدهما لإصلاح مبادئ محاكم التفتيش . وبذلت دون جدوى جهودها للحيلولة دون إذاعة الحظر الكنسى فقد قام الراهب جين ريكوليس بإذاعته من فوق منبره ، فقام بالقبض عليه مندوب حاكم ألبى وحمله إلى دير الفرنسيسكان حيث أساء هؤلاء الرهبان معاملته ومارسوا الضغط عليه كي يسحب ما سبق أن نشره . وبفرض الحظر الكنسى على بيكويني أصبح عاجزاً عن اتخاذ أية إجراءات لحين رفع الحظر عليه ، وهو الأمر الذى يقرره من قام بفرض الحظر أو البابا نفسه .

غير أن الأمل فى رفع الحظر على بيكويني كاد أن يتلاشى عند اعتلاء البابا بنديكت الحادى عشر كرسى البابوية (١٣٠٢ - ١٣٠٤) المنتمى إلى طائفة الرهبان الدومينكان والذى كان من أشد البابوات انتصاراً لمحاكم التفتيش . ولم يجد بيكويني أمامه مفرّاً من مناشدة البابا كي يقف بجانبه ، كما أنه كتب من باريس يستحث أهل لانجويدوك لمساندته مذكراً إياهم أن الاضطهاد الذى يكابده يرجع إلى دفاعه عن قضيتهم . ومن ناحية أخرى سعى الراهب برنارد ديلسييه إلى كسب التأييد والمساندة أيضاً حث مدن كاركاسون وألبى وكورديس على الدخول فى تحالف .

واستمر الشجار محتدماً فانتقل إلى روما حيث ذهب بيكويني إلى إيطاليا يرافقه مبعوثون من الملك ومن مدينتى كاركاسون وألبى لمؤازرته . ولكن محقق محكمة تفتيش تولوز جويلم دى مورير الذى أنيط به النظر فى حالته اعترض طريقه ووقف له بالمرصاد ، ومن الواضح أن البابا كان يتعاطف مع محقق تولوز . وحدث فى ١٧ مايو ١٣٠٤ الموافق عيد العنصرة أن تجرأ بيكويني على انتهاك الحظر المفروض عليه إذ إنه دخل الكنيسة فى بيروجيا . وبمجرد أن وقعت أبصار البابا عليه فى الكنيسة أمر بطرده منها . وقد توفى بيكويني فى أبروزو فى ٢٩ سبتمبر ١٣٠٤ وهو يعتبر مهرطقاً فى نظر القانون حيث إن الحظر الكنسى المفروض عليه لم يكن قد رفع . غير أن وفاة بنديكت الحادى عشر مكنت أعوان بيكويني من دفنه فى مداخل المسيحيين . ولكن المحقق جيوفروا دابليس أمر باستخراج عظامه من قبره وإحراقها . وفيما بعد التمس أبناء بيكويني من الكنيسة رد الاعتبار إلى والدهم . وظل الموضوع مثار أخذ وعطاء

حتى أمر البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٤) بإنشاء لجنة مكونة من ثلاثة كرادلة لتمحيصه . وبعد البحث والفحص وسماع شهادة جميع الأطراف قررت هذه اللجنة في ٢٣ يوليو ١٣٠٨ أن الحظر الكنسي المفروض على بيكويني مخالف للقانون كما أمرت بإلغاء هذا الحظر الجائر وإذاعة هذا الإلغاء في جميع الأماكن التي تم فيها نشر هذا الحظر ، وعبثاً حاول المحقق جيوفروا الاستئناف لدى البابا ضد تبرئة ساحة بيكويني فقد رفض البابا كليمنت الخامس الاستماع إليه بسبب اقتناعه بأن مظالم محاكم التفتيش هي السبب الحقيقي في تمرد الأهالي على الكنيسة . والذي يدل على أن البابا كان نصيراً لمحاكم التفتيش أنه أمر كاهن أكوينين بالقبض على الراهب برنارد ديلسييه دون سابق إنذار وإرساله للمثول أمام محكمة الكرسي البابوي بتهمة الهرطقة مهدداً هذا الكاهن بفقدان وظيفته إذا لم يفعل هذا ، فضلاً عن أن البابا أدان زعماء مدينة ألبى . وبدوره كلف كاهن أكوينين الراهب جين ريجود بتنفيذ أمر القبض عليه ، وتم ذلك في يونيو ١٣٠٤ في دير كاركاسون غير أن الرهبان الفرنسيين عبروا عن شديد تعاطفهم معه وبرأوه من التهم الموجهة إليه . ولولا وفاة البابا بنديكت لما سلم هؤلاء المتعاطفون معه من العقاب .

وأخيراً قام فيليب بتنفيذ وعده بزيارة مناطق الجنوب الفرنسي من أجل رفع الظلم عن الأهالي وإزالة أسباب شكواهم من محاكم التفتيش . وفي ١٣ مايو عام ١٣٠٤ نجح في إقناع البابا بنديكت بأن يرفع عن شعب الجنوب الحظر الكنسي الذي كان البابا بونيفاس الثامن قد فرضه عليه . وعندما وطئت أقدامه أرض تولوز عام ١٣٠٣ في يوم عيد ميلاد المسيح تقاطرت عليه من مدينتي ألبى وكاركاسون جموع الشعب تطلب منه الإصلاح والحماية . وعبر بيكويني عن مشاعرهم على خير وجه . وفي حين تولى الراهب الدومينكاني جويلم بيير الدفاع عن محاكم التفتيش عارضها برنارد ديلسييه بكل ما أوتى من قوة مبيناً مظالم محاكم التفتيش وتعسفها وافترائها وقدرتها على إلصاق تهمة الهرطقة بمن تشاء ، حتى ولو كان من تلاميذ المسيح الاثنى عشر . وأيضاً حامت حول الراهب نيكولاس كاهن اعتراف الملك شبهة التحيز لمحاكم التفتيش . أما جيوفروا دابليس محقق كاركاسون فقد سعى إلى كسب ود الملك

فيليب عن طريق التفاوض بهدف تحقيق المصالحة بين الملك فيليب والكرسى البابوى فى روما .

واستمع الملك فيليب إلى طرفى النزاع من مؤيدين ومعارضين لمحاكم التفتيش ثم سجل قراره فى مرسوم أصدره يوم ١٢ يناير عام ١٣٠٤ ويمثل حلاً وسطاً . وجاء فى هذا المرسوم أن الملك بعد الاستماع إلى جميع أطراف النزاع قرر ضرورة أن يقوم مندوبو الملك برفقة المحققين بزيارة سجناء محاكم التفتيش وأيضاً بضرورة إصلاح أحوال السجون . وفى المقابل طالب الملك موظفيه بتقديم كل مساعدة ممكنة إلى محاكم التفتيش فضلاً عن حماية طائفة الدومينكان الذين كان الرهبان الفرنسيسكان يتربصون بهم الدوائر .

وفى حين خلت مدينة ألبى من الهرطقة ، ظلت الهرطقة تطل برأسها فى كاركاسون ، وطالب شعب كاركاسون الملك فيليب بزيارة المساجين التعساء الذين تعرضوا للاضطهاد والذين كان اضطهادهم سبباً فى إثارة تذمره وقلقله . ولكن الملك فيليب رفض وأرسل أخاه لويس بدلاً منه . وأراد شعب كاركاسون كسب ود الملك فيليب فقدموا إليه وإلى الملكة الهدايا الثمينة ولكنه رفضها ؛ وأجبر الملكة على رفضها الأمر الذى أصاب قناصلة كاركاسون باليأس والقنوط . وفى هذا الجو الذى يدعو إلى الإحباط لم يتوقع أهل كاركاسون خيراً من الملك ، وعلى سبيل الاحتجاج أبلغ زعيم كاركاسون إلياس باتريس Elias Patrice الملك فيليب بأن شعب كاركاسون سوف يسعى إلى حاكم آخر إذا لم يبادر بقمع محاكم التفتيش ورد أذاها عن الناس ، وغضب الملك فيليب من تهديد إلياس باتريس فأمره بالغروب عن وجهه على الفور . والجدير بالذكر أن شعب كاركاسون أطاع زعيمه إلياس باتريس عندما أمر بنزع الزينات المقامة لاستقبال الملك من الشوارع . وهاج هذا الشعب وماج لاعتقاده أن الملك قد خذله وأنه انضم إلى صفوف أعدائه من الرهبان الدومينكان ، وأنه تراجع عن وعده بحمايتهم ؛ مما جعلهم يهددون بحرق مدينة كاركاسون ، وبلغ استيائهم من فيليب مبلغاً جعلهم يقدمون ولاعهم إلى فيراند ابن ملك ماجوركا رغم أنه غريب عنهم . واتهم الملك معارضيه بأنهم يتآمرون عليه . غير أن مدينة ألبى استطاعت تبرئة ساحتها من هذه التهمة . ونتيجة لذلك توترت العلاقة بين الملك فيليب وكاركاسون .

وعندما انعقدت محكمة التفتيش فى هذه المدينة فى صيف ١٢٠٥ لجأت إلى التعذيب فى أثناء استجواب المتهمين بالهرطقة . وسنحت الفرصة للرهبان الدومينكان كى ينتقموا من الرهبان الفرنسيسكان ، وقضت محكمة تفتيش كاركاسون بإعدام أربعين مواطناً فى مدينة ليمدكس ، كما أنها أنزلت عقاباً صارماً بأهل كاركاسون فشنت جميع قناصلتها وعلى رأسهم إلياس باتريس بالإضافة إلى سبعة مواطنين آخرين . وأيضاً تم فرض غرامة باهظة على هذه المدينة بلغت ستين ألف جنيه التمس الأهالى إلغائها دون جدوى . ومن ناحيته لاذ بالفرار إيمريل كاتيل الذى أراد تبرئة ساحة أبيه من تهمة الهرطقة . ولكن محاكم التفتيش أفلحت فى القبض عليه وانتهى الأمر بتصالحه مع الملك بأن دفع إلى خزائنه فدية كبيرة وغرامة ضخمة . أما الراهب برنارد فقد توجه إلى الملك على رأس وفد يمثل أهل ألبى من باريس لإثبات عدم ضلوع أهل ألبى فى المؤامرة ضده ، غير أن الوفد عاد من باريس تاركاً الراهب برنارد وراءه حيث طلب الملك من البابا كليمنت الخامس إلقاء القبض عليه وإرساله إلى مدينة ليون ثم إيداعه فى أحد الأديرة . وفى مايو ١٢٠٧ قام الملك فيليب بإيحاء من البابا كليمنت الخامس بإصدار عفو عن جميع المتهمين بالتآمر ضده كما أنه أعفى كاركاسون من دفع بقية الغرامة الموقعة عليها . وفى عام ١٢٠٨ تم الإفراج عن الراهب برنارد ، وسمح له بالعودة إلى مدينة بواتييه . وفى نهاية المطاف عاد الراهب برنارد إلى تولوز حيث توقف عن العمل العام مكتفياً بما شاهده من الحرص الذى أظهره البابا كليمنت الخامس على إصلاح مفاسد محاكم التفتيش .

وبموت البابا بنديكت الحادى عشر فى يوليو عام ١٢٠٤ تجددت آمال الأهالى فى وضع نهاية لظلم محاكم التفتيش ، وبعد موته انقضى ما يقرب من عام قبل انتخاب خلفه كليمنت الخامس فى ٥ يونية ١٢٠٥ . وفى تلك الأثناء قدمت سبع عشرة هيئة دينية فى منطقة إلبيجو - وقد انضم إليها كرادلة وأحبار ألبى وكنيسة سانت إلفى ودير جايلاك وآخرون - التماساً إلى كلية الكرادلة أو كلية اللاهوت يطلبون التدخل من أجل القضاء على تعسف محاكم التفتيش ؛ نظراً لخلو البلاد فعلاً من المارقين والهرطقة ، وحيث إن قلوب الناس عامرة بالإيمان بالعقيدة الكاثوليكية . ولاشك أن محاكم التفتيش استغلت تمرد أهل كاركاسون عليها كما استفادت من التغير الذى

طراً على موقف الملك الذى تحول عن سابق تعاطفه مع ضحايا الاضطهاد الدينى، فكما أسلفنا تغير موقف الملك فيليب منهم وصار غيرعابئ بمصيرهم بسبب تمرد أهل كاركاسون عليه وخيانتهم له . ومنذ عام ١٣٠٧ فصاعداً اعتمد هذا الملك على محاكم التفتيش للقضاء على هرطقة طائفة فرسان هيكل سليمان (انظر كتاب « الهرطقة فى الغرب ») الأمر الذى رسخ قوة محاكم التفتيش وبأسها . ولم تكثر كلية اللاهوت الضالعة فى المؤامرات برفع الظلم الذى شكا منه رجال الأكليروس الألبيجانسيون . وعندما فاز كلمنت الخامس فى الانتخابات البابوية بمساندة الفرنسيين بات الشعب يأمل فى إزاحة مظالم محاكم التفتيش عن كاهله . وكان الكاردينال برتاند دى جوت Bertrand de Goth رئيس أساقفة بوردو والمنحدر من أصل جاسكونى رغم مواطنته الإنجليزية أكثر إحساساً من الطليان بمحنة وشقاء أهل لانجويدوك . وزاد من تفاؤل المطالبين بوضع حد لمظالم محاكم التفتيش أن البابا الجديد كليمنت الخامس نقل مقر الكرسي البابوى من الأراضى الإيطالية إلى أراضٍ تابعة للتاج الفرنسى . وما إن وصلت أنباء انتخاب البابا الجديد إلى مسامع أهل مدينة ألبى حتى ترأس الراهب برنارد بعثة تمثل سعى هذه المدينة إلى المطالبة بكبح جماح محاكم التفتيش . وعندما زار الراهب برنارد تولوز التفت حوله زوجات السجناء الذين زجت بهم محاكم التفتيش فى الزنانات وألحن عليه أن يقبل شكاواه إلى المسئولين ، وتدفقت الشكاوى المنتقدة لمحاكم التفتيش من أهالى مدينة ألبى يساندها راهبان من طائفة الدومينكان هما برتراند بلاك Bertrand Blanc وفرانسوا أيمرك Francois Aimeric اللذان انضموا إلى وفد مدينة ألبى الشاكى من مظالم محاكم التفتيش . وسارع جيوفروا دابليس محقق محكمة تفتيش كاركاسون بمغادرة هذه المدينة من أجل الدفاع عن نفسه ، لدرجة أنه من فرط عجلته لم يكلف أحداً أن ينب عنه فى غيابه . ولم يستدرك هذا الخطأ إلا بعد وصوله إلى مدينة ليون فى ٢٩ سبتمبر ١٣٠٥ .

ويأت بالفشل الذريع جهود جيوفروا دابليس للدفاع عن محاكم التفتيش وخاصة لأن أهالى ألبى عززوا شكاوهم منها بتقديم رشوة قدرها ألفان من الجنيهات التورانوازية إلى ريموند دى جوت Raymond de Goth ابنة عم البابا ورشوة أخرى مماثلة إلى كاردينال سانت كروتشى ورشوة ثالثة قدرها خمسمائة جنيه تورانوازي

إلى الكاردينال بييركولونا Pier Colonna . وفى ١٣ مارس ١٢٠٦ كلف البابا كليمنت الخامس اثنين من الكاردينالات هما بيير سانت فيتال وبيرنجير فيربو وشخصا آخر يدعى أخيل أن يجوبوا لانجويدوك لتقصي مسلك محاكم التفتيش واتخاذ الإجراءات المناسبة بشأنه . وتقدم أهالى كاركاسون وألبى وكورديس للإدلاء بشهادتهم ومفادها أن محاكم التفتيش تجبر الكاثوليك المؤمنين على الاعتراف بهرطقتهم عن طريق التعذيب والسجون وصدرت الأوامر إلى المحققين كي يكفوا عن الزج بالناس فى السجون والامتناع عن تعذيبهم إلا بعد الرجوع إلى السلطات الدينية المحلية المختصة .

وفى ١٦ أبريل عام ١٢٠٦ عقد الكرادلة اجتماعاً عاماً فى مدينة كاركاسون حضره جميع أعيانها ونبلائها . وفى هذا الاجتماع عبر قناصلة كاركاسون وممثلون عن مدينة ألبى عن شكواهم المرة من محاكم التفتيش . وأيدهم فى هذه الشكوى الراهبان الدومينيكان اللذان سبق ذكرهما . وهما بلانك وأيمرك . وفى المقابل تولى محقق كاركاسون جيوفروا دابليس ومندوب أسقفية ألبى الدفاع عن هذه المحاكم من سوء معاملة الأهالى للمحققين وافترائهم عليهم . وبعد سماع الطرفين المتنازعين قام الكرادلة بتأجيل البت فى الموضوع حتى ٢٥ يناير ١٢٠٧ ، لحين وصول المزيد من المندوبين فى كل من كاركاسون وألبى وكورديس . وبالنظر إلى احتمالات انتقام محاكم التفتيش من الأهالى الشاكين وعد الكرادلة بتوفير الأمان لهؤلاء الشاكين . كانت الأخطار المحدقة بالشاكين أخطاراً حقيقية لدرجة أن أحد الشاكين وهو أيمرك كاستيل ومبعوث أهالى كاركاسون تعرض للخطر فى سبتمبر ١٩٠٨ ، لجأ إلى البابا كليمنت طالبا منه الأمان وحمايته من اعتداء المحققين . وأيضاً تعرض لخطر الحرق الشهود الذين اتهموا محاكم التفتيش بتزييف السجلات باعتبارهم مهرطقين منتكسين حيث إن هؤلاء الشهود كانوا قد قطعوا على أنفسهم عهداً بعدم إفشاء أسرار محاكم التفتيش . وتفادياً لانتقام المحققين طلب هؤلاء الشهود من الكرادلة إعفاءهم من الأقسام التى سبق أن قطعوها على أنفسهم بعدم إفشاء هذه الأسرار . ورغم أن الكرادلة لم يحسموا النزاع الناشب بين الأهالى والمحققين بشكل قاطع فقد اتخذ الكرادلة بعض الخطوات الدالة على اقتناعهم بصحة الاتهامات التى وجهها الأهالى

إلى محاكم التفتيش ؛ ولهذا زاروا سجن كاركاسون وطلبوا من المحبوسين في عدددهم أربعون محبوسا - من بينهم ثلاث سجينات - المثول أمامهم . وظهرت عليهم أعراض المرض والهزال وسوء التغذية وسوء المعاملة . وتولى الكرادلة طرد معظم حراس السجن الذى وضعوه تحت الإشراف المباشر لأسقف كاركاسون ، وكذلك تم استبدال السجانين وموظفى السجن . وصدرت الأوامر إلى الحراس بعدم استجواب المحبوسين إلا فى حضرة شخص كنسى مسئول وعدم سرقة طعامهم . وارتاع أحد الكرادلة عندما زار السجن التابع لأسقف ألبى حيث إنه وجد المساجين فى حالة يرثى لها تكبلهم الأغلال فى زنزانات معتمة وضيقة . وقد استمر حبس بعض المساجين لأكثر من خمسة أعوام دون صدور أية أحكام عليهم . فأمر الكاردينال الزائر للسجن بفك أغلال السجناء وضرورة السماح بدخول النور داخل الزنزانات كما أمر بتشديد سجن يصلح للاستعمال الأدمى فى غضون شهر . غير أن الكرادلة عجزوا عن استحداث أية إصلاحات جوهرية فى نظام محاكم التفتيش مكثفين بتأكيد اقتراح الملك فيليب بعدم انفراد المحقق بالسلطة وضرورة تعاونه مع المسئول الدينى المحلى . حتى هذا الإجراء الاحترازى ألغاه البابا كليمنت فى ١٢ أغسطس ١٣٠٨ ؛ الأمر الذى يدل على أن الكنيسة الكاثوليكية عجزت عن أو تنصلت من تصحيح أوضاع محاكم التفتيش الخاطئة رغم اقتناعها بالظلم البين الذى تلحقه بالعباد . وأيضاً وجد البابا كليمنت الخامس نفسه عاجزاً عن إدخال أية إصلاحات جوهرية فى نظام السجون . وإزاء هذا العجز الكنسى رأى المحققون أن مصلحتهم تقتضى الاستناد إلى المرسوم الذى سبق أن أصدره أنوسنت الرابع والذى يخولهم إرجاء إصدار الحكم طالما أن هذا فى صالح العقيدة والحفاظ عليها . ولم تصدر أحكام على كثير من السجناء الذين كان أسقف ألبى قد قبض عليهم فى عام ١٢٩٩ . وقد اكتشف الكاردينال سان فيتال Vital هذا التقصير البشع والجور الواضح حيث قام بزيارة السجون التابعة لهذا الأسقف . وبعد مرور خمسة أعوام كتب البابا كليمنت الخامس فى عام ١٣١٠ إلى أسقف ألبى ومحقق كاركاسون جيوفروا دابليس يقول إن الكثيرين من مواطنى ألبى ناشدوه مراراً وتكراراً بضرورة إتمام محاكمتهم سواء بالإدانة أو التبرئة بعد أن أمضوا فى سجونهم أكثر من ثمانية أعوام . ولهذا أمر هذا البابا بسرعة إجراء

المحاكمات وإصدار الأحكام ورفعها للتصديق عليها إلى كل من كاردينال باليسترينا Palestrina وفراسكاتي Frascati . ولكن أسقف ألبى برتراند دي بورديس والمحقق جيوفروا دابليس تجاهلا هذا الأمر البابوي وضربا به عرض الحائط وخاصة لأن بعض المساجين قد ماتوا وشبّعوا موتا قبل صدور المرسوم البابوي . وعندما ترامى نبأ هذا العصيان إلى سمع البابا كليمنت الخامس بعد مضي عام أو عامين كتب إلى أسقف ألبى وجيوفروا مشدداً على ضرورة محاكمة المتهمين سواء كانوا أحياء أو أمواتاً . غير أن المحقق جيوفروا استمر في شق عصا الطاعة على الكرسي البابوي .

وليس أدل من قضية جويلم جاريك Guillem Garric على إمعان محاكم التفتيش في تحدى الكرسي البابوي ؛ فقد زج المحقق بهذا الرجل في السجن بتهمة محاولة تدمير وثائق محكمة تفتيش كاركاسون في عام ١٢٨٤ . ولكن الرجل كان معروفاً بورعه وتقواه مما حدا بالبابا كليمنت الخامس إلى تبرئته . ولم يهدأ بال المحققين حتى أنزلوا العقاب بهذا الرجل الطاعن في السن بمجرد أن سنحت لهم الفرصة ؛ ففي عام ١٣٢١ استدعاه المحقق برنارد جوي Bernard Gui من السجن لمحاكمته واستخدم معه الرأفة بأن نفاه مدى الحياة في الأراضي الفرنسية متجاهلاً تبرئة البابا له . وفي حادثة أخرى حاول البابا كليمنت الخامس أن يعهد إلى أساقفة تولوز وناربون بمحاكمة اليهود بدلا من أن يقوم المحققون بهذه المهمة . ولكن هذه السلطة التي سحبها البابا من المحققين لصالح الأساقفة ما لبثت أن عادت إلى محاكم التفتيش بعد وفاة كليمنت الخامس .

وقد نجم عن هذا الصراع بين دعاة الإصلاح ومحاكم التفتيش أن مجمع قينيا اتخذ عددا من التدابير الإصلاحية عام ١٣١٢ بناء على أوامر من البابا كليمنت الخامس . وأصدر مجمع قينيا مجموعة من المبادئ الإصلاحية تعرف بقوانين كمينت التي كانت جاهزة للعرض على هذا البابا لمراجعتها ، غير أن المنية لم تمهله ، فقد توفي في ٢٠ أبريل عام ١٣١٤ . وعلقت هذه القوانين ولم يعمل بها في الفترة التي أعقبت وفاته . وبهذا تأخر صدورها حتى ٢٥ أكتوبر ١٣١٧ في عهد البابا يوحنا

الثانى والعشرين . وتقضى هذه القوانين الجديدة بتحديد سلطة المحقق وإلزامه بالتشاور مع السلطات الدينية المحلية فى حالات تعذيب المتهمين أو الزج بهم فى سجون بالغة القسوة ، لى جانب التهديد بفرض الحظر الكنسى على من تسول له نفسه انتهاك القوانين . وعلى الرغم من أن هذه العقوبات البابوية لم تطبق على أرض الواقع فإن استئانها دليل واضح على إقرار الكنيسة بمخالفات محاكم التفتيش . وعندما مات البابا كليمنت الخامس فى ٢٠ أبريل ١٣١١ فى كاربرنتراس تحمل وزر تدمير المهترطين المعروفين باسم فرسان هيكل سليمان . واحتدم النزاع حول انتخاب البابا الجديد ، فالإيطاليون يحبذون إجراءها فى روما المقر التقليدى للكرسى البابوى والفرنسيون ، الجاسكون يصرون على ضرورة إجرائها فى نفس الموقع الذى فاضت فيه روح البابا السابق أى فى القصر البابوى فى كاريتيراس . ثم أقدم الفريق الجاسكونى فى ٢٢ يوليو ١٣١٤ بزعمائه أبناء عمومة البابا المتوفى كليمنت على حرق القصر البابوى فى كارينتراس وهددوا بالفتك بالرهبان الطليان الذين خافوا على حياتهم ولاذوا بالفرار . وانقضى عامان دون انتخاب خلف للبابا المتوفى ، وراود البلاط الفرنسى أمل فى أن يكون البابا المنتخب فرنسيا . ومرت قرابة ستة أشهر دون انتخاب بابا يخلف كليمنت الخامس فأمر الملك فيليب بعقد اجتماع لانتخاب بابا جديد فى دير الرهبان الدومينكان ، وحتى يجبرهم على الانتهاء من هذه المهمة حاصرت قواته المجتمعين . وبعد انقضاء أربعين يوما على هذا الحصار المضروب استقر رأيهم على انتخاب جاك دوزو Jacques d'zo كاردينال بورتو رئيسا للكنيسة الكاثوليكية ، وانتخاب بابا جديد هو يوحنا الثانى والعشرون (١٣١٦ - ١٣٣٤) . انتهت متاعب محاكم التفتيش فى لانجويدوك واطمأن المحققون إلى أن أحدا لن يجرؤ على تحديهم أو إنكار سلطتهم ؛ الأمر الذى ساعدهم على الانقضاخ على الإصلاحيين المناوئين لهم . وكان برنارد ديلسييه أول ضحية لهم . وواجه البابا الجديد المنتخب مشكلة العمل على رأب الصدع الناجم عن هذه الانقسامات والصراعات المحتدمة ، فاستدعى رهبان بيزيه وناربون للمثول أمامه فتجراً الراهب برنارد كعادته لمناشدة البابا وضع حد لمظالم محاكم التفتيش ، فاتهمه هذا البابا بتعطيل عمل هذه المحاكم وتم إلقاء القبض عليه على الفور إلى جانب توجيه اتهامات أخرى إليه مثل استخدام السحر

فى إماتة البابا بنديكت الحادى عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) والتأمر مع أهل كاركاسون ضد المحققين . ولهذا زجت محاكم التفتيش ببرنارد ديلسييه فى السجن لأكثر من عامين تعرض فيها للمضايقات والاستجواب . وفى ٣ سبتمبر ١٣١٩ تم تقديمه إلى المحاكمة فى كاستيلودادى وتشكلت المحكمة من رئيس أساقفة تولوز وأسقف باميير وسانت بابل. غير أن رئيس أساقفة تولوز اعتذر فجأة عن عدم الحضور تاركاً المحاكمة فى أيدي زملائه الذين قاموا بنقل المحكمة إلى كاركاسون فى ١٢ سبتمبر ١٣١٩ . وليس أدل على أهمية المحاكمة من أن ممثل الملك نفسه الذى شغل وظيفة المندوب الملكى المسئول فى كاركاسون وتولوز كان حاضراً إلى جانب آخر من أبرز رموز الكنيسة .

وتحفظ لنا السجلات والوثائق أدق التفاصيل الخاصة بمحاكمة برنارد ، ومثل أمام المحاكمة نفسها شركاء برنارد أمثال أرنود جارسيا Arnoud Garsia وجويلم فرانزا Guillem Freansa وبيير بروبي Pierre Probi وآخرين ممن استخدمتهم المحكمة « شاهد ملك » هذه . وتعرض برنارد الطاعن فى السن الذى أنهكه السجن لمدة عامين إلى تكرار استجوابه للتحقيق الدقيق لمدة شهرين بشأن أحداث جرت له خلال فترة امتدت من اثنى عشر إلى ثمانية عشرة عاماً واختلطت ببعضها البعض بحيث يصعب تذكرها على النحو الصحيح . ووجهت إليه المحكمة تحذيراً بأنه أصبح مطروداً من الكنيسة بسبب عرقلة لسير محاكم التفتيش وأنه لا سبيل أمامه للنجاة من الحرق على الخشبة إلا بالاعتراف الكامل والخضوع التام . وقام المحققون بتعذيبه مرتين فعذبه فى المرة الأولى فى ٢ أكتوبر من العام المشار إليه أنفاً بتهمة الخيانة ثم تكرر تعذيبه يوم ٢٠ نوفمبر من نفس العام بتهمة الاشتغال بالسحر الأسود . ورغم أن السجلات ادعت أن تعذيبه كان مخففاً فإن الكتب سجلوا صرخاته الزاعقة من جراء التعذيب الذى فشل فى حمله على الاعتراف بذنبه وإن كان قد أفلح فى تدميره نفسياً وجعله فى نهاية الأمر يرتضى أمام المحققين طالباً منهم أن يرحموه ويعفوا عنه .

ويقضى الحكم الصادر عليه فى ٨ ديسمبر بتبرئته من تهمة محاولة قتل البابا بندكت الحادى عشر . ولكن التهم الأخرى ازدادت سوءاً حيث إنه اتهم بالإدلاء بما لا يقل عن سبعين شهادة زور فى أثناء استجوابه . وبعد أن نبذ برنارد أفكاره برأت

المحكمة ساحته وتم نزع ملابس الكهنوت عنه كما حكم عليه بالسجن المؤبد وأن يعيش على الخبز والماء وحدهما وهو قابع فى سجن محكمة تفتيش .

ورغم ذلك فقد احتج شائنوه لدى البابا على ما اعتبروه حكما مخففا . غير أن عددا من المسئولين الدينيين رأوا أنه حكم غليظ حيث إن برنارد ديلسييه الطاعن فى السن أصبح واضح الهزال نتيجة ما لقيه من تعذيب وتكبييل بالأغلال والعيش على الخبز والماء . ومع ذلك فقد رفض البابا معاملته بالرفقة . ومن سوء حظه أنه وقع فى يد واحد من ألد أعدائه هو المحقق جين دى بون Jean de Baune . وقد وضع موته نهاية لبؤسه وشقائه .

وبتولى البابا يوحنا الثانى والعشرين الكرسي البابوى تعاظم سلطان الرهبان الدومينكان رغم أنه نشر قوانين سلفه كليمنت الخامس الهادفة إلى كبح جماح محاكم التفتيش ، وفى ٣٠ مارس ١٣١٨ تراجع عن توفير الأمان والحماية للمتمرد أيمرك كاستيل وبقية الشاكين من تجاوزات ومظالم محاكم التفتيش فى كل من كاركاسون وألبى وكورديس ، وأخذ المحققون ينقبون دون كلل أو ملل عن كل المعترضين على محاكم التفتيش لينزلوا بهم أشد العقاب وليردعوا المدن التى شقت عصا الطاعة عليهم . وفى ١١ مارس ١٣١٩ عقد المسئولون عن محاكم التفتيش اجتماعا حاشدا فى كنيسة الجبانة لمساءلة المنشقين عليها وحملهم على إعلان ندمهم وتوبتهم على الآثام التى اقترفوها فى حق الكنيسة الكاثوليكية وكذلك رضائهم عن أى عقاب يفرض عليهم . أما الذين تخلفوا عن إعلان توبتهم فقد أعطوا مهلة للاستغفار ، وعوقب الأهالى على عصيانهم للكنيسة وصدرت إليهم الأوامر ببناء كنيسة صغيرة ملحقة بالكاتدرائية فى غضون عامين وكذلك إقامة بوابة كنيسة الدومينكان وإعطاء خمسين جنيها تبرعاً لكنيسة الرهبان الكراملة ثم بناء مقابر مصنوعة من الرخام كى تضم رفات كل من المحققين الراهب نيكولاس وأبرفيل وفولكس دى سانت جورج فى مدينتى ليون وكاركاسون ، الذين لحق الأذى بهم نتيجة تمرد الأهالى عليهم . وأيضا شمل العقاب جميع القناصلة الذين اتخذوا مواقف عدائية ضد محاكم التفتيش فى الفترة

من عام ١٣٠٢ حتى عام ١٣٠٤ . وأيضا وقعت محاكم التفتيش - التي خرجت في هذا الصراع ظافرة منتصرة - العقاب على مدينة كورديس قبل أن تتصالح معها . وليس هناك دليل على أن المهرطقين الذين قبضت عليهم محاكم التفتيش في ألبى عام ١٢٩٩ كانوا بالفعل من المارقين . وتحت وطأة التعذيب استطاعت هذه المحاكم أن تنتزع من كثير من الأبرياء اعترافا بهرطقتهم . وقد أصر لامبرت دى فويسيه Lam- bert de Foyseux على عدم التراجع عن أفكاره الدينية المارقة فتم حرقه في ١٣٠٩ في حين انهار معظم السجناء أمام التعذيب .

كان المحقق البارز في محاكم التفتيش برنارد جوى على حق حين شكّا من أن القيود التي فرضها الملك فيليب على هذه المحاكمة شجعت على انتشار الهرطقة في لانجويدوك . ورغم ذلك فبحلول عام ١٣٠٤ أكد الراهب الدومينكانى جويلم بيير أن لانجويدوك تطهرت من المهرطقين وأن عددهم في ألبى وكاركاسون وكودس لايزيد عن أربعين مهرطقا أو خمسين . ويبدو أن هذه الأرقام غير مؤكدة ، فقد دأب المحقق برنارد جوى على الزهو بأن محاكم التفتيش استطاعت في الفترة من ١٣٠١ إلى ١٣١٥ أن تكتشف ألف مهرطق اعترفوا بمروقهم وتم توقيع العقوبة عليهم .

وتشير السجلات التي احتفظ بها المحقق جيوفروا دابليس في كاركاسون إلى كثرة عدد المهرطقين الذين مثّلوا أمام محكمة التفتيش في كاركاسون في الفترة من ١٣٠٨ حتى ١٣٠٩ . ويؤكد أحد الشهود في محاكمة برنارد ديلسييه كثرة عدد المهرطقين الذين اكتشفتهم محاكم التفتيش . وفي الوقت نفسه تقريبا بدأ ليمبورده Limborch في نشر الأحكام التي أصدرتها محاكم تفتيش تولوز . والجدير بالذكر أنه تم تعيين المحقق برنارد جوى في محكمة تفتيش تولوز عام ١٣٠٦ . وجوى من أبرز المحققين الذين عرفتهم محاكم التفتيش عبر التاريخ ، وهو رجل مشهود له بالعلم الغزير والكفاءة النادرة . وقد اعترف البابا يوحنا الثاني عشر بفضل وأياديه البيضاء على الكنيسة الكاثوليكية ، ويرجع الفضل إليه في اقتلاع جذور الهرطقة الكاثارية من لانجويدوك عندما كان يعمل محققا في محكمة تفتيش تولوز . ورغم نجاح محاكم التفتيش في القضاء على النبلاء المهرطقين والمؤمنين بالكاثارية ، فإن هذه الهرطقة

ظلت تضرب بجذورها الراسخة بين الريفين البسطاء الذين يعيشون فى الوديان والوهاد وسفوح جبال البيرنيز .

وكان بيير أوتيه Pierre Autier الكاتب السابق لمدينة باكس (باميه) من أبرز الذين انخرطوا فى الهرطقة الكاثارية . وكان هذا الرجل ذا ثراء واسع وعريض ، فهو يملك الضياع الواقعة فى سفح جبال البيرنيز الوعرة حيث الكهوف الكثيرة والمخابئ العديدة والدروب القليلة شديدة الوعورة ؛ الأمر الذى سهل على المارقين والمهرطقين مهمة الهروب إلى حدود إقليم أراجون . أصبح أوتيه بعد حياة شهوانية قضاها فى المتع والملذات من أكثر الناس تقشفا وزهدا فى الحياة ، والتف حول هذا المهرطق المريدون والأتباع لدرجة أفزعت محاكم التفتيش وجعلتها تجد فى طلبه وتسعى حثيثا للقبض عليه . وعرض رجل غادر يدعى جويلم جين على الرهبان الدومينكان الإيقاع بهذا الرجل وتسليمه إليهم . وبالفعل استطاع بعض الخونة الإمساك به فى جنح الظلام وكمماه ثم حملاه إلى الجبال حيث ألقوا به فى هوة بعد انتزاع اعتراف منه بأنه مذنّب .

وتلخصت مهمة محقق كاركاسون جيوفروا دابليس أساسا فى تحديد الأشخاص الذين وفروا الحماية والملاجئ الآمن للمهرطق بيير أوتيه . وكذلك بذل محقق تولوز جهدا نشيطا مماثلا لتحقيق الغرض نفسه مما دفع هذا المهرطق لتغيير الأماكن التى يختبئ فيها . وبسبب التفاف المريدين حوله عجزت محاكم التفتيش عن الإمساك به ، مما دفع المحقق برنارد جوف فى ١٠ أغسطس ١٣٠٩ إلى إصدار بيان خاص يحث فيه الكاثوليك المؤمنين على إلقاء القبض عليه وعلى شريكه فى الهرطقة بيير سانش Pierre Sanche وسانش ميرساديه Sanche Mercadie حتى يكسبوا رضا الله عليهم . وفى الواقع لم يكن هناك أى داع لإذاعة إصدار مثل هذا البيان على العالمين لأن المهرطق أوتيه كان قد تم إلقاء القبض عليه وعلى معظم أفراد عائلته وأصدقائه فى الفترة من ١٣٠٨ إلى ١٣٠٩ . وكذلك أُلقت محاكم التفتيش القبض على مريده الوفى بيرين موريل Perrin Maurel الذى ظل ينكر هرطقة معلمه أوتيه حتى نصحه هذا الأخير فى سجنه بالاعتراف .

وتبع ذلك القبض على مهرطق آخر اسمه أمييل دي بيرليس Amiel de Perles الذى أحرق على الخشبة يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٩ أى قبل إحراق شيخ المهرطقين بيير أوتيه فى أبريل ١٣١٠ ، وذلك حين جاء المحقق جيوفروا دابليس من كاركاسون ليشارك زملاءه فرحة الانتصار على الهرطقة . واستقبل بيير أوتيه مصيره برباطة جأش ولم يخف أفكاره المارقة ، فقد وصف كنيسة روما بأنها مجمع إبليس . ويبدو أنه تعرض للتعذيب لإجباره على الكشف عن رفاقه ومريديه الذين وفروا له ملاذاً آمناً فى فترة هروبه . ونظراً إلى امتلاك بيير أوتيه قدراً هائلاً من المعلومات عن نشاط زملائه المهرطقين فقد اعتبره المحقق برنارد جوى صيداً ثميناً .

وهكذا تم القضاء على الهرطقة الكاثارية ونجح المحققان برنارد جوى وجيوفروا دابليس فى غضون سنوات قليلة فى القبض على أتباع المهرطق بيير أوتيه ومريديه وإحراق البعض منهم . ويمكن القول إن فرنسا بعد عام ١٣١٥ لم تشهد مهرطقاً عملاقاً فى مكانة أوتيه ، ولكن هذا لم يمنع من ظهور بعض التوابع كما نستدل على ذلك من بعض الأحكام الواردة فى سجلات عامى ١٣٢٧ و ١٣٢٨ حيث نرى محقق كاركاسون جين دوبرات Jean Duprat يدين هرطقة جويليما تورنيير Guillemma Torniere التى أحرقت بسبب تشبثها بمعتقداتها المارقة . وأيضاً من بين التوابع أو الذيل المشار إليها أن المحقق هنرى دي شاماي حكم فى كاركاسون بالسجن على مهرطق كاثارى اسمه جويلم أمييل Gullem Amiel كما أنه حكم بالسجن عام ١٣٢٩ على اثنين من الكاثاريين هما بارتولومى بايز Bartolome pays وريموند جاريك Raymond Garric وفى العام نفسه (١٣٢٩) أمر هذا المحقق بهدم أربعة منازل ومزرعة لأن أصحابها تحولوا إلى الهرطقة أثناء معيشتهم فيها ، فضلاً عن استمرار المحققين فى اتباع سياسة مصادرة ممتلكات المهرطقين . ويمكن القول إن لانجويديك آنذاك أصبحت خالية من الهرطقة بعد أن بلغت ذروتها قبل ذلك بمائة وخمسين سنة ، وبلغت من الضراوة والعنف مبلغاً كاد أن يقطع المذهب الكاثوليكي من جذوره .

وفى عام ١٣٢٩ تمثلت بعض الهرطقات الكاثارية فى أفكار أشد ما تكون غرابة كترك التي عبر عنها رجل دين يدعى ليموكس نوار Limoux Noir فى أسقفية أليت، والذي سبق لرئيسه الأسقف أن حاكمه عليها فى عام ١٣٢٦ . ولكن هذا الأسقف فشل فى أن يأخذ منه حقا أو باطلا، فقد عجز عن إثبات اقترافه لآى جرم أو خروج عن صحيح الدين . ولكن محاكم التفتيش نجحت بأساليبها الناجعة فى التعذيب فى حملته على الاعتراف بذنبه . اعترف بإيمانه بمذهب فلسفى كونه يحل محل جميع الديانات ، ومفاد هذا المذهب أن الله خلق رؤساء الملائكة الذين خلقوا بدورهم الملائكة التى خلقت بدورها الشمس والقمر وهما فى رأيه جرمان سماويان أنثويان بسبب فسادهما وعدم استقرارهما . ومن بول هذين الكوكبين تكون هذا العالم الفاسد وسائر المخلوقات التى تتحرك على سطحه . ولهذا قامت الشمس بإرسال موسى ومحمد والمسيح كى يعلموا البشر وهم جميعا على قدم المساواة ، وفى العالم السفلى احتدم النزاع بين المسيح ومحمد فى سعيهما وتنافسهما على اجتذاب الأتباع . وفى رأى هذا المهرطق أن المعمودية عديمة الجدوى لأن الذين يتعمدون يصيرون لصوصا ومومسات عندما يكبرون . فضلا عن أنه يعتبر الأيوخارست (تحول الخمر والقربان إلى دم المسيح وجسده) ضربا من الوهم لا طائل منه ، لأن الله يرفض أن يتعامل مع زناة وخطاة مثل القساوسة . ويجب على الإنسان الإقلاع عن الزواج لأنه يثمر قطاع طرق ومومسات . وظل المهرطق ليموكس نوار سادرا فى غيه لم يرعو أو يهتد إلا حين نصحه أخوه بأن يأخذ المناولة حتى لا تنبش محاكم التفتيش قبره وتحرق عظامه . وعلى أية حال لم يجد هذا المذهب الغريب أية استجابة تذكر وأمكن سحقه منذ البداية . ومن تحديه للمحقق قال هذا المهرطق إنه يفضل أن يسليخ حيا على أن يؤمن بالأيوخارست . ولا غرو إذا حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت . ويموته ماتت فلسفته الغريبة .

ومع الانتصار الساحق الذى حققته محاكم التفتيش على جنوب فرنسا وشن الحروب الصليبية التى لا تنتهى فقد هذا الجنوب انتعاشه الاقتصادى بعد أن كان يتفوق على كل أوروبا فى مضممار التقدم والتحضر وفى الفنون والعلوم والرخاء فى القرن الثانى عشر . وفى فترة ازدهار الجنوب الفرنسى أصبحت مدنه تحكم نفسها بنفسها وتحرص على توفير الحرية لمواطنيها ، كما انشغل النبلاء بالفنون والآداب وقرض الشعر موفرين لمواطنيهم الرفاهية وقدرًا عظيمًا من الحرية . ولكن بمجىء الحروب الصليبية التى شنتها محاكم التفتيش انهارت الصناعة والتجارة وعاش الناس فى فاقة . وصودرت أموال النبلاء والحكام وحل محلهم حكام أغراب بين البلاد يحكمون بالحديد والنار ويعملون على ترسيخ النظام الإقطاعى المتخلف الذى كان يسود شمال أوروبا ويجعلها تعيش فى ظلام حضارى دامس . وبدلاً من أن تؤدي حضارة الشمال الأوروبى إلى بزوغ عصر من النهضة أصبح الأمل معقوداً على إيطاليا فى الجنوب فى بزوغ هذه الحضارة .

ورغم ما أحرزته محاكم التفتيش من نصر ساحق على المهرطقين فإنها كانت تحمل فى أحشائها بذور انهيارها كما يدل على ذلك ذبوع وانتشار النهضة الإيطالية فى جميع أرجاء القارة الأوروبية .

الفصل الرابع

فرنسا

عندما نتحدث عن فرنسا فى ذلك الزمان فنحن نعنى المناطق الشمالية منها حيث كان الجنوب الفرنسى المتمثل فى أوكيتانيا مستقلاً عن الشمال ، ورغم أن الهرطقة الكاثارية لم تهدد الكنيسة الكاثوليكية فى الشمال كما هددتها فى الجنوب، فإن الحروب الصليبية التى شنتها الكنيسة على الجنوب والتى انتهت فى عام ١٢٢٩ بنوع من التهدئة والتصالح دفعت الكثير من المهراطيين إلى الفرار للشمال طلباً للأمان . وبسبب تراخى كثير من رجال الكنيسة وتقاعسهم أصبح لزاماً على المحققين فى محاكم التفتيش أن ينشطوا فى البحث عن المهراطيين الفارين فى كل مكان واللاحق بهم فى مخابئهم . وكان ملك فرنسا لويس التاسع أشد ما يكون حرصاً على تطهير بلاده من المهراطيين ؛ فقد كان يرى أن أفضل سبيل إلى التعامل مع المهراطيين هو إغمار السيوف فى قلوبهم . وبينما كان الجنوب فى عام ١٢٢٢ يعين فى محاكم تفتيش تولوز محققين أشداء وأكفاء أمثال بيير سيلا وجويلم أرنود، بذل الشمال الفرنسى جهداً مضنياً ليفعل الشئ نفسه . وبطبيعة الحال لم يجد الشمال الفرنسى أكثر غلوا وتعصباً وتطرفاً فى الدين من طائفة الرهبان الدومينكان . وحاول الشمال أن يسند إلى رهبان فرنش كوميته Frenche - Comte مهمة مطاردة المهراطيين ولكنهم رفضوا الاضطلاع بهذه المهمة . وعلى أية حال أصابت كنيسة الشمال فى غرب إقليم بورجندي نجاحاً ملحوظاً عندما عثرت على رهبان متطرفين أمثال رينيرى ساكون المعروف باسم البورجندي القدرة على اكتشاف المهراطيين المختبئين والتعرف عليهم

من مجرد مسلكهم وأسلوبهم فى الحديث . وفى أوائل عام ١٢٣٣ لم يجد الرئيس الدينى فى بيسانكون من يمثله فى مطاردة الهرطقة أفضل من روبرت الذى لم يضيع أى وقت بل سارع بمداهمة مركز مهم من مراكز الهرطقة فى القرن الثانى عشر باسم الشارتيه ، قاطعاً على نفسه عهداً بتطهير هذا المركز من شرها . غير أنه أخفق فى تحقيق هدفه بسبب عناد المهرطقين وتشبثهم بهرطقتهم ، كما أن المسئول الدينى فى بيسانكون صادف الفشل نفسه فى محاولة مدايتهم . ولكن فشل المحقق روبرت فى مهمته مالبث أن تحول إلى نشاط ناجح محموم بسبب فرط حيويته . ونتيجة لذلك جاءه الهرطقة من كل حذب وصوب ليعترفوا له بذنوبهم ويكيلوا الاتهامات إلى بعضهم البعض ، ورفع المحقق روبرت إلى البابا جريجورى التاسع تقريراً اعترف فيه بتردى الأوضاع مؤكداً أن المدينة بأسرها تفوح برائحة الهرطقة النتنة ، زاعماً أن المهرطقين تفننوا وبرعوا فى استخدام أساليب التمويه والخداع . فتلقى هذا المحقق تعليمات من البابا جريجورى التاسع بضرورة تعاونه مع الأساقفة واتباع القوانين البابوية الهادفة إلى استئصال الهرطقة عن طريق استخدام القسر إذا لزم الأمر والاستعانة بالسلطة المدنية . والأرجح أن تعصبه الدينى الأعمى جعله لا يميز بين المذنبين والأبرياء . ولم يمض وقت طويل حتى أعلن رئيس أساقفة سنس Sens فى منطقة شارتيه البابا جريجورى عن احتجاجه الشديد على كثرة تدخل هذا المحقق فى اختصاصاته إلى جانب تعبير كثير من الكرادلة عن انزعاجهم من غلواء طائفة الرهبان الدومينكان فى باريس وتطرفهم . وأكد الكرادلة أن روبرت يبالغ فى حجم الهرطقة كى يبرر تطرفه . واستجاب البابا لشكوى الكرادلة ضد المحقق روبرت بأن ألغى فى أوائل فبراير ١٢٣٤ التكاليف التى أسندها إليه . ولكن فى الوقت نفسه حث الكرادلة على المزيد من اليقظة ونصحهم بالتشاور مع الرهبان الدومينكان عند اتخاذ أية إجراءات ضد الهرطقة بسبب ما عرف عن هؤلاء الرهبان من التصدى للهرطقات وتفنيدها ، ولكن حماسة المحقق روبرت جعلته يمضى قدماً فى ملاحقة المهرطقين والعمل على إقامة محاكم تفتيش فى كل أرجاء فرنسا . ولحمائته من أذى المهرطقين وضع الملك لويس حرساً مسلحاً للذود عنه ، وجاب روبرت البلاد طولاً وعرضاً ينشر فيها الرعب والفرع ، وفى مدينة بيرون أحرق خمسة أشخاص ثم أحرق أربع ضحايا

فى مدينة هورانكورت ، ثم ذهب إلى كامبراي حيث ساعده رئيس أساقفة ريمز وثلاثة أساقفة على القضاء على نحو عشرين مهرطقاً بالإضافة إلى الزج بأخرين فى غياهب السجون ، ومن هناك توجه إلى ديواى حيث أحرق عشرة هراطقة آخرين ، وحكم على العديدين بالسجن وارتداء الصلبان للدلالة على التوبة فى حضرة كونت فلاتدرز ورئيس أساقفة ريمز وكثير من الأساقفة ، ثم عرج على مدينة ليل حيث حكم بإعدام الكثيرين . وكان هذا العدد الهائل من الاعترافات سبباً فى إقناع البابا جريجورى بأنهم لم يتحروا الدقة عندما أخبروه أن المنطقة خالية من الهراطقة ؛ ولهذا نرى البابا فى أغسطس ١٢٣٥ يعلن أمام المسئول الدومينكانى أن جميع أرجاء فرنسا تعج بالأفاعى المهرطقة . ومن هذا المنطلق أصدر الكرسي البابوى مجدداً تعليمات إلى الراهب روبرت بالتجوال فى ربوع فرنسا مع فريق من معاونيه للتصدي للهراطقة ، وأمر البابا رئيس أساقفة سنس أن يقدم إلى المحقق روبرت كل ما يستطيع من عون ، وأيضاً عينه الكرسي البابوى على رأس لجنة خاصة حاثاً إياه على التضحية بروحه فى سبيل تطهير البلاد من المارقين .

وألهمت تعليمات البابا حماس روبرت الذى بدا وكأن مسا من الجنون قد أصابه، كما أن الملك لويس أمر الكرادلة بتقديم كل ما يحتاج إليه من مساعدة . ويقال إنه فى فترة لا تتجاوز شهرين أو ثلاثة قضى على نحو خمسين مهرطقاً من الذكور والإناث؛ الأمر الذى جعل فرائص الناس ترتعد بمجرد سماع اسمه ، كما جعلهم يضجون بالشكوى لدرجة أنه لم يكن بمقدور البابا أن يصم أذانه فاضطر فى عام ١٢٣٨ إلى إجراء تحريات أثبتت تعسف روبرت وطغيانه . ولكنه استطاع قبل أن يكبح الكرسي البابوى جماحه أن يحرق فى عام ١٢٣٩ عدداً كبيراً من المهرطقين فى مونتوريكون ، ويقال إنه أحرق مائة وثلاثة وثمانين مهرطقاً فى مونت وايمر معقل الهراطقة الكاثارية فى القرن الحادى عشر فى حضرة ملك نافار وحشد من الكرادلة والنبلاء وجمهور غفير من الشعب يقدر عدده بسبعمائة ألف شخص . وأمام الفظائع التى ارتكبها روبرت قام البابا بتجريدته من السلطات الاستثنائية التى سبق أن منحها له ، فضلاً عن أنه زج به فى سجن دائم .

ورغم اختفاء روبرت عن مسرح الأحداث فقد ظل الاضطهاد مستمراً في فرنسا بزعم أنها لم تنطهر من الهراطقة ، واستمر هذا الاضطهاد عنيفاً ومستمراً لمدة ما يقرب من أربعة أعوام بزعامة الرهبان الدومينكان . وشجع على استمرار محاكم التفتيش الفرنسية في عملها أن لويس ملك فرنسا تولى الإنفاق عليها ، وتسجل سجلات الخاصة الملكية لعام ١٢٤٨ المبالغ التي أنفقت على محاكم التفتيش في باريس وأورليانز وإيسودون وستلنيس وأمنيز وتورنو ويفرلى شاتبل وبومنت وسانت كوينتين ولاون وماكون . ولم يهدأ عنفوان محاكم التفتيش إلا في عام ١٢٦٦ عندما احتدم الصراع بين طائفتي الرهبان المتنافسين الدومينكان والفرنسيسكان ، غير أن معظم الأراضي الفرنسية كانت في قبضة الدومينكان . ويدل المرسوم الذي أصدره البابا أنوسنت الرابع عام ١٢٥٣ على أن المسئول الديني المحلي في باريس يبسط سلطانه الديني على كل المملكة بما في ذلك أراضي ألفونس تولوز ؛ فقد نص المرسوم البابوي على أن تبسط محاكم التفتيش نفوذها على جميع أركان المملكة وأن تعمل بأكبر قدر من الكفاءة .

والجدير بالذكر أن وضع محاكم التفتيش في لانجويدوك في الجنوب تأرجح بين الاستقلال عن فرنسا والتبعية لها ، ففي عام ١٢٥٥ كانت تتمتع بالاستقلال عن باريس في حين أنها كانت في عام ١٢٥٧ تابعة لها ، ثم عادت في عام ١٢٦١ إلى سابق استقلالها كي تصبح عام ١٢٦٤ تابعة للمسنول الديني في باريس . في عام ١٢٥٥ تقاسم الرهبان الفرنسيون والادومينكان السلطة على محاكم التفتيش في باريس . ولكن بحلول عام ١٢٥٦ استعاد الرهبان الدومينكان كامل سيطرتهم عليها . وبمضي الوقت استكملت محاكم التفتيش هيكلها الوظيفي ، ورغم اندثار الوثائق التي تسجل نشاط محاكم التفتيش في فرنسا فإن التاريخ يحتفظ لنا ببعض السجلات التي أصدرها المحقق سيمون ديفال Simon Duval في عامي ١٢٧٧ و ١٢٧٨ .

دأب المحققون في محاكم تفتيش فرنسا على الشكوى من النص القانوني الذي يعطي المجرمين والأثمين حق الاستمتاع بملاذ آمن في الأماكن المقدسة . فالقانون يحظر القبض على أي شخص داخل الكنيسة أو الدير ، كما أن القانون العام نص

على فرض الحظر الكنسى على كل من تسول له نفسه انتهاك الملاذ الآمن وإنزال العقاب به ؛ ولهذا كان من الطبيعى أن يلجأ بعض المهرطقين إلى أماكن العبادة كملاذات آمنة . وبسبب شكوى المحققين من استغلال الملاذ الآمن أصدر البابا مارتن الرابع فى عام ١٢٨١ مرسوماً ينص على عدم السماح للمهرطقين باستغلال حق اللجوء إلى الأماكن المقدسة ، وقد أشار هذا المرسوم البابوى بوجه خاص إلى اليهود الذى اعتنقوا المسيحية ثم ارتدوا عنها ، وقد تم حرق واستتابة الكثير من هؤلاء اليهود المرتدين فى الفترة من ١٢٠٧ حتى ١٣١٠ .

وأيضاً أصبح الواجب يقتضى من محاكم التفتيش محاسبة الذين صدر ضدهم حظر كنسى لمدة عام دون حصولهم على غفران الكنيسة لخطاياهم؛ لأن مثل هؤلاء الناس مهرطقون فى نظر القانون . وقد رأينا البابا بونيفاس الثامن فى عام ١٢٩٧ يصدر تعليماته إلى محققى محاكم تفتيش كاركاسون لاتخاذ الإجراءات القانونية ضد بعض أهالى مدينة بيزييه لهذا السبب . والجدير بالذكر أن مجلس ريمز أوصى بضرورة البدء فى اتخاذ الإجراءات ضد الذين فرض عليهم الحظر الكنسى لمدة عامين دون أن يحاولوا فى أثنائهما الحصول على مغفرة الكنيسة ، حيث إن شبهة الهرطقة تحوم حولهم . وفى عام ١٣٠٣ عقد الأساقفة محكمة للنظر فى مثل هذه الحالات بمعزل عن المحققين الذين كانوا فى كثير من الأحيان على علاقة سيئة برجال الدين العاديين .

ونحن نسمع فى عام ١٣٠٨ عن شخص يدعى أيتين دى فيربيرى سواسون Etienne de Verberie Soissons اتهمته محاكم التفتيش بالتجديف على جسد المسيح ، وعلل الرجل تجديفه بأنه كان مخموراً ومن ثم استخدمت محكمة التفتيش الرأفة معه ، وبعد مضى وقت قصير صدر فى باريس فى يوم ٢١ مايو ١٣١٠ أول عمل إيمانى (حكم بالإعدام) ضد امرأة مهرطقة تدعى مرجريت دى هاينولت Marguerite de Hainoult بسبب انتمائها إلى طائفة مهرطقة تعرف باسم الروح الحرة (راجع كتابى «الهرطقة فى الغرب») . نادت هذه المرأة بأن الروح التى يغمرها الحب الإلهى لا تتدنس حتى إذا كانت غارقة لأذنيها فى الخطيئة ، وعبرت هذه المرأة عن

رأيها فى كتاب أدانه جوى الثانى أسقف كامبراي قبل عام ١٢٠٥ ، وكان هذا الأسقف رحيماً بها فاكتفى بحرق الكتاب وتحذيرها من تداوله ؛ ولكنها لم ترعو فقدمها فيليب دى مارجينى محقق اللورين الذى خلف جوى الثانى إلى المحاكمة فيما بعد بتهمة الترويج لمذهبها بين البسطاء ولكنها تمكنت من الهرب . وتجاسرت هذه المرأة فقدمت نسخة من كتابها إلى جين أسقف شالون وذاعت أفكارها المهرطقة حتى وصلت إلى باريس ، ولكن الأمر انتهى بوقوعها فى أيدي جويلم محقق محكمة تفتيش باريس فرفضت القسم أمامه فألقى بها فى السجن بعد فرض الحظر الكنسى عليها . وقام المحقق بكتابة بيان وتقديمه إلى فقهاء القانون فى الجامعة على غير ما جرت عليه العادة فى مثل هذه الأحوال ، وقرر الفقهاء بإجماع الآراء أن المرأة مهرطقة وينبغى تسليمها إلى الذراع العلمانى لتنفيذ حكم الإعدام فيها ؛ فتم إحراقها فى اليوم التالى أمام حشد من النظارة ذرفوا الدموع سخينة عليها بسبب وفائها النادر لمبادئها . وكان كاتب الأسقفية واحداً من المعجبين بهذه المرأة ، وسعى هذا المريد واسمه جيون إلى إقناع المحكمة بتبرئتها فتم القبض عليه وحبسه . واقتدى التلميذ بمعلمته فرفض القسم قبل التحقيق معه ، ويبدو أن عقله اختل فى فترة حبسه التى امتدت إلى ثمانية عشر شهراً فقد ادعى أنه مبعوث العناية الإلهية التى أرسلته لخلاص العالم ، فلم يجد المحقق مفراً من إدانته وحكم عليه بالسجن المؤبد .

وهناك حالة مهرطقة أخرى حدثت عام ١٢٢٨ فى باريس بطلها مهرطق اسمه سبور دى بارتينياى تدل على مدى سلطة محاكم التفتيش فى فرنسا ، فقد اتهم محقق فى محكمة تفتيش باريس الراهب موريس واحداً من نبلاء بواتو بالمهرطقة فأمر الملك بالزج به فى السجن ومصادرة جميع ضياعه وممتلكاته . وكان هذا المهرطق بارتينياى من أصحاب السطوة والنفوذ وله أصدقاء أقوياء عديدون من بينهم أسقف نوايو الذى عمل جاهداً لتبرئته . ونظراً لما تمتع به هذا المهرطق الثرى من نفوذ أبلغ البابا أن السبب الحقيقى فى اتهامه بالمهرطقة هو كراهية الراهب موريس له ؛ فتم إرساله إلى أفنيون حيث نجح فى جعل البابا يوحنا الثانى والعشرين يشرك بعض الأساقفة مع المحقق موريس فى التحقيق معه ، وأخيراً استطاع هذا النبيل عن طريق ثروته العريضة أن يحصل على أمر بإطلاق سراحه .

وفى ١٦ يناير ١٣٢٩ أصدر هنرى دى شاماي عملاً إيمانياً فى باميه حكم فيه على سبعة متهمين بالهرطقة بالسجن مدى الحياة ، وتقديم ستة من المهرطقين الأموات إلى المحاكمة . وفى ١٩ ديسمبر من العام نفسه عقد هنرى دى شاماي محاكمة للمهرطقين فى ناربون ثم عقد محاكمة أخرى فى بامير يوم ٧ يناير ١٣٢٩ وأخرى فى العام نفسه يوم ١٩ مايو فى بيزيه وثالثة فى ٦ سبتمبر فى كاركاسون حيث حكم على ستة مهرطقين بالحرق وواحد وعشرين بالسجن المؤبد .

وبعد وقت قصير قام بحرق ثلاثة مهرطقين فى ألبى إلى جانب محاكمات أخرى عقدها فى أماكن مختلفة الأمر الذى يدل على أن هذا المحقق كان شغلة من الحيوية والنشاط . ويبدو أن بعض المصادمات نشبت بين المحققين وموظفى الملك لأننا فى عام ١٣٢٤ نسمع عن شكوى المحققين إلى الملك فيليب دى فالوا الذى أمر موظفيه فى كل من نيميس وتولوز وكاركاسون بعدم تعطيل سير العمل فى محاكم التفتيش أو الاعتراض على امتيازاتها .

واستمر نشاط المحققين على أشده بعضاً من الوقت . ويخبرنا مسئول تولوز عام ١٣٣٧ أن المحقق بيير برونى Pierre Bruni بذل جهداً ملموساً فى محاكمة المهرطقين ، فقد أمر بمصادرة ضياع ثلاثين مهرطقاً كما أصدر عملاً إيمانياً يتضمن الحكم بالسجن على نحو اثنين وثمانين مهرطقاً . وصدرت أيضاً أعمال إيمانية مهمة أخرى فى أعوام ١٣٤٦ و ١٣٥٧ و ١٣٨٣ فى كاركاسون إلى جانب الأعمال الإيمانية الصادرة فى تولوز عام ١٣٧٤ . ثم أخذت قوة محاكم التفتيش تأفل وتضمحل فى الفترة من ١٣٥٠ حتى ١٣٦٣ حيث إننا لم نعد نسمع عن وجود محاكم تفتيش فى تلك الفترة فى الشمال . ولا شك أن الحروب التى اندلعت بين فرنسا وإنجلترا آنذاك عطلت سير محاكم تفتيش الشمال . وعلى أية حال تشير الدلائل إلى أن هذه المحاكم لم تكن خاملة بل استمرت فى مباشرة عملها بشكل أو بآخر . ويتضح لنا هذا من شكوى المسئول الدينى فى باريس إلى البابا كليمنت السادس عام ١٣٥١ من تقاعس هذه المحاكم فى أداء واجبها ؛ الأمر الذى دفع البابا إلى توسيع سلطات المحقق الراهب جويلوم شيفالييه وغيره من المحققين فى إقليمى تورين وماين .

وبانتهاء الحروب بين إنجلترا وفرنسا تعززت سلطة محاكم التفتيش . ورغم أن الطائفة المهرطقة المعروفة باسم الروح الحرة أو البيجاردين Begghards فقدت زعيمها المهرطقة مرجريت لابوريت فقد استمرت هذه الطائفة في نشر هرطقتها في الخفاء ؛ الأمر الذي أدى إلى انزعاج البابا إيربان الخامس الذي قام في سبتمبر ١٣٦٥ بتبليغ جميع الكرادلة والمحققين بضرورة التصدي لهرطقة هذه الطائفة ، كما أبلغ أسقف باريس ورجال الكنيسة والمحققين في جميع أرجاء فرنسا بطبيعة هذا المذهب والأماكن التي يتفشى فيها ، ونحن نعلم عن انصراف محقق مدينة بوجريه الراهب ماك دي مور إلى التصدي لهم عام ١٣٧٢ بغية اجتثاث جذورهم . وقد ذاعت الهرطقة البيجاردية على وجه الخصوص في ألمانيا ، وتسمى أتباع هذه الهرطقة باسم صحبة الفقراء . وكانوا في ألمانيا يرتدون زيًا خاصا بهم . وتشجيعاً لمحقق محكمة التفتيش في بوجريه على أداء مهمته أعطاه الملك شارل الخامس منحة قدرها خمسون فرنكاً ، كما أن البابا جريجوري الحادي عشر شكره على حماسه وتفانيه . وتمثل نشاط هذا المحقق في إحراق كتب المهرطقين وملابسهم في سوق الخنازير إلى جانب إحراقه عضواً بارزاً في هذه الطائفة المهرطقة هي جين دوبيينيتون ، أما شريكها في الهرطقة فقد نجا من الموت حرقاً حيث إنه توفي في السجن ، غير أن محكمة التفتيش احتفظت بجثته في مادة حافظة حتى تتمكن من إحراقه مع شريكته . وكما ذكرنا كانت هذه الهرطقة البيجاردية أكثر رسوخاً في ألمانيا منها في فرنسا . وزاد من ذبوع هذا المذهب وانتشاره أنه يبرر الاستغراق في شهوات الجسد ويضفي عليه سموً روحياً .

كما أنه ساعد على ذبوعه أن امرأة تدعى ماري فالنسيانس Mary Valenciannes ألقت كتاباً شرحت فيه أركان هذا المذهب . وفي مايو ١٤٢١ تمت إدانة خمسة وعشرين من أتباع هذا المذهب في مدينة دواي على يد أسقف أراس ؛ فتراجع عنه عشرون متهماً وحكم عليهم بالتوبة عن طريق حمل الصليب والنفي والسجن ، في حين أصر الخمسة الآخرون على هرطقتهم ولم يبالوا بإلقائهم في النار .

وفي عام ١٣٨١ وقع المهرطق هوج أوبريوت Hugues Aubriot في قبضة الراهب جاك دي مور Jacques de More ، واستطاع هذا المهرطق بحيويته أن يكسب ثقة

الملك شارل فأسند إليه مهمة دينية كبيرة فى باريس ، وكذلك استطاع هذا المهرطق بتصرفاته أن يحظى باحترام الجميع. ولكنه أثار عداوة جامعة باريس بسخريته منها ، ولكن الجامعة لم تستطع أن تنال منه فى حياة الملك شارل الخامس المؤيد له . غير أن الوضع تغير بعد وفاة هذا الملك ، وفى ٢٥ نوفمبر ١٣٨٠ اندلعت أعمال شغب ضد اليهود، وسطا الدهماء على منازلهم وقاموا بتعميد أبنائهم قسراً . ولكن أوبريوت أثار سخط الكنيسة الشديد عليه حين أعاد الأطفال اليهود إلى ذويهم ؛ ومن ثم قام الأسقف والمحقق باستدعائه للمثول أمامهما فى ٢١ يناير ١٣٨١ ، ولكنه رفض الامتثال لهذا الاستدعاء فطرده الكنيسة من حظيرتها ، وأعلن هذا الطرد فى جميع كنائس باريس ، واضطر هذا المنشق إلى المثول أمام المحقق فى ١٠ فبراير من العام آنف الذكر وألقى به فى السجن حين الانتهاء من محاكمته ، حيث وجهت إليه مجموعة من التهم التافهة باستثناء تهمتين كانتا على درجة كبيرة من الخطورة هما إعادة الأطفال اليهود الذين عمدوا بالقوة إلى ذويهم إلى جانب إطلاق سراح مهرطق زج به المحقق فى السجن . ويقال إن أحد أتباع أوبريوت تأخر عن الحضور عنه متعللاً بأنه ذهب إلى الكنيسة لرؤية الله المتجسد ، فرد عليه أوبريوت غاضباً : "يا سيد ألا تعرف أنى أملك سلطة أكبر على إيدائك من قدرة الله على مساعدتك" . وبناء على هذه الأقاويل حكمت عليه محكمة التفتيش بالموت حرقاً دون أن تعطيه فرصة نبذ هرطقته والرجوع عنها كما جرت العادة ، غير أن أمراء البلاد تدخلوا لدى محكمة التفتيش كي تمنحه حق التوبة . وفى يوم ١٧ مايو من العام المشار إليه صدر عمل إيمانى بشأنه ، وأقيمت سقالة أمام كاتدرائية نوتردام اعتلاها أوبريوت ليعترف بذنبه ويكفر عنه فعدلت المحكمة الحكم بحرقه واكتفت بسجنه سجنًا مؤبداً ومصادرة كل ثروته . وانتهاز شائنوه فى جامعة باريس هذه الفرصة لقرض الأشعار والأهازيج المستهزئة به، وتم نقله إلى زنزانه تحت الأرض بقى فيها حتى عام ١٣٨٢ . وبالنظر إلى شدة تعلق الشعب به فقد حطموا قضبان سجنه وأخرجوه وحملوه على أعناقهم واعتبروه زعيمهم، غير أنه انتهاز حلول الليل وتسلسل ليهرب إلى مسقط رأسه فى بورجندي حيث توقف نشاطه وطواه النسيان .

ونحن نسمع بعد ذلك القليل عن محاكم التفتيش رغم وجودها ، وفى عام ١٣٨٨ ظهر مهرطق وخطيب يدعى توماس أبوليا Thomas Apulia نادى بأن الحُب جوهر المسيحية ؛ فاجتذب إليه حشداً غفيراً من الناس . وقد أنكر هذا المهرطق أهمية القدايس والطقوس المسيحية وشفاعة القديسين . كما أنه ألف كتاباً هاجم فيه بشدة مفاصد الكراذلة والبابوات ورجال الكنيسة عموماً ، ورغم هذا الكفر الواضح فإن محاكم التفتيش لم تلعب دوراً فى إسكاته ، بل إن الذى تدخل طالباً منه الإقلاع عن هرطقته هو بروفست باريس المسئول الدينى فيها . وحتى عندما رفض هذا المهرطق الانصياع إلى البروفست تولى الأسقف والجامعة محاكمته وأمرأ بحرق كتابه ، وكادا أن يحرقا هذا الكافر لولا شهادة الأطباء بجنونه فاكتفيا بحبسه حبساً مؤبدًا . وإذا دلت هذه الحادثة على شىء فهي تدل على تهافت محاكم التفتيش فى فرنسا إيداناً بانهيائها . ويرجع انهيارها إلى عدة أسباب منها أن هذه المحاكم لم تعد تصب فى خزانة الملك فيضاً من المصادرات مثلما كانت تفعل فى الماضى ، فضلاً عن أن النظام الملكى الذى أسهمت محاكم التفتيش الفرنسية فى ترسيخه اشتد ساعده فلم يعد بحاجة إليها . وتدل حالة أبتيل دى لوتريه رئيس دير سيرين على أن سلطة ملك فرنسا فاقت بكثير سلطة المكتب المقدس، ففي عام ١٣٢٢ اتهمه المسئول الدينى فى تولوز لدى محاكم التفتيش بأنه يبشر بأن الروح فانية وأن بركة الله هى التى تمنحها الخلود . وبعد أن فحصت محاكم التفتيش هذا الرأى قررت أنه لا يعتبر هرطقة ؛ فأغضب ذلك مسئولاً فى القصر الملكى فاستأنف ضده لدى البرلمان وليس لدى البابا . وجاء حكم البرلمان مؤيداً حكم محكمة التفتيش ؛ الأمر الذى يثبت أن البرلمان تمتع بسلطة تفوق سلطة محاكم التفتيش . وأزعج هنرى دى شاماي كثيراً أن يرى الملك فيليب دى فالوا يفعل كل ما فى وسعه للحد من سلطة محاكم التفتيش فلم يأل شاماي جهداً حتى استطاع فى نوفمبر ١٣٢٩ أن يحصل من الملك على قرارٍ يتضمن تأكيداً للمزايا الممنوحة لهذه المحاكم ووضع السلطة الزمنية من جديد رهن إشارتها وإلغاء كل القرارات التى سبق أن أصدرتها المحاكم الملكية والمعوقة لعمل المحققين وأدانهم لمهام وظيفتهم طبقاً للتعليمات البابوية بهذا الشأن . وفى عام ١٣٢٨ قام الملك وليس البابا بتعيين هنرى شاماي محققاً فى محاكم التفتيش ، ولا غرو فقد اتبع الملك فيليب

سياسة توسيع سلطانه الملكى . ومن هذا المنطلق أرسل الملك مبعوثه جويلوم دى فيلار Guillemme de Villure إلى منطقة تولوز لإصلاح تجاوزات محاكم التفتيش وافتئاتها على سلطة المحاكم الملكية . وفى عام ١٢٣٠ طلب دى فيلار عرض سجلات المحاكم الكنسية عليه، كما فعل الشئء نفسه فى العام ذاته بالنسبة لسجلات محاكم التفتيش. ونحن نشعر أكثر فأكثر بغرابة هذا الطلب عندما نتذكر أن المحقق نيكولاس دابرفيل رفض بكل كبرياء وشمم إطلاع الأساقفة الذين أرسلهم الملك فيليب على هذه الوثائق والمستندات ، وإذا تذكرنا تردد جين دى بيكوينى فى التدخل فى شئون جيوفرا دابليس. وتدل هذه التغييرات الجذرية التى طرأت على العلاقة بين الكنيسة والدولة على مدى ما اعترى السلطة الكنسية من ضعف أمام السلطة الزمنية ، فعندما رفضت محاكم التفتيش الاستجابة لطلب فيلار بعرض وثائقها عليه اقتحم حجرة السجلات عنوة واقتداراً واستولى على ما فيها من أوراق . وحين أراد المحقق الاحتجاج على هذا التدخل لم يلجأ إلى الكرسي البابوى كما هو مفروض ، بل لجأ إلى البرلمان الذى أدان فيلار لاستخدامه العنف ، وحكم عليه بدفع تعويض لمحاكم التفتيش ليس باعتبارها محاكم كنسية بل باعتبارها محاكم تابعة للملك . ومعنى هذا أن محاكم التفتيش أصبحت جزءاً من كيان الدولة . وهذا نفسه ما حدث فى عام ١٢٣٤ عندما استمع الملك فيليب إلى شكاوى المحققين من أن ممثليه يتدخلون دوماً فى شئونهم ويسلبونهم سلطتهم ؛ وبناء عليه أمر الملك باستمرار المحققين فى الاحتفاظ بمزاياهم القديمة .

ونسوق الحادثتين التاليتين للتدليل على مدى تحول محاكم التفتيش إلى أداة خاضعة فى يد الدولة أو السلطة الزمنية فى فرنسا ، ففي عام ١٢٤٠ حضر ضابط القصر الملكى لويس بواتو إلى منطقة لانجودوك لدخول مدينة تولوز فوجد أبوابها موصدة ؛ فترجل عن جواده وجثا بركبتيه على مسند (أو مخدة) ليقسم على قسمين متعارضين أحدهما عدم المساس بمزايا المحققين فى محاكم التفتيش والثانى الحفاظ على الحريات المدنية . ويدل هذا القسم المزدوج على أن السلطة الزمنية فى نظره على قدم المساواة بمحاكم التفتيش ، وهو الأمر الذى كانت الكنيسة ترفضه رفضاً باتاً فيما مضى لأن بابا روما وضع محاكم التفتيش فوق الجميع .

أما الحادثة الثانية فيرجع تاريخها إلى عام ١٢٦٨ عندما نضبت خزائن ملك فرنسا بسبب نفقات حربه الباهظة مع الإنجليز ، فقد عجزت هذه الخزانة عن دفع راتب محقق محكمة تفتيش كاركاسون ، وأمر الملك أن يتولى قناصله كاركاسون (نيابة عن الدولة) دفع هذا الراتب نظراً لأن محاكم التفتيش لم تعد تملأ خزانة الملك بالأموال المصادرة ، وكذلك باعتبار المحققين رجال دولة وليس رجال دين .

وحتى عندما كان لطائفة الرهبان الدومينكان اليد الطولى في مدينة كاركاسون تجرأ عليها حداد يدعى هيچ وفتح في عام ١٢٥٤ دكاناً على مقربة من كنيسة هؤلاء الرهبان حيث مارس عمله المزعج لدرجة منعت الرهبان من إقامة صلواتهم والتوفر على الدراسة . وعبئاً حاول هؤلاء الرهبان تهديده ، فلم يجدوا أمامهم مفرّاً من الشكوى ليس إلى الأسقف أو المحقق كما كان مفترضاً بل إلى الملك نفسه الذي أمر بإغلاق محل الحدادة .

وفي نهاية القرن الرابع عشر وقعت في مدينة دايمز حادثة تدل على مدى انهيار نظام محاكم التفتيش في جميع أنحاء فرنسا واستبدال سلطة المحاكم الملكية التابعة للبرلمان الفرنسي بسلطتها ، ففي عام ١٥٨٢ نشب نزاع بين قضاة هذه المدينة ورئيس أساقفتها حول من له سلطة محاسبة المجدفين والمهرطقين وتوقيع العقاب عليهم . وفي البداية حسم هذا الأمر لصالح رئيس الأساقفة ، غير أن هذا النزاع ما لبث أن نشب من جديد بعد انقضاء عشرين عاماً حول قضية رجل يدعى درويت لارجيل وجهت إليه تهمة الهرطقة والتجديف حول صلب المسيح وعذرية مريم العذراء ، وعند رفع الأمر إلى البرلمان أيد رأى رئيس الأساقفة وتجاهل تماماً سلطة محاكم التفتيش .

وفي فرنسا تجلت سلطة البرلمان وتفوقها على سلطة محاكم التفتيش في حالة المهرطقة ماري دي كانيش كامبراى Maria du Canech Cambrai التي قدمها أسقف كامبراى والراهب نيكولاس بيروني للمحاكمة بتهمة الهرطقة ، واستأنفت هذه المرأة ضد الحكم لدى رئيس أساقفة مدينة ريمز ، غير أن أسقف ريمز ومحقق التفتيش فيها لجأ إلى البرلمان . ونشبت ملاحاة شديدة بين مؤيدي رئيس الأساقفة وأنصار البرلمان ، وزعم رئيس الأساقفة خلو فرنسا آنذاك من المحققين ، ولكن البرلمان تدخل

لفض النزاع بين رئيس الأساقفة والمحقق وجاء حكمه لصالح رئيس الأساقفة ، ولكنه فى الوقت نفسه وقع غرامة على الطرفين المتنازعين . وتدل هذه الحادثة على عودة السلطة الدينية المتمثلة فى رئيس الأساقفة إلى بسط نفوذها على محاكم التفتيش التى استمدت نفوذها وصلاحياتها أصلاً من الكرسي البابوى . وأدى الانشقاق العظيم الذى شطر العالم المسيحى إلى شطرين ، والذى تمخض عن مجمعى كونستانس وباسل إلى إضعاف سلطة بابا روما ضعفاً ملحوظاً ؛ ومن ثم إلى ضعف محاكم التفتيش التى كانت تستمد سلطتها منه . والجدير بالذكر أن موقف ملك فرنسا شارل السابع من الكرسي البابوى اتسم بالتحدى على طول الخط ، كما أن الأمر الملكى الذى أصدره عام ١٤٣٨ أفضى إلى استقلال الكنيسة الجاليكانية عن الكرسي البابوى فضلاً عن تعزيز السلطة الزمنية المتمثلة فى سلطة البرلمان . وعندما اعتلى ملك فرنسا لويس الحادى عشر عام ١٤٦١ ألغى هذا الأمر ، وعندما أنحى عليه أنبرنان باللائمة أبرز الملك شرور الكرسي البابوى وأعلنها على رؤوس الأشهاد . غير أن البرلمان استمر فى اعتبار هذا الإلغاء كأن لم يكن ؛ مما اضطر الملك لويس الحادى عشر إلى اتخاذ مجموعة من الإجراءات المتتالية فى أعوام ١٤٦٣ و ١٤٧٠ و ١٤٧٢ و ١٤٧٤ و ١٤٧٥ و ١٤٧٩ لترسيخ قراره بالإلغاء بصورة تدريجية . وكان هذا قميناً بتوفير استقلال فرنسا العام عن الكنيسة الرومانية ، لولا المؤتمرات التى حاكها البابا ليو العاشر فى عام ١٥١٦ بالتواطؤ مع الملك فرانسيس الأول للحيلولة دون تحقيق فرنسا لهذا الاستقلال مقابل تقاسم أسلاب الكنيسة وغنائمها . وتجاسرت جامعة باريس فاعترضت على هذه السياسة التأميرية التى اتبعتها البابا ليو العاشر والملك فرانسيس الأول ، واعترض عليها البرلمان أيضاً .

وفى تلك الفترة التى تصاعدت فيها عداوة فرنسا ضد الكرسي البابوى فى روما سعت جامعة باريس ما وسعها السعى إلى الحط من شأن محاكم التفتيش وفضح مثالبها . وتولت هذه الجامعة بنفسها مهمة دحض المعتقدات الدينية والحكم على صحيح الدين ، وزاد من هيمنتها فى الأمور الروحية امتلاؤها بعدد كبير من فقهاء اللاهوت ، ونما سلطان جامعة باريس التى حظيت باحترام العلمانيين ورجال الدين على حد سواء حتى صارت مؤسسة قومية تزاخم البرلمان فى سلطته . وبعد أن

أصاب الجنون ملك فرنسا شارل السابع أعلنت هذه الجامعة بكل جرأة وجسارة أنها أصبحت المرجع في شتى الشئون العامة ، ولم يمانع المواطنون الفرنسيون في اعتبارها المحك في شئون الدين والدنيا . وفي عام ١٤١١ لجأ ملك فرنسا إلى جامعة باريس كي تفرض الحظر على مناوئيه ففعلت ما أراد ، وفي العام التالي (١٤١٢) قامت الجامعة بتوبيخ الملك في موضوع الفوضى المالية التي عمت البلاد وطالبته بالإصلاح . وبمؤازرة أهل باريس تولت هذه الجامعة عام ١٤١٢ أمر تطهير الحكومة من الفاسدين والناهبين؛ وبطبيعة الحال أسخط هذا البلاط الملكي فعمل على السخرية من أساتذة الجامعة والاستهزاء بهم . وفي الوقت نفسه تعاونت جامعة باريس تعاوناً وثيقاً مع البرلمان لتهدئة خواطر الشعب الغاضب ، ومن جانبه اعتبر ولي العهد دوق جيين Guienne جامعة باريس جزءاً لا يتجزأ من الدولة . ولكنه مالبث أن غضب منها وقلب لها ظهر المجن عام ١٤١٥ عندما تجرأت وأرسلت إليه وفداً يشكو من سياسته الضريبية الجائرة وتذمر الناس منها ، فقد ألمح هذا الوفد بجفاء وغلظة إلى أخطائه مما جعله يتهم الجامعة بالتدخل في أمور لا تعنيها ، وعندما حاول عضو في الوفد الدفاع عن الجامعة أمر الدهق بالقبض عليه على الفور وحبسه عدة أيام .

ورغم أن الجامعة لم تكن بيدها سائر المقاليد اللازمة لتوجيه شئون الدولة فإن نجاحها في مجال اللاهوت كان عظيماً ، فقد أصبح الأساقفة والمحققون يسترشدون برأي أساتذتها في كل ما يعرض لهم من قضايا ومشاكل روحية . وحيث إن أشكال الهرطقة كانت تتغير باستمرار فإنه لم يكن هناك محيص من استفتائها في أمور العقيدة ، ولا غرو فقد كان لها القول الفصل .

وفي عام ١٤٣٢ حدث الآتي : تجرأ شخص وقح على الراهب بييردى فوا نائب محقق محكمة التفتيش أيفرو وعاب عليه أحكامه متهماً إياها بمخالفة صحيح الدين فاشتكى الرجل إلى الجامعة التي توفرت على دراسة الشكوى وقررت بعدها أن الرجل وقح وأنه يميل إلى التمرد ويجنح إلى المروق ومن ثم يستحق العقاب رغم عدم هرطقته . وهكذا شاهدت فرنسا تغيراً هائلاً في وضع المحققين في محاكم التفتيش فبعد أن كانوا الحكام بأمر الله أصبحوا يلتمسون المشورة والإرشاد على أيدي فقهاء اللاهوت في جامعة باريس .

وحتى ندرك مدى تدخل جامعة باريس فى الشئون الروحية وحلولها محل محاكم التفتيش المضمحلة نذكر حالة راهب فرنسيسكانى يدعى جين فيترييه Jean Vitrier بشر فى مدينة تورناى بيزوغ عصر الإصلاح الدينى فى عام ١٤٩٨ ، كما اعتبر هذا الإصلاح تمهيداً لقدم المذهب البروتستانتى الذى استحدثه مارتن لوثر ، وهاجم هذا الراهب القساوسة الذين يحتفظون بجوارى ومحظيات ويشترون ويبيعون صكوك الغفران إلى غير ذلك من مبادئ ، حتى شفاعاة القديسين كانت موضع شك . لقد كانت مثل هذه الهرطقات فى الماضى كفيلة بإحراق محاكم التفتيش لصاحبها دون أدنى تردد ، ولكن مدينة تورناى أحالت موضوع هرطقة الراهب المذكور إلى الجامعة التى أدانت ما لا يقل عن ست عشرة فكرة من أفكاره . وأيضاً ليس أدل على تزايد سلطة جامعة باريس وتقلص سلطة البابا من القرار التالى الذى اتخذته الجامعة عام ١٥٠٢ ، فقد قام البابا ألكسندر السادس (١٤٩٢-١٥٠٣) بفرض ضريبة العشور على رجال الإكليروس فى فرنسا حتى يتمكن من محاربة الأتراك ، ولكنهم رفضوا دفع العشور فأمر البابا بفرض الحظر الكنسى عليهم . وتقدموا بطلب إلى جامعة باريس لإفادتهم عن مدى شرعية هذا الحظر الكنسى فردت على الشاكين بأنه لا يحق للبابا فرض مثل هذا العقاب على رجال الكنيسة .

ومع ذلك فمن الخطأ أن نعتقد أن محاكم التفتيش انتهت أو ألغيت أو توقفت عن العمل تماماً ، فقد كان من مصلحة البابوات أو المحققين استمرارها رغم ما اعترأها من ضعف . فنحن فى عام ١٤١٤ نسمع عن رجلين يتنافسان على وظيفة محقق تولوز ، كما أن مشاجرة غير لائقة حدثت بين هذين المتنافسين عام ١٤٢٤ فى مدينة كاركاسون . وأيضاً حدثت مشاحنات مماثلة سببها التنافس على هذه الوظيفة فى مدينة جينيف التابعة آنذاك إلى محاكم التفتيش الفرنسيسكانية . ودب شجار بين طائفتى الدومينكان والفرنسيسكان حول أحقيتهما فى شغل هذه الوظيفة ، وهكذا تأرجحت تبعية محكمة تفتيش جينيف بين الدومينكان والفرنسيسكان . وباضمحلال نفوذ محاكم التفتيش لم يعد لشاغلها دخل نوراتب ثابت ؛ ولهذا السبب أصدر البابا ألكسندر الخامس فى عام ١٤٠٩ أمراً إلى مفوضه الكاردينال سوزانا بالعثور على طريقة ما لدفع رواتب المحقق ومعاونيه وكاتبه ، واقترح فرض ضريبة مقدارها ثلاثمائة

فلورينة على اليهود الذين يعيشون في أفينون، أو أن يتكاتف الأساقفة فيدفع كل منهم من دخله الخاص عشر فلورينات سنوياً . ولكن يبدو أن هذه المقترحات لم توضع موضع التنفيذ، بدليل أن مارتن الخامس بابا روما كتب عام ١٤١٨ إلى رئيس أساقفة ناربون يطلب منه إيجاد وسيلة لدفع النفقات الضرورية لمحاكم التفتيش . وكانت أفينون موضعاً لليهود الذين تمتعوا بالحماية نظير دفع رواتب المحققين في هذه المدينة. ومن الواضح أن اعتماد محاكم التفتيش في فرنسا على التمويل اليهودي ساعد اليهود على اكتساب بعض النفوذ داخل هذه المحاكم حيث أصبح من حقهم تعيين المعاون الذي يعين المحقق على أداء عمله .

وتدل الدلائل على أن محاكم التفتيش رغم ما اعترأها من ضعف ظلت تمارس عملها ، فنحن نشاهد في عام ١٤١١ بيير داييل أسقف كامبراي يستدعى محقق هذه المقاطعة الدومينكان ليشارك معه في إصدار الأحكام . وأيضاً نسمع في عام ١٤٢٠ عن قيام نائب المحقق وأسقف تورناى بحرق عدد من المهرطقين في مدينة ليل . كما نرى في عام ١٤٢١ الملك فيليب يأمر موظفيه بتنفيذ الأحكام التي أصدرها الراهب هنريتش كاليسر الذي عينه المسئول الديني الدومينكان محققاً في كامبراي وليل . ولكن تجدر الإشارة إلى أن عمل المحقق كان يتم تحت إشراف البرلمان ، فهو لا يلقي القبض على أى شخص إلا طبقاً للقانون وبناء على تحقيقات مبدئية يجريها البرلمان . وحتى ندرك أن محاكم التفتيش لم تختف يتعين علينا أن نتذكر أنها لعبت دوراً في مأساة جان دارك (١٤١٢-١٤٣١) . وليس أدل على ضعف النفوذ البابوي ونفوذ محاكم التفتيش بوجه عام من أن الناس في فرنسا آنذاك كثيراً ما كانوا لا يكثرثون بالخطر الكنسي المفروض عليهم . ولهذا نرى البابا أجينيوس الرابع في عام ١٤٢٥ يأمر محقق كاركاسون بمعاقبة كل الذين لم ينفذوا الحظر الكنسي عليهم لفترات طويلة .

وحين تمكن الفرنسيون من طرد القوات الإنجليزية التي احتلت بلادهم رأى البابا نيكولاس الخامس (١٤٤٧-١٤٥٥) أن الوقت قد حان لإنشاء محاكم التفتيش على أسس أقوى وأرسخ مما كانت عليه ، فأصدر هذا البابا مرسوماً في أغسطس ١٤٥١

وجهه إلى محقق فرنسا هيج لونوار **Hugues Le Noir** يحدد له اختصاصاته التي شملت مملكة فرنسا ودوقية أكويتين وكل أراضي جاسكونيا ولانجويدوك . ومعنى ذلك أن كافة الأراضي الفرنسية باستثناء المقاطعات الشرقية انضمت في كيان موحد . وبحكم هذا المرسوم البابوي اتسع نطاق اختصاصات المحقق بحيث تشمل التجديف والزراية بالمقدسات والتنجيم والهرطقة والجرائم غير الطبيعية . وأيضاً منح المرسوم المحقق حق إصدار القرارات والأحكام بدون التشاور مع الأساقفة . ورغم اتساع هذه الاختصاصات فإن الوهن الواضح اعترى نظام محاكم التفتيش بحيث لم يعد بإمكانها استعادة سابق قوتها . وفي عام ١٤٥٨ رسم كاهن بورجندي الفرنسي كاني للبابا بيوس الثاني صورة للحالة المزرية التي آلت إليها محاكم التفتيش في كل من ليون وفيين وأرلس وأكس وأمبرون وتارنتيز وضفتى نهر الرون وجانب كبير من منطقة سافوى . وانهار النظام الذي تقوم عليه محاكم التفتيش لدرجة أن البعض كان يعين نفسه محققاً في هذه المحاكم ؛ الأمر الذي اضطر البابا إلى التدخل لوضع حد لهذه المهازل بأن حاول أن يعيد للقساوسة المحليين سلطتهم القديمة . وفي ظل هذه الظروف فقدت محاكم التفتيش هيبتها . ففي عام ١٤٥٨ عاث برارد نيمو **Berard Tremoux** محقق تفتيش ليون في الأرض فساداً لدرجة أن الأهالي تمردوا عليه وزجوا به في السجن ، ولولا تدخل البابا بيوس الثاني ومفوضه الكاردينال ألانو لظل حبيساً في سجنه ولما أطلق سراحه . وساعد على فقدان محاكم التفتيش لهيبتها كثرة المبازل التي اقترفتها ، حتى المحققون كانوا يعينون عن طريق المحسوبية والرشوة .

وفي عام ١٤٥٩ تم إحراق راهب ورع وزاهد اسمه ألفونس البرتغالي ، كان قد أثار غضب البابا عليه بقوله إن روما لم تعرف بابا طاهر الذيل منذ البابا جريجوري وإن البابوات الذين جاءوا من بعده لم يعوبوا صالحين لإقامة الصلوات والشعائر الدينية . ونحن نطالع في عام ١٤٨٤ أن كاهن باريس جين لايلييه **Jeān Laillier** الذي كان مسجلاً لدرجة الدكتوراه في اللاهوت من جامعة باريس دعا إلى الفجور والإباحية . واعتاد هذا الكاهن في مواعظه المطالبة بإلغاء شرط العزوبة في الكهنوت الكاثوليكي ، كما شن هجوماً قاسياً على البابا يوحنا الثاني والعشرين الذي وصفه بخليفة إبليس كما هاجم جسعه للمال وقبوله الرشاوى مقابل الاعتراف بقدسية بعض

رجال الكنيسة . وبالنظر إلى الضعف الذي اعترى السلطة الكنسية لم يجد هذا الهجوم عليها من يتصدى له، حتى محاكم التفتيش نفسها وقفت مكتوفة الأيدي أمامه. والأدهى أن هذا الرجل المارق على الكنيسة تقدم إلى جامعة باريس للحصول على درجة الدكتوراه والتي ورفضت منحه هذه الدرجة إلا إذا تاب إلى الله وطهر نفسه من كل رجس وذنس وحصل على موافقة الكرسي البابوي . وإمعاناً في تحدى السلطات الدينية تقدم هذا المارق بطلب إلى البرلمان - الذي أصبحت له اليد الطولى في شئون الدين والدنيا - للتدخل لدى الجامعة لقبوله دارساً فيها ، ولم يراود البرلمان أى شك فى أن له حق التدخل فى الشئون الروحية التى تقررها الجامعة . ولكن قرار البرلمان جاء لغير صالح لايبيه ، فقد أمر البرلمان أسقف باريس بالاشتراك مع المحقق وأربعة دكاترة تختارهم الجامعة لاتخاذ الإجراءات القضائية ضده وإنزال العقاب به . واتفق الأسقف والمحقق على أن يقرر كل منهما إجراءاته بمعزل عن الآخر ثم التداول فيما بينهما ، ولكن كان من الواضح أن هذا الكاهن المارق يستند إلى أصدقاء أقوياء لأن أسقف باريس سمح له بالتراجع الجزئى عن أفكاره ونبذه العلنى لمعتقداته مما مكنه من الحصول فى ٢٣ يونية ١٤٨٦ على الغفران الكنسى وتبرئته من تهمة الهرطقة وإرجاعه إلى وظيفته المعزول منها بحيث يصبح مؤهلاً للترقية إلى مناصب أعلى . ومن ناحيته قام المحقق الراهب جين كوسارت Cossart ببذل جهد جهيد فى جمع الأدلة التى تدفع وتدين أفكار لايبيه الفاضحة وإبلاغ زميله الأسقف بما تجمع لديه من معلومات ، ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى التراجع والتزام الصمت أمام تسامح زميله مع المتهم . غير أن الجامعة عزت عليها كرامتها فتقدمت فى ٦ نوفمبر ١٤٨٦ باحتجاج ضد الأسقف المتساهل وطالبت البابا بالتدخل ، وبالفعل سارع البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢) بالتدخل على الفور فأمر المحقق بالاشتراك مع رئيس أساقفة سنس وأسقف مو بإلقاء المهرطق لايبيه فى السجن وإرسال أوراق التحقيق معه إلى الكرسي البابوي فى روما لاتخاذ القرار . وكان أخشى ما يخشاه البابا هو الخوف من أن تخضع الجامعة للضغوط التى تمارس عليها فتقبل التحاق المتهم بقسم الدكتوراه . والجدير بالذكر أن أسقف مو الذى تم اختياره لمحاكمة لايبيه كان موضع ملامة الجامعة بسبب سعيه إلى إحياء الهرطقة الدوناتية التى تعتبر

الطقوس الدينية - التي يقيمها كاهن زان أو فاسد - لاغية وعديم الجدوى . (راجع كتاب "الهرطقة في الغرب") . ورغم مروقه الدينى الواضح فإن المحقق لم يجرؤ على مساءلته ، ويبدو أيضاً أن هذا الأسقف امتنع عن التدخل فى حالة قسيس مهرطق آخر فى سانت كريسبين يدعى جين لانجلو الذى روع رعيته عندما ألغى الخمر والقربان المقدس وداسهما بقدمه . وحاول هذا الرجل المهرطق تبرير فعلته الشنعاء ولكنه رفض فى عناد التراجع عن هرطقته فتم إحراقه ، كما تم إحراق المهرطق أيمون بيكارد Aymon Picard الذى انتزع يوم ٢٥ أغسطس ١٥٠٢ المناولة من يد أحد المتناولين وقذف بها على الأرض . والجدير بالذكر أن مثل هذه الهرطقات الفظيعة حدثت فى وقت كانت الحاجة فيه شديدة إلى محاكم تفتيش قوية وقادرة على الردع وليست تلك المحاكم الضعيفة المتخاذلة التى يديرها القسس والأساقفة .

قلنا إن الدولة فى فرنسا استطاعت فرض سيطرتها على الكنيسة ومحاكم التفتيش . ويتضح لنا هذا من القرار الذى اتخذه الراهب أنتوات دى كليد de Clède عام ١٤٨٥ بتعيين مجرد راعى كنيسة بسيط كى ينوب عنه فى كل من روديز وقابر ، وبسبب التسبب العظيم الذى ألم بالكنيسة آنذاك لقب هذا الرجل نفسه فى الأوراق الرسمية محقق فرنسا وأكونتين وجاسكونيا ولانجويدوك بتكليف من البابا والبرلمان . ولا تدل هذه الحادثة على مدى التهور والتسبب الذى اعترى الكنيسة فحسب ، بل تدل أيضاً على أن البرلمان أصبح فى قوته فى شئون الدين على قدم المساواة مع الكرسي البابوى، فهو يتولى تعيين المحققين، ولم يكن بمقدور البابا تعيين محقق إلا بعد موافقة البرلمان على هذا التعيين ، والأدهى من هذا أن محاكم التفتيش هانت فى نظر رجال الإكليروس أنفسهم . فقد نشبت نحو مشادة لسبب تافه بين المحقق رايموند جوزين وزملائه الرهبان الدومينكان عام ١٥١٦ حول أثاث منزل هذا المحقق وما يحتويه من أدوات مطبخ ، حيث إن زملاءه أرادوا استخدامها فى دير الدومينكان . وطلب المحقق من الرهبان إعادة ما أخذوه من منزله إليه فأعابوا إليه جزءاً منها ورفضوا إعادة الباقي ، بل إنهم طالبوه بأن يعيد إليهم ما سبق أن أرجعوه ، فرفض المحقق الاستجابة إلى طلبهم ، فالتجأ الرهبان الدومينكان إلى رئيسهم الذى أصدر أوامره إلى المحقق بالامتنال غير عابئ بالالتماس الذى قدمه إلى البابا . وبعد لآى نجح

المحقق فى عام ١٥٢٠ فى الحصول على موافقة البابا على التدخل لحسم هذا النزاع الناشب حول أدوات المطبخ التى اغتصبها الرهبان الدومينيكان من منزل المحقق . ومع اضمحلال محاكم التفتيش لم تعد بحاجة إلى امتلاك القصور الفخمة والقلاع الحصينة فى عقد محاكماتها وإصدار أعمالها الإيمانية (أى أحكامها بالإعدام) . صحيح أن محاكم التفتيش كادت أن تحتضر ولكنها لم تلفظ أنفاسها الأخيرة بدليل أن جوهان بوم Johann Bomm محقق محكمة تفتيش بيسانكون أرسل عام ١٥٢١ اثنين من المارقين إلى حتفهم .

وبعد اندثار الهرطقة الكاثارية ونجاح محاكم تفتيش فرنسا فى اجتثاثها ، حلت محلها هرطقة أخرى هى الهرطقة الوالدنسية (انظر «الهرطقة فى الغرب») . ورغم أن الهرطقة الوالدنسية لم تكن بمثل صورة الهرطقة الكاثارية المتفشية فى لانجويديك فإنها انطوت على قدر كبير من الخطر على المذهب الكاثوليكي . وعلى عكس الهرطقة الكاثارية التى أمن بها النبلاء والفقراء على حد سواء انتشرت الهرطقة الوالدنسية بين الطبقات الدنيا .

ولعل من المفيد أن نذكر أن الهرطقة الوالدنسية انتشرت فى العقود الثلاثة الأولى من القرن الرابع عشر ، وأن المحقق برنارد جوى كان من أبرز الذين سعوا إلى اجتثاثها . والمهرطقون الوالدنسيون يعتبرون الكرسي البابوي بيت دعارة ، ومن ثم ينبغى تجاهل أحكامه ومراسيمه . وكان للمهرطقين الوالدنسيين تنظيم كنسى متكامل وقائم بذاته؛ فلهم أساقفتهم وقسيسهم وشمامستهم بل وكنائسهم التى يقيمون فيها شعائهم بمنأى عن العيون المتلصصة . غير أنهم كانوا يصلون فى دور العبادة العادية من باب التمويه والتقية . ورغم إيمانهم بالأيوخرست أى تحويل القربان والخمر إلى جسد المسيح ودمه فإنهم يرون أن الأيوخرست عديم الجدوى والفاعلية إذا قام به كاهن فاسد أو دنس . وأيضاً يرون أن المرأة والرجل العاديين الطاهرين بمقدورهما إقامة الأيوخرست بدلاً من الكاهن . كما يمكنهما الاستماع إلى اعترافات الخاطئين والحكم عليهم بالتوبة بدلاً من كاهن الاعتراف ، وكذلك أنكر الوالدنسيون المطهر وإقامة القداديس على أرواح الموتى والابتهاال للقديسين وطلب شفاعتهم .

وبطبيعة الحال هاجم الوالدنسينيون صكوك الغفران فضلاً عن إثارة حياة الزهد والتقشف والتخلي عن متاع الدنيا طلباً للطهر والنقاء . ولكن المحقق برنارد جوى يحدثنا عن خلاعتهم وانحلالهم الجنسي في اجتماعاتهم الليلية ، وبوجه عام كانت الطائفة الوالدنسينية تجنح إلى السلم ، ولكن الاضطهاد أحياناً حفزها إلى استخدام العنف وإراقة الدماء دفاعاً عن النفس ، وبسبب بساطة هذه الهرطقة واستساغة البسطاء لها انتشرت بين الطبقات الفقيرة خلافاً للهرطقة البيجاردية the Beggharda (أو أتباع الروح الحر Free Spirit) الصوفية التي راقى للبعض دون الآخر . وقد عجزت محاكم التفتيش - بعد أن أصابها الوهن - عن التصدي لهذه الهرطقة ؛ الأمر الذي اضطر البابا بنديكت الثاني عشر في عام ١٢٣٥ إلى أن يطلب من همبرت الثاني ولي عهد فينوا المساعدة على سحقها . وفي الفترة من عام ١٢٣٦ إلى ١٢٤٦ شنت حملات للقضاء عليها ، فتاب من المهراطيين من تاب وأحرق منهم من أحرق وصودرت ممتلكاتهم ونبشت قبورهم لإخراج عظام الموتى . ورغم أن السلطتين العلمانية والدينية في إمبرون تضافرتا للتصدي لهؤلاء المهراطيين فإن نجاح هذه الحملات عليهم كان محدوداً . وفي لانجودوك قام جين دومولين Jean Dumoulin محقق تولوز في عام ١٢٤٤ بشن هجومات على الوالدنسينيين ولكنه نجح فقط في تشتيتهم في مناطق متفرقة مثل برن وفوا وأراجون؛ فاضطر البابا كليمنت السادس مرة أخرى لأن يستنجد بولي العهد همبرت للمرة الثانية فقام بالقبض في إمبرون على اثني عشر مهرطقاً والدنسينياً وحرقهم في الميدان المواجه لمبنى الكاتدرائية . وعندما اعتلى دوفيني عرش فرنسا لم يبخل بمساعدة الكنيسة للقضاء على هذه الهرطقة . وفي عام ١٢٥١ أصدرت السلطات في بريكانوى الأمر إلى قواتها العسكرية لمساندة المحقق في حربه على الهرطقة الوالدنسينية . ولكن هذه الحملات العسكرية باءت بالفشل . وفي العام التالي استنجد البابا كليمنت السادس بشارل عاهل فرنسا ولويس جوانا حاكم نابولي لتقديم العون إلى الراهب بيتر ديمونت محقق مقاطعة بروفاتس ، وتذكر السجلات أن حصيلة تضافر هذه الجهود هو نجاح ديمونت المحقق في عام ١٢٥٣ في استتابة سبعة مهرطيين والدنسينيين في حين أصاب رئيس أساقفة إمبرون جويلوم دي بورديس Jullaume de Bordes في الفترة من ١٢٥٢ إلى ١٢٦٣ نجاحاً أكبر في ملاحقتهم

وتعقبهم . وكان نجاحه راجعاً إلى اتباع سياسة السماحة والرحمة ؛ الأمر الذى مكّنه من إعادة عدد كبير من المهراطيين الوالدنسينيين إلى حظيرة المذهب الكاثوليكي . وبعد موته تغيرت سياسة خلفه البابا إيربان الخامس الذى حرص وأنصاره على اتباع الأساليب العنيفة فى محاربة الهرطقة . وأغار حملات عسكرية مسلحة على معاقل الوالدنسينيين فى الجبال واستطاعت دحر عدد كبير من المهراطيين . وكالعادة تم إحراق المهراطيين المتشبهين بهرطقتهم ، وتراجع عن هرطقتهم الراغبون فى البقاء على قيد الحياة . ورغم فاقة هؤلاء المهراطيين فقد انتزعت منهم محاكم التفتيش القليل الذى يملكونه ، فعلى سبيل المثال صادرت محكمة التفتيش البقرة الوحيدة التى يملكها مهرطق وبقرتين أخريين وبعض الملابس التى يملكها مهرطق آخر ، ووجدت محاكم التفتيش فى حوزة مهرطق ثالث فلورينتين فاستولت عليهما رغم تفاهة هذا المبلغ ، وكذلك صادرت هذه المحاكم كرمة تملكها مهرطقة بعد حرقها .

ورغم كل هذه الجهود المضنية عجزت السلطات المدنية ومحاكم التفتيش عن استئصال الهرطقة الوالدنسينية . وعندما اعتلى البابا جريجورى الحادى عشر أريكة البابوية عام ١٣٧٠ لفت نظره التفكك الشديد الذى أصاب الكنيسة فى أقاليم بروفانس ودوفينييه ولونيز التى امتلأت بحشود المهراطيين الوالدنسينيين وأن بعض النبلاء بدأوا يعتنقون هذه الهرطقة . وقفت الكنيسة عاجزة أمام هذا الطوفان الكاسح ؛ فأخذ البابا جريجورى الحادى عشر يشحذ همم المحققين ويستحثهم ويثير حماسهم ، ولكن هيهات فقد أصبحت محاكم التفتيش أضعف من أن تفعل شيئاً ، واضطر المحققون إلى الاستعانة بمعاونين لهم من خارج النظام الكنسى . وكثيراً ما كانت السلطات والمحاكم المدنية تتدخل فى أعمالهم فتطلق سراح بعض المحكوم عليهم بالسجن بدون الرجوع إليهم . وقد رفض الموظفون المدنيون أن يقسموا على تطهير البلاد من شرور المهراطيين بل كثيراً ما كانوا يوفرّون لهم الحماية .

كان ما تقدم مضمون شكوى البابا جريجورى الحادى عشر إلى الملك شارل فى عام ١٣٧٣ ، غير أن هذا الملك لم يستجب لشكوى البابا فى بادئ الأمر فاضطر إلى تكرار شكواه عام ١٣٧٥ . وعاد البابا ليلوم هذا الملك على موقفه السلبي من الهرطقة،

كما أنه أنحى باللائمة على ضابط فى القصر اسمه شارل دى بانفيل Charles de Banville؛ لأنه يوفر الحماية للمهرطقين، مهدداً إياه بالويل والثبور وعظائم الأمور. وأمر البابا بتجنيد كل القوى لعمل شيء لوقف زحف الهرطقة ، كما أنه شن حملة عسكرية على معاقل المهرطقين فى إقليم بروفانس . وأراد البابا أن يكثف الجهود المناهضة للهرطقة فاستدعى مجموعة من الطوائف الدينية للتصدي لها مثل طائفة الدومينكان والفرنسيسكان والكارملايت والأوغسطينيين ونشرهم بين الناس لتعليمهم صحيح الدين . وبدأت هذه الجهود المكثفة تؤتى ثمارها ، كما بدأت عمليات ملاحقة المهرطقين تأخذ أشكالا جادة . وكلت هذه الجهود فى نهاية الأمر بالنجاح وتم القبض على أعداد هائلة من المهرطقين وتقديمهم إلى المحاكمة . وبسبب كثرة أعداد المقبوض عليهم اضطلع أسقف ماسا فى أول مايو ١٢٧٥ بمهمة كأداء شغلت بال البابا جريجورى ، تتلخص فى توفير الطعام والسكن لكل هذا العدد الغفير من المهرطقين الذين وقعوا فى الأسر . ورغم إحراق أعداد كبيرة من الهرطقة المتشبهين فقد ظلت أعداد كبيرة منهم تنتظر حلا لمشكلتي الطعام والمأوى . ولهذا أمر البابا جريجورى الحادى عشر ببناء مأوى وسجون كثيرة فى كل من إمبرون وأفيجنون وفين ، وأدى تقاعس رجال الكنيسة عن أداء مهام وظيفتهم إلى مروق الكثيرين . ولحل مشكلة السجون استدعى البابا الأساقفة وأمرهم بجمع أربعة آلاف فلورينة ذهبية فى خلال ثلاثة أشهر وكذلك ثمانمائة فلورينة سنويا لمدة خمسة أعوام من أجل إقامة السجون المطلوبة لإيواء المهرطقين وتوفير الطعام لهم . وهدد البابا أساقفته بتجريدتهم من مصادر دخلهم وفرض الحظر الكنسى عليهم إذا ماطلوا فى دفع المبالغ المطلوبة منهم.

ولكن الخوف من سطوة محاكم التفتيش لم يعد بالقوة نفسها التى كان عليها فى لانجويدوك عام ١٢٤٥ . ومضت المهلة التى حددها البابا دون أن يجمع الأساقفة المبالغ المطلوبة منهم ، وأخذ البابا يحقق مع مرءوسيه عن طريقتهم فى الوفاء بالتزاماتهم . وتساءل أسقف ماسا عن الكيفية التى يطعم بها سجناءه فأجابه البابا بأنه يتعين على كل أسقف أن يقيم أود كل المهرطقين التابعين لأسقفيته . وهدد البابا بفرض الحظر الكنسى على كل أسقف تسول له نفسه التنصل من المسئولية . ومن جانبه حاول البابا جريجورى الحادى عشر اقتسام غنائم المصادرات مع الملك شارل

ولكن الملك رفض ، غير أنه وافق عام ١٣٧٨ على منح المحققين مكافأة سنوية مماثلة للمكافأة التي يتلقاها المحققون في محاكم تفتيش تولوز .

وعندما فشل البابا جريجورى فى تقاسم الأسلاب مع الملك شارل لجأ إلى بيع صكوك الغفران، وفى ١٥ أغسطس ١٣٧٦ أصدر البابا جريجورى بياناً يحث فيه أهل المروءة للتبرع من أجل إقامة أود سجناء محاكم التفتيش . قال جريجورى فى بيانه الموجه إلى جميع المؤمنين بيسوع المسيح : «وبما أن مساعدة المساجين تعتبر إحساناً وتقوى فإنه يخلق بالمسيحيين المؤمنين أن يشملوا المساجين من كل صنف ممن يكابدون الفاقة برحمتهم وتقديم يد العون لهم . لقد نما إلى علمنا أن ابننا الحبيب المحقق فرانسوا بوريل Francois Borell قام بسجن كثير من المهرطقين عقاباً لهم أو حماية لهم من الأذى ، وتبعاً لذلك فلا مفر من أن يمد إليهم المؤمنون الأنقياء الكرماء يد المساعدة كنوع من الإحسان . وبما أننا لا نرغب فى أن يموت هؤلاء السجناء جوعاً وأننا نريد لهم على قيد الحياة حتى يكفروا عن ذنوبهم فى السجون وحتى يتمكن المسيحيون المؤمنون من تقديم المساعدة بسبب شدة استمساكهم بمعتقداتهم فإننا ننذركم ونحثكم جميعاً أن تسهموا بالمال تكفيراً عن خطاياكم وأن تعطوا بعضها التى منحها الله إياكم وأن تتقوا الله بما تقدمون من إحسان تشكرون عليه من أجل إطعام هؤلاء السجناء حتى يمكنهم بمساعدتكم أن يظلوا على قيد الحياة وحتى تنعموا بالبركة الأبدية التى يسبغها الله على هذا العمل الطيب وغيره من الأعمال الخيرة» .

ويبدو أن البابا نفسه لم يتحمل بشاعة حياة المهرطقين القابعين فى غياهب السجون . ورغم أنهم كانوا يتضورون جوعاً فإن الكثيرين منهم تشبثوا بهرطقتهم . وفى عام ١٣٧٧ سجل البابا جريجورى زيادة فى أعداد هؤلاء المهرطقين وأنهى باللائمة على المحققين بسبب تقاعسهم فى أداء الواجب المنوط بهم .

ورغم أن البابا جريجورى الحادى عشر نجح فى قمع الهرطقة الوالدنسية فإن وفاته فى ٢٧ مارس ١٣٧٨ وظهور الانشقاق الدينى العظيم الذى شطر الكنيسة إلى شطرين (كنيسة غربية وكنيسة شرقية) ساعد على ظهور الهرطقة وانتشارها

من جديد . ولكن البابا كمينت السابع (١٣٧٨-١٣٩٤) استطاع بهمة ونشاط أن يقضى على المئات منهم وهداية مئات آخرين إلى المذهب الكاثوليكي حتى يمكنهم الاحتفاظ بممتلكاتهم نظير دفع مبالغ مالية معينة . ويقال إن هذا البابا أحرق فى عام ١٣٩٣ مائة وخمسين مهرطقاً فى جرينوبل فى يوم واحد . ولأنه كان مبشراً عن طريق مجادلته بما هو أحسن استطاع إعادة الكثيرين من الهرطقة الوالدنسينيين إلى حظيرة الكنيسة . وكما سبق أن ذكرنا أصبح الأسقف هو الذى يوجه الاتهام إلى المهرطقين بدلاً من المحقق بعد أن اعترى الضعف والوهن الواضح محاكم التفتيش .

ويبدو أن الهرطقة الوالدنسينية توارت عن الأنظار فى عهد البابا ألكسندر السادس . ويمكننا الاستدلال على ذلك من المرسوم الذى أصدره هذا البابا فى عام ١٤٠٩ ، بهذا المرسوم يحث المحققين على بذل قصارى جهدهم للتصدي للسحرة واليهود المرتدين دون أية إشارة إلى المهرطقين الوالدنسينيين . ومع ذلك فنحن نسمع فى عام ١٤١٧ عن إحراق راهب يدعى كاترين سوف فى مونبلييه بتهمة الهرطقة الوالدنسينية على يد وكيل المحقق الراهب ريموند كاباس بمساعدة أسقف ماجيلون . وفى عام ١٤٢٢ شكّا مجمع بوردج من أن الوالدنسينيين فى عهد دوفينييه دفعوا تبرعات لمساعدة المهرطقين من أتباع هوس . وفى يوم ٢٣ أغسطس من العام نفسه نطالع خطاباً أرسله الراهب بيير فابرى محقق إبرون إلى المجمع المنعقد فى بال يعتذر فيه عن عدم تمكنه من الحضور بسبب حاجته إلى المال وانشغاله باضطهاد الوالدنسينيين، ورغم نجاحه فى القضاء على عدد كبير منهم فإنه اشتكى من انتشارهم فى كثير من الوديان . وأضاف بيير فابرى فى رسالته أنه تمكن من الزج بستة مهرطقين منتكسين (أى مرتدين بعد هدايتهم إلى الهرطقة) فى سجون إمبرون وبريانكون ، وأن هؤلاء المهرطقين الستة أفضوا له بأسماء خمسمائة مهرطق آخرين ينوى الإمساك بهم وتقديمهم إلى المحاكمة فى القريب العاجل . ووعد الرجل فى رسالته بحضور الاجتماع بعد أن يفرغ من أداء العمل الذى بين يديه .

وفى عام ١٤٤١ سعى محقق بروفانس جين فويل Jean Voyle إلى ملاحقة المهرطقين الوالدنسينيين دون نتيجة تذكر ، الأمر الذى وفر لهم فترة راحة من التنكيل

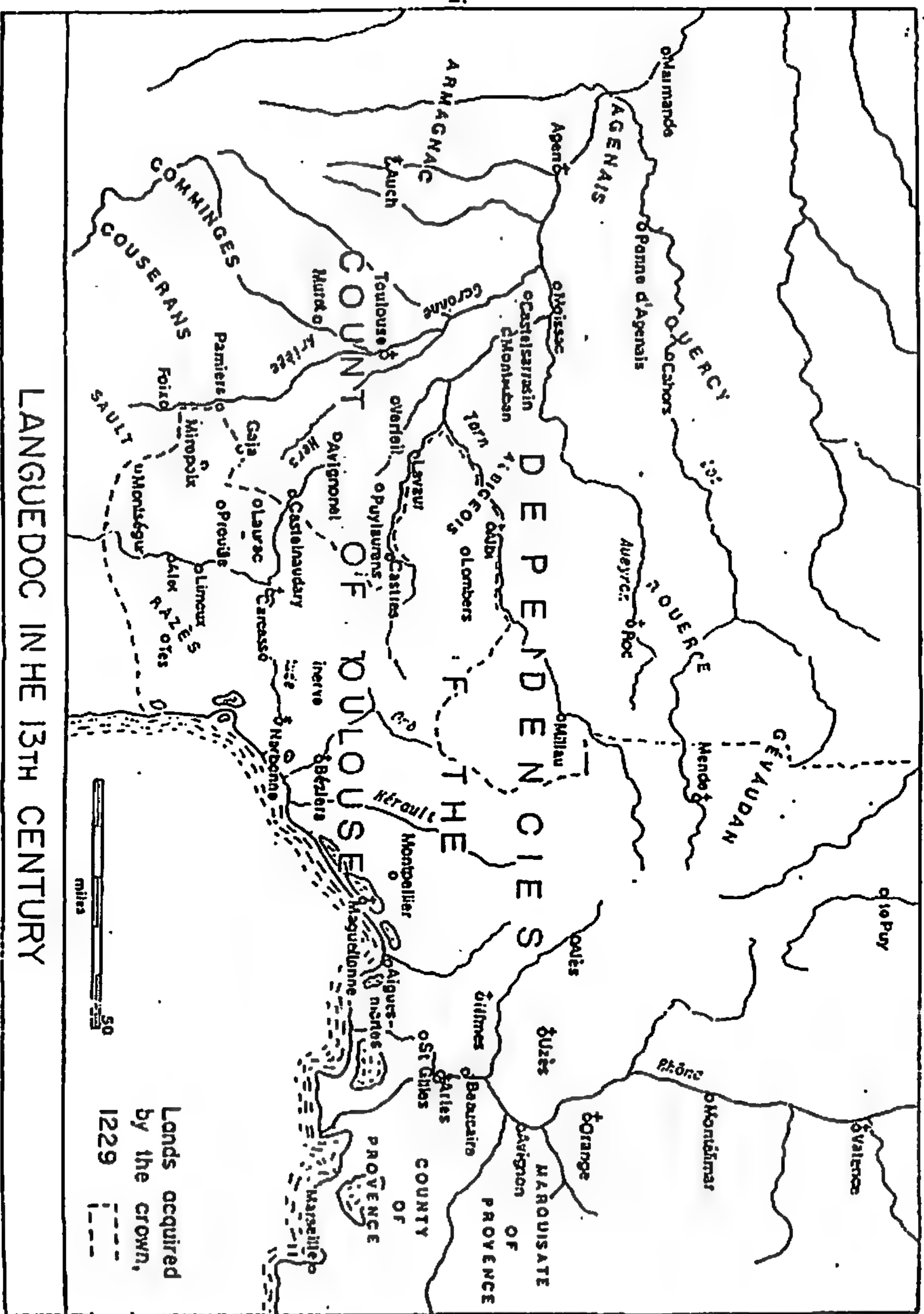
والاضطهاد . ولكن فى عام ١٤٧٥ بدأت محاكم التفتيش تستأنف شيئاً من نشاطها القديم وذلك بعد أن تضاعف عدد المهرطقين الموالدنسينيين . والجدير بالذكر أن الأساقفة والمحققين كانوا - بسبب الضعف الذى اعترى محاكم التفتيش - يلجأون إلى المحاكم الملكية التى أظهرت فى كثير من الأحوال تعاطفها مع المهرطقين واستعداداً لحمايتهم مما جعلهم أشد وقاحة وجراًة على تحدى الكنيسة ورجالها ؛ الأمر الذى دفع البابا سكستوس الرابع (١٤٧١-١٤٨٤) إلى السعى دون جدوى إلى وضع حد لهذه المهازل. ولكن هيهات ؛ فقد أصبحت السلطة البابوية فى فرنسا موضع السخرية والازدراء ، ولهذا نرى البابا سكستوس الرابع يوجه فى ١ يوليو ١٤٧٥ اللوم إلى ملك فرنسا لويس الحادى عشر بسبب تعاطف موظفيه مع المهرطقين . ومن المؤكد أن الملك نفسه كان لا يعلم عن ذلك شيئاً ، ومن ثم سارع بالإعراب عن أسفه وشجبه لهذا الوضع متعهداً بمساندة الدولة للمحققين مساندة كاملة .

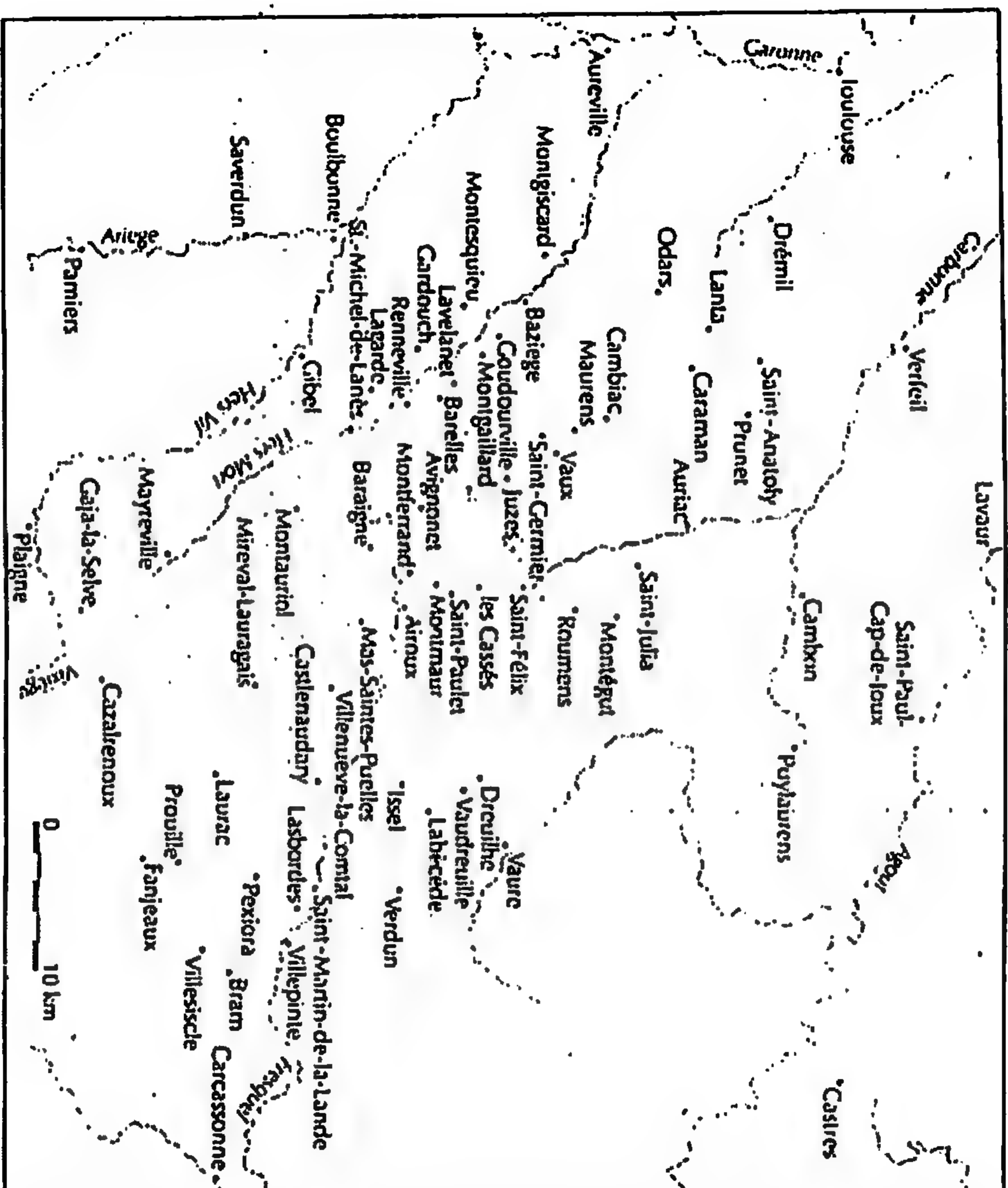
وتدل المراسلات المتبادلة بين البابا سكستوس الرابع وملك فرنسا على أن الدولة أصبحت تفوق الكنيسة ومحاكم التفتيش فى قوتها . ويتضح لنا هذا بجلاء من الأمر الذى أصدره الملك بتاريخ ١٨ مايو ١٤٧٨ وأكد الملك فيه أن جميع رعاياه فى دوفينييه من الكاثوليك الصالحين ، إشارة إلى أن الرهبان الهائمين على وجوههم زهداً فى الحياة والذين ينسبون إلى أنفسهم لقب «محقق» يدأبون على إزعاج المؤمنين الأوفياء لكنيسة روما واتهامهم بالهرطقة وتقديمهم إلى المحاكمة أمام المحاكم الملكية والكنسية بهدف الاستيلاء على أملاكهم ومصادرتها لصالحهم .

وهكذا يتجلى لنا أن السلطة الكنسية التى ظلت متجبرة وعاتية لفترة تقرب من القرنين والنصف قد أصابها الإعياء والوهن وانكسرت شوكتها بحيث أصبحت خاضعة لسلطات الدولة بعد أن كانت فى ذروة سطوتها قادرة على تحطيم ريموند حاكم تولوز وتدمير حضارة لانجويدوك . ومن المفارقات أن محاكم التفتيش مكنت النظام الملكى من تثبيت أركانه وإمداده بجانب كبير من ثروات المهرطقين نظير مساندته العسكرية لها ، كما أن هذا النظام قوى ساعده بعد أن أصاب الوهن محاكم التفتيش . وبطبيعة الحال أدت السياسة المتراخية والمتساهلة التى اتبعها الملك لويس

نحو الهرطقة الوالدنسينية إلى ازدهارها . ولكن موت هذا الملك فى عام ١٤٨٢ حرم المهرطقين الوالدنسينيين من الحماية، فقد رأى خلفه شارل الثامن أن مصلحته تقتضى منه إرضاء الكرسى البابوى ، ولهذا السبب تجددت سياسة مطاردة الهرطقة واضطهادهم فى عهد البابا أنوسنت الثامن (١٤٨٤-١٤٩٢) بناء على طلب رئيس أساقفة إمبرون . وقد شجع هذا التغير تطرف المحقق جين فيليتي Jean Veyleti فى تعقب الهرطقة فأحرق قناصله فريسيدير . غير أن الوالدنسينيين قاوموا مقاومة مستميتة ، وعندما تعب رئيس أساقفة إمبرون من عنادهم طلب إليهم فى شهرى يونية ويوليو ١٤٨٦ مغادرة البلاد أو الخضوع للكنيسة والاعتراف بخطاياهم ، فلم يلقوا بالا لهذا التهديد فقام بفرض الحظر الكنسى عليهم دون فائدة ؛ الأمر الذى دفعه إلى طلب مساعدة البابا أنوسنت الثامن للمرة الثانية ورأى البابا أن حل هذه المشكلة يكمن فى توجيه ضربة قاضية للمهرطقين؛ ولهذا أعد حرباً صليبية واسعة النطاق شنّها على مقاطعتى دوفينية وسافوى فى عام ١٤٨٨ . واستطاع ألبرتو دى كابتيانى Capitanei مندوب البابا الحصول على مساعدة البرلمان فى جرينوبل الذى أمر بحشد قوة عسكرية تحت قيادة هيج دى لبالو Hugues de La Palu تهاجم المهرطقين الوالدنسينيين من كل جانب . وبعد أن رفض هؤلاء المهرطقون الاستسلام تقدمت صفوف القوات الصليبية فى مارس ١٤٨٩ وبدأت الحملة الصليبية بمهاجمة براخيلاتو وقامت بالسيطرة عليها . ثم خير المهرطقون بين نبذ هرطقتهم أو الموت ، ولكنهم أظهروا مقاومة شرسة وعنيدة فى فال كلوسون وفريسبير أدت إلى وقوع مجازر بشرية بشعة ؛ الأمر الذى بث الرعب والفرغ فى قلوب سكان أرجنتير فسارعوا إلى الاستسلام . وفى منطقة فال لويس اتخذ السكان من الكهوف ملجأ ، غير أن قائد الحملة الصليبية استطاع الوصول إليهم وأشعل النار فى مداخل الكهوف فدخلها الدخان الكثيف ليخنق من بداخله ، وكانت هذه ضربة قاضية لهم . ثم صودرت أموالهم وممتلكاتهم وتقاسمها شارل الثامن ورئيس أساقفة إمبرون . وحتى لا تطل الهرطقة الوالدنسينية برأسها من جديد عينت الحملة الصليبية فرانسوا بلواريى Ploireri محققاً فى منطقة بروفانس ليتخذ إجراءات عنيفة وصارمة ضد المهرطقين .

وباعتلاء ملك جديد عرش فرنسا هو لويس الثانى عشر بدأت مرحلة جديدة من التعامل مع الوالدنسينيين . فقد انعقد مؤتمر فى باريس حضره مندوبون من فريسبير وروستون ورئيس أساقفة إمبرون الجديد ونواب عن برلمان جرينوبل وتقرر فى هذا المؤتمر إرسال لجان بابوية وملكية إلى مسرح الأحداث . وذهبت اللجان إلى فريسبير لسماع شهادة الشهود الذين أكدوا صدق عقيدة أهلها ورفضهم الاتهامات التى وجهها رئيس الأساقفة إليهم بأنهم مارقون . وتم إلغاء كل أنواع الحظر الكنسى المفروضة على الأهالى ؛ الأمر الذى وضع حداً للاضطهاد . وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٥٠٢ قام لويس الثانى عشر باعتماد هذا القرار ووافق عليه أيضاً البابا ألكسندر السادس الذى تشابكت مصالحه مع مصالح ملك فرنسا . ومن جانبهم سعى الوالدنسينيون إلى إلغاء أمر مصادرة أملاكهم ولكنهم لم يفلحوا فى ذلك رغم الأوامر الملكية القاضية بإعادة هذه الأملاك إلى أصحابها . ومن جانبها امتنعت الكنيسة عن تضيق الخناق عليهم وتركهم يعبدون الله بالطريقة التى يرونها ، حتى جاء عصر الإصلاح الدينى الذى جعل هؤلاء الوالدنسينيين ينضمون تحت لواء الملة البروتستانتية المتزمته المعروفة باسم أتباع كالفن . وفى منطقة بريانكونيس استمر إحراق المهرطقين حتى عام ١٥١٤ . ولكن الهرطقة الوالدنسينية لم تندثر إلا فى هذا العام عندما اتخذ أنتوان ويستانج أسقف أنجوليم إجراءاته الصارمة ضدها بدعم من السلطة المدنية .





The Lauragais in the Thirteenth Century

المعرب فى سطور :

معرب هذا الكتاب هو الدكتور رمسيس عوض أستاذ الأدب الإنجليزى بكلية الألسن جامعة عين شمس . ألف الدكتور رمسيس عوض عدداً من الموسوعات الرائدة مثل موسوعته البيلوجرافية عن المسرح المصرى وموسوعته عن اليهود فى الأدب العالمى ومحاكم التفتيش والرقابة وحرية التعبير . وتبلغ أعماله المؤلفة والمترجمة نحو خمسين كتاباً باللغة العربية إلى جانب أبحاثه المتخصصة فى الأدب الإنجليزى ، وهى تربو على خمسة وعشرين كتاباً وبحثاً .

المشروع القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

- ١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .
- ٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .
- ٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .
- ٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .
- ٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .
- ٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

١- اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢- الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو باننيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣- التراث المسروق	جورج جيمس	شوقي جلال
٤- كيف تتم كتابة السيناريو	انجا كاريتيكونا	أحمد الحضري
٥- ثريا في غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦- اتجاهات البحث اللساني	ميلكا إفيش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧- العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكي
٨- مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩- التغيرات البيئية	أندرو. س. جودي	محمود محمد عاشور
١٠- خطاب الحكاية	جيرار جينيت	محمد معتمد وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي
١١- مختارات شعرية	فيسوفا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢- طريق الحرير	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣- ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤- التحليل النفسي للأدب	جان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥- الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفي
١٦- أثنية السوداء (ج١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عثمان
١٧- مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوي
١٨- الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩- الأعمال الشعرية الكاملة	جورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠- قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولي وبدوي عبد الفتاح
٢١- خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجي	ماجدة العناني
٢٢- مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد علي الناصري
٢٣- تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤- ظلال المستقبل	باتريك بارنر	بكر عباس
٢٥- مثنوى	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦- دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧- التنوع البشري الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨- رسالة في التسامح	جون لوك	منى أبو سنة
٢٩- الموت والوجود	جيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠- الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو باننيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١- مصادر دراسة التاريخ الإسلامي	جان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الطلوجي وعبد الوهاب علوب
٣٢- الانتقراض	ديفيد روب	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣- التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية	أ. ج. هويكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤- الرواية العربية	روجر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥- الأسطورة والحدائق	بول ب. ديكسون	خليل كلفت
٣٦- نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٣٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٣٨-	نقد الحداثة	ألن تورين	أنور مغيث
٣٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	أن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين بارير	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزوج	أوكتايفو پاث	المهدي أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألوس هكسلى	مارلين تانرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتي
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميولد ويوسف الأنطكي
٥١-	مسار الرواية الإسبانية أمريكية	داريو بيانوييا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التديعى	ب. نوفاليس وس. روجسيفيتز وروجر بيل	لطفي فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحي
٥٥-	ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (ج٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونيث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الفنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهري
٦٢-	لذة النص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتواند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتواند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدي أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	للعالم الإسلامى فى أولئ القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهريدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	جين ب . تومبكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمعاليك فى مصر	ل . ا . سيمينوفا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندرية موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبونسكى	سعيد الغانمى وناصر حلاوى
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمرى
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوى
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دى أونامونو	محمود السيد على
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالى
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (ج١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكى أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقى	أحمد فتحى يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العنانى
٨٨-	الابتلاء بالتغريب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنثونى جيندز	أحمد زايد ومحمد محيى الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	اساليب ومضامين المسرح الإسباني وأمريكا اللاتينية	كارلوس ميغيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوى
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويزو بايخو	سرى محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعى
٩٨-	الهم الإنسانى والابتزاز الصهيونى	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	بيفيد روينسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساطة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحى
١٠١-	النص الروائى: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبى	عز الدين الكتانى الإدريسى
١٠٣-	قبر ابن عربى يليه آباء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجنى (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الفقار مكاوى
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	جيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسى	ماريا خيسوس روبيرامتى	أشرف على دعدور
١٠٧-	صورة اللدائى فى الشعر الأمريكى اللاتينى المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدى
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسى	مجموعة من المؤلفين	محمود على مكى
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء فى العالم النامى	حسنه بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوى ماكليود	إكرام يوسف

أحمد حسان	سادى پلانت	١١٣- راية التمرد
تسيم مجلى	رول شوينكا	١١٤- مسرحيتا حصاد كونجى وسكان المستقع
سمية رمضان	فرجينيا وولف	١١٥- غرفة تخص المرء وحده
نهاد أحمد سالم	سينثيا نلسون	١١٦- امرأة مختلفة (درية شفيق)
منى إبراهيم وهالة كمال	ليلى أحمد	١١٧- المرأة والجنوسة فى الإسلام
لميس النقاش	بث بارون	١١٨- النهضة النسائية فى مصر
بإشراف: روفى عباس	أميرة الأزهرى سنيل	١١٩- النساء والأسرة وقولنن الطلاق فى التاريخ الإسلامى
مجموعة من المترجمين	ليلى أبو لند	١٢٠- الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط
محمد الجندى وإيزابيل كمال	فاطمة موسى	١٢١- الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية
منيرة كروان	جوزيف فوجت	١٢٢- نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان
أنور محمد إبراهيم	أنينل ألكسندرو فنادولينا	١٢٣- الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية
أحمد فؤاد بلبع	جون جراى	١٢٤- الفجر الكاتب: أوامم الرأس مالية العالمية
سمحة الخولى	سيدرك ثورپ ديفى	١٢٥- التحليل الموسيقى
عبد الوهاب علوب	فولفانج إيسر	١٢٦- فعل القراءة
بشير السباعى	صفاء فتحي	١٢٧- إرهاب (مسرحية)
أميرة حسن نويرة	سوزان باسنييت	١٢٨- الأدب المقارن
محمد أبو العطا وآخرون	ماريا دولورس أسيس جاروت	١٢٩- الرواية الإسبانية المعاصرة
شوقى جلال	أندريه جوندر فرانك	١٣٠- الشرق يصعد ثانية
لويس بقطر	مجموعة من المؤلفين	١٣١- مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى
عبد الوهاب علوب	مايك فيذرستون	١٣٢- ثقافة العولمة
طلعت الشايب	طارق على	١٣٣- الخوف من المرايا (رواية)
أحمد محمود	بارى ج. كيمب	١٣٤- تشريح حضارة
ماهر شفيق فريد	ت. س. إليوت	١٣٥- المختار من نقد ت. س. إليوت
سحر توفيق	كينيث كوتو	١٣٦- فلاحو الباشا
كاميليا صبحى	جوزيف مارى مواريه	١٣٧- مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر
وجيه سمعان عبد المسيح	أندريه جلوكسمان	١٣٨- عالم التليفزيون بين الجمال والعنف
مصطفى ماهر	ريتشارد فاچنر	١٣٩- پارسيغال (مسرحية)
أمل الجبورى	هربرت ميسن	١٤٠- حيث تلتقى الأنهار
نعيم عطية	مجموعة من المؤلفين	١٤١- اثنتا عشرة مسرحية يونانية
حسن بيومى	أ. م. فورستر	١٤٢- الإسكندرية : تاريخ ودليل
عدلى السمرى	ديرك لايدر	١٤٣- قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى
سلامة محمد سليمان	كارلو جولدونى	١٤٤- صاحبة اللوكاندة (مسرحية)
أحمد حسان	كارلوس فوينتس	١٤٥- موت أرتيميو كروث (رواية)
على عبدالرؤف البمبى	ميجيل دى ليمس	١٤٦- الورقة الحمراء (رواية)
عبدالغفار مكارى	تأكرید دورست	١٤٧- مسرحيتان
على إبراهيم منوفى	إنريكى أندرسون إميرت	١٤٨- القصة القصيرة: النظرية والتقنية
أسامة إسبر	عاطف فضول	١٤٩- النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس
منيرة كروان	روبرت ج. ليتمان	١٥٠- التجربة الإغريقية

١٥١-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢-	عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣-	غرام الفراعنة	قيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤-	مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥-	الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسى
١٥٦-	المدارس الجمالية الكبرى	جى أنبال وآلان وأوديت فيرمو	مى التمساني
١٥٧-	خسرو وشيرين	النظامي الكتجوى	عبدالعزیز بقوش
١٥٨-	هوية فرنسا (مج ٢ ، ج٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩-	الأيديولوجية	ديفيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠-	آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومى
١٦١-	مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢-	تاريخ الكنيسة	يوجنا الأسويى	صلاح عبدالعزیز محجوب
١٦٣-	موسوعة علم الاجتماع (ج ١)	جوردون مارشال	ياشراف: محمد الجوهري
١٦٤-	شامبوليون (حياة من نور)	جان لاكوثير	نبيل سعد
١٦٥-	حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ.ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦-	العلاقات بين المتنبيين والظلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليفمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧-	في عالم طاغور	رابندر نات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨-	دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩-	إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠-	الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١-	وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢-	حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣-	معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤-	صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥-	التليفزيون في الحياة اليومية	لورينزو فيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦-	نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧-	أنطون تشيخوف	هنرى تروايا	حصه إبراهيم المنيف
١٧٨-	مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩-	حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠-	قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١-	النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢-	العنف والنبوة (شعر)	و.ب. بيتس	ياسين طه حافظ
١٨٣-	جان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤-	القاهرة: حالة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥-	أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦-	معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنورود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧-	الأرضة (رواية)	بُردج علوى	محمد علاء الدين منصور
١٨٨-	موت الأدب	الفين كرنان	بدر الديب

- ١٨٩- العى والبصرة: مقالات فى بلاغة النقد للعصر پول دى مان سعيد الغانمى
- ١٩٠- محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس محسن سيد فرجاني
- ١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى الحاج أبو بكر إمام وأخرون مصطفى حجازى السيد
- ١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (ج١) زين العابدين المراعى محمود علاوى
- ١٩٣- عامل المنجم (رواية) بيتر أبراهامز محمد عبد الواحد محمد
- ١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكى الحديث مجموعة من النقد ماهر شفيق فريد
- ١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية) إسماعيل فصيح محمد علاء الدين منصور
- ١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية) فالنتين راسبوتين أشرف الصباغ
- ١٩٧- سيرة الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى جلال السعيد الحفناوى
- ١٩٨- الاتصال الجماهيرى إيوين إمري وأخرون إبراهيم سلامة إبراهيم
- ١٩٩- تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندوا جمال أحمد الرقاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
- ٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل جيرمى سيبروك فخزى لبيب
- ٢٠١- الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس أحمد الأنصارى
- ٢٠٢- تاريخ النقد الأدبى الحديث (ج٤) رينيه ويليك مجاهد عبد المنعم مجاهد
- ٢٠٣- الشعر والشاعرية الطاف حسين حالى جلال السعيد الحفناوى
- ٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم زلمان شاراز أحمد هويدي
- ٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافاللى- سفورزا أحمد مستجير
- ٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً جيمس جلايك على يوسف على
- ٢٠٧- ليل أفريقى (رواية) رامون خوتاسنديز محمد أبو العطا
- ٢٠٨- شخصية العربى فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان محمد أحمد صالح
- ٢٠٩- السرد والمسرح مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٠- مثنويات حكيم سنائى (شعر) سنائى الغزنوى يوسف عبد الفتاح فرج
- ٢١١- فردينان دوسويسير جوناثان كلر محمود حمدي عبد الفنى
- ٢١٢- قصص الأمير مرزيان على لسان الحيوان مرزيان بن رستم بن شروين يوسف عبدالفتاح فرج
- ٢١٣- مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل مبداتناصر ريمون فلور سيد أحمد على الناصرى
- ٢١٤- قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيندز محمد محيى الدين
- ٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢) زين العابدين المراعى محمود علاوى
- ٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين أشرف الصباغ
- ٢١٧- مسرحيتان طليعتان صمويل بيكيت وهارولد بينتر نادية البنهاوى
- ٢١٨- لعبة الحجلة (رواية) خوليو كورتاثان على إبراهيم منوفى
- ٢١٩- بقايا اليوم (رواية) كازو إيشجورود طلعت الشايب
- ٢٢٠- الهيولية فى الكون بارى باركر على يوسف على
- ٢٢١- شعرية كفافى جريجورى جوزدانيس رفعت سلام
- ٢٢٢- فرانز كافكا رونالد جراى نسيم مجلى
- ٢٢٣- العلم فى مجتمع حر باول فيرابند السيد محمد نفاذى
- ٢٢٤- دمار يوغسلافيا برانكا ماجاس منى عبدالظاهر إبراهيم
- ٢٢٥- حكاية غريق (رواية) جابريل جارشيا ماركيث السيد عبدالظاهر السيد
- ٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى ديفيد هربت لورانس طاهر محمد على البربرى

السيد عبدالظاهر عبدالله	خوسيه ماري ديث بوركي	المسرح الإسباني في القرن السابع عشر	٢٢٧-
ماري تيريز عبدالمسيح وخاله حسن	جانيت وولف	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	٢٢٨-
أمير إبراهيم العمري	نورمان كيجان	مأزق البطل الوحيد	٢٢٩-
مصطفى إبراهيم فهمي	فرانسواز جاكوب	عن الذباب والفنران والبشر	٢٣٠-
جمال عبدالرحمن	خايمي سالوم بيدال	الترافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	٢٣١-
مصطفى إبراهيم فهمي	توم ستونير	ما بعد المعلومات	٢٣٢-
طلعت الشايب	آرثر هيرمان	فكرة الاضمحلال في التاريخ الغربي	٢٣٣-
فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	الإسلام في السودان	٢٣٤-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	ديوان شمس تبريزي (ج١)	٢٣٥-
أحمد الطيب	ميشيل شوبكفيتش	الولاية	٢٣٦-
عنايات حسين طلعت	روين فيدين	مصر أرض الوادي	٢٣٧-
ياسر محمد جادالله وعربي مدبولي أحمد	تقرير لمنظمة الأنكتاد	العولة والتحرير	٢٣٨-
نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلا راماز - رايوخ	العربي في الأدب الإسرائيلي	٢٣٩-
صلاح محجوب إدريس	كاي حافظ	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	٢٤٠-
ابتهسام عبدالله	ج. م. كوتزي	في انتظار البرابرة (رواية)	٢٤١-
صبري محمد حسن	وليام إمبسون	سبعة أنماط من الغموض	٢٤٢-
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	٢٤٣-
نادية جمال الدين محمد	لورا إسكيبيل	الغليان (رواية)	٢٤٤-
توفيق على منصور	إليزابيتا أنيس وآخرون	نساء مقاتلات	٢٤٥-
على إبراهيم منوفى	جابريل جارتيا ماركيت	مختارات قصصية	٢٤٦-
محمد طارق الشرقاوى	والتر أرمبرست	الثقافة الجماهيرية والحدائق في مصر	٢٤٧-
عبداللطيف عبدالحليم	أنطونيو جالا	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	٢٤٨-
رفعت سلام	دراجو شتامبوك	لغة التمزق (شعر)	٢٤٩-
ماجدة محسن أباطة	دومنيك فينك	علم اجتماع العلوم	٢٥٠-
بإشراف: محمد الجوهري	جورديون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٥١-
على بدران	مارجو بدران	رائدات الحركة النسوية المصرية	٢٥٢-
حسن بيومي	ل. أ. سيمينوفا	تاريخ مصر الفاطمية	٢٥٣-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودي جروفز	أقدم لك: الفلسفة	٢٥٤-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودي جروفز	أقدم لك: أفلاطون	٢٥٥-
إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وكريس جارات	أقدم لك: ديكارت	٢٥٦-
محمود سيد أحمد	وليم كلى رايت	تاريخ الفلسفة الحديثة	٢٥٧-
عبادة كحيلة	سير أنجوس فريزر	الفجر	٢٥٨-
فاروجان كازانجيان	نخبة	مختارات من الشعر الأرمني عبر العصور	٢٥٩-
بإشراف: محمد الجوهري	جورديون مارشال	موسوعة علم الاجتماع (ج٢)	٢٦٠-
إمام عبد الفتاح إمام	زكى نجيب محمود	رحلة في فكر زكى نجيب محمود	٢٦١-
محمد أبو العطا	إدواردو مندوتا	مدينة المعجزات (رواية)	٢٦٢-
على يوسف على	جون جرين	الكشف عن حافة الزمن	٢٦٣-
لويس عوض	هوراس وشللى	إبداعات شعرية مترجمة	٢٦٤-

لويس عوض	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	روايات مترجمة	٢٦٥-
عادل عبد المنعم على	جلال آل أحمد	مدير المدرسة (رواية)	٢٦٦-
بدر الدين عرودى	ميلان كونديرا	فن الرواية	٢٦٧-
إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومى	ديوان شمس تبريزى (ج٢)	٢٦٨-
صبرى محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج١)	٢٦٩-
صبرى محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	وسط الجزيرة العربية وشرقها (ج٢)	٢٧٠-
شوقى جلال	توماس سى. باترسون	الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	٢٧١-
إبراهيم سلامة إبراهيم	سى. سى. والترز	الأديرة الأثرية فى مصر	٢٧٢-
عنان الشهاوى	جوان كول	الاصول الاجتماعية والثقافية لمركبة مراكب فى مصر	٢٧٣-
محمود على مكى	رومولو جاييجوس	السيدة باربارا (رواية)	٢٧٤-
ماهر شفيق فريد	مجموعة من النقاد	د. س. إليود شاعرًا ونالداً وكاتباً مسرحياً	٢٧٥-
عبد القادر التلمسانى	مجموعة من المؤلفين	فنون السينما	٢٧٦-
أحمد فوزى	براين فورد	الجينات والصراع من أجل الحياة	٢٧٧-
ظريف عبدالله	إسحاق عظيموف	البدايات	٢٧٨-
طلعت الشايب	ف. س. سوندرز	الحرب الباردة الثقافية	٢٧٩-
سمير عبد الحميد إبراهيم	بريم شند وآخرون	الأم والنصيب وقصص أخرى	٢٨٠-
جلال الحفناوى	عبد الحليم شرر	الفردوس الأعلى (رواية)	٢٨١-
سمير حنا صادق	لويس رولبرت	طبيعة العلم غير الطبيعية	٢٨٢-
على عبد الرعوف البمبى	خوان رولفو	السهل يحترق وقصص أخرى	٢٨٣-
أحمد عثمان	يوريبينيس	هرقل مجنوناً (مسرحية)	٢٨٤-
سمير عبد الحميد إبراهيم	حسن نظامى الدهلوى	رحلة خواجه حسن نظامى الدهلوى	٢٨٥-
محمود علاوى	زين العابدين المراهى	سياحت نامه إبراهيم بك (ج٢)	٢٨٦-
محمد يحيى وآخرون	أنقونى كتج	الثقافة والعولة والنظام العالمى	٢٨٧-
ماهر البطوطى	بيفيد لودج	الفن الروائى	٢٨٨-
محمد نور الدين عبد المنعم	أبو نجم أحمد بن قوص	ديوان منوچهرى الدامغانى	٢٨٩-
أحمد زكريا إبراهيم	جورج موانان	علم اللغة والترجمة	٢٩٠-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	تاريخ المسرح الإشبانى فى القرن العشرين (ج١)	٢٩١-
السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	تاريخ المسرح الإشبانى فى القرن العشرين (ج٢)	٢٩٢-
مجدى توفيق وآخرون	روجر آلن	مقدمة للأدب العربى	٢٩٣-
رجاء ياقوت	بوالو	فن الشعر	٢٩٤-
بدر النيب	جوزيف كامبل وبيل موريز	سلطان الأسطورة	٢٩٥-
محمد مصطفى بدوى	وليم شكسبير	مكبث (مسرحية)	٢٩٦-
ماجدة محمد أنور	ليونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازى	فن النحو بين اليونانية والسريانية	٢٩٧-
مصطفى حجازى السيد	نخبة	مأساة العبيد وقصص أخرى	٢٩٨-
هاشم أحمد محمد	جين ماركس	ثورة فى التكنولوجيا الحيوية	٢٩٩-
جمال الجزيرى وبهاء چاهين وإيزابيل كمال	لويس عوض	اسطورة برونشوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (مج١)	٣٠٠-
جمال الجزيرى و محمد الجندى	لويس عوض	اسطورة برونشوس فى الأدب الإنجليزى والفرنسى (مج٢)	٣٠١-
إمام عبد الفتاح إمام	جون هبتون وجوى جروفز	أقدم لك: فنجنشتين	٣٠٢-

٢٠٣-	أقدم لك: يوزا	جين هوب ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٢٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٢٠٦-	الحماسة: النقد الكانطى للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٢٠٧-	أقدم لك: الشعور	بيفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٢٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز ويورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٢٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٢١٠-	أقدم لك: يوتج	ماجى هايد ومايكل ماكجنس	محيى الدين مزيد
٢١١-	مقال فى المنهج الفلسفى	روج كولنجورد	فاطمة إسماعيل
٢١٢-	روح الشعب الأسود	وليم دييوس	أسعد حليم
٢١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خاير بيان	محمد عبدالله الجعيدى
٢١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٢١٥-	جرامشى فى العالم العربى	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٢١٦-	محاكمة سقراط	أى. ف. ستون	نسيم مجلى
٢١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٢١٨-	الأدب الروسى فى السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٩-	صور دريدا	جايترى اسبيفاك وكريستوفر نوريس	حسام نايل
٢٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٢٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ١)	ليفى برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٢٢-	وجهات نظر حديثة فى تاريخ الفن الغربى	دبليو يوجين كلينباور	خالد مفلح حمزة
٢٢٣-	فن الساتورا	تراث يونانى قديم	هانم محمد فوزى
٢٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدى	محمود علاوى
٢٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كريستين يوسف
٢٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٢٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (ج ١)	نخبة	توفيق على منصور
٢٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٢٣٠-	كل شىء عن التمثيل الصامت	مارفن شيرد	سامى صلاح
٢٣١-	عندما جاء السريين وقصص أخرى	ستيفن جراى	سامية دياب
٢٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	على إبراهيم متوفى
٢٣٣-	الإسلام فى بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٢٣٤-	لقطات من المستقبل	أرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالى ساروت	فتحى العشرى
٢٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٢٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٢٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوى
٢٣٩-	تاريخ الأدب فى إيران (ج ٢)	إيوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٤٠-	اضطراب فى الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخرى لبيب

٢٤١-	قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا رلكه	حسن حلمى
٢٤٢-	سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٢٤٣-	العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورنيمر	سمير عبد ربه
٢٤٤-	الموت فى الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥-	الركض خلف الزمان (شعر)	بونه ندائى	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦-	سحر مصر	رشاد رشدى	جمال الجزيرى
٢٤٧-	الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨-	المتصوفة الاولين فى الأدب التركى (ج١)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩-	دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	آرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠-	بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١-	مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصارى
٢٥٢-	قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٤-	الفن الإسلامى فى الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٢٥٥-	التيارات السياسية فى إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوى
٢٥٦-	الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعى
٢٥٧-	متون هرمس	تيموثى فريك وبيتر غاندى	عمر الفاروقى عمر
٢٥٨-	أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازى السيد
٢٥٩-	محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشارونى
٢٦٠-	أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربينى
٢٦١-	التصحّر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وأمال شاور
٢٦٢-	تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شيبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣-	حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبرى محمد حسن
٢٦٤-	حادثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥-	سام باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦-	نساء يركضن مع الثناب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧-	القلم الجرىء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادى رضا
٢٦٨-	المصطلح السردى: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩-	المرأة فى أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوى	فوزية العشماوى
٢٧٠-	الفن والحياة فى مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١-	المتصوفة الاولين فى الأدب التركى (ج٢)	محمد فؤاد كوبريلى	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢-	عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣-	كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	على إبراهيم منوفى
٢٧٤-	اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥-	الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦-	الغضب وأحلام الستين (مسرحيات)	جان أنوى وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨-	المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

جمال عبدالرحمن	سنيل باث	٢٧٩- ملك في الحديقة (رواية)
شيرين عبدالسلام	جونتر جراس	٢٨٠- حديث عن الخسارة
رائيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٢٨١- أساسيات اللغة
أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد إسفنديار	٢٨٢- تاريخ طبرستان
سمير عبدالحميد إبراهيم	محمد إقبال	٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)
إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٢٨٤- القصص التي يحكيها الأطفال
يوسف عبدالفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٢٨٥- مشترى العشق (رواية)
ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٢٨٦- دفاعاً عن التاريخ الأدبي التسوي
بهاء جاهين	جون دن	٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)
محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٢٨٨- مواظ سعدى الشيرازي (شعر)
سمير عبدالحميد إبراهيم	نخبة	٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى
عثمان مصطفى عثمان	إم. في. روبرتس	٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى
منى الدروبي	مايف بينشي	٢٩١- الحافلة الليلية (رواية)
عبداللطيف عبدالحليم	فرناندو دي لاجرانجا	٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية
زينب محمود الخضيرى	ندوة لويس ماسينيون	٢٩٣- في قلب الشرق
هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٢٩٤- القوى الأربع الأساسية في الكون
سليم عبد الأمير حمدان	إسماعيل فصيح	٢٩٥- آلام سياوش (رواية)
محمود علاوى	تقى نجارى راد	٢٩٦- السافاك
إمام عبدالفتاح إمام	لورانس جين وكيتي شين	٢٩٧- أقدم لك: نيتشه
إمام عبدالفتاح إمام	فيليب تودى وهوارد ريد	٢٩٨- أقدم لك: سارتر
إمام عبدالفتاح إمام	ديفيد ميروفتش وآلن كوركس	٢٩٩- أقدم لك: كامى
باهر الجوهري	ميشائيل إنده	٤٠٠- مومو (رواية)
ممدوح عبد المنعم	زياوين ساردر وآخرون	٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات
ممدوح عبدالمنعم	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج
عماد حسن بكر	تودور شتورم وجوتفرد كولر	٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)
ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤- تعويذة الحسى
حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥- إيزابيل (رواية)
جمال عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦- المستعربون الإسبان في القرن ١٩
طلعت شاهين	مجموعة من المؤلفين	٤٠٧- الأدب الإسباني المعاصر بأقلام كتابه
عنان الشهاوى	جوان فوتشركنج	٤٠٨- معجم تاريخ مصر
إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩- انتصار السعادة
الزواوى بغودة	كارل بوير	٤١٠- خلاصة القرن
أحمد مستجير	جينيغر أكرمان	٤١١- همس من الماضى
بإشراف: صلاح فضل	ليفى بروفنسال	٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج ٢، ج ٢)
محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)
أمل الصبان	ياسكال كازانوفا	٤١٤- الجمهورية العالمية للأداب
أحمد كامل عبدالرحيم	فريدريش دورينمات	٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)
محمد مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردز	٤١٦- مبادئ النقد الأدبي والعلم والشعر

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (ج٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلى
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلانى
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامى	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعى	محمود علاوى
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باى إنكلان	ثريا شلبى
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافى
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندرجى كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كرستوفر وانت وأندرجى كلیموفسكى	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزوران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللى	باتريك كبرى وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد تويريس وكارل فلت	حمدي الجابرى
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودى بورهام	عصام حجازى
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زدبرج	ناجى رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فريدريك كويلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلى النعمانى	جلال الحفناوى
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابى (رواية)	صدر الدين عيى	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوى
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أرونذاق روى	فخرى لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتى
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتشيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوى
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علمانى
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلرى	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفرى سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	أقدم لك: نظرية الكم	ج. پ. ماك إيفرى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٨-	أقدم لك: علم نفس التطور	ديلان إيقانز وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيرى
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيرى
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن ويورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إيجينانزى وأوسكار زاريت	محيى الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرونو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عاماً من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)	فريدريك كويلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تتسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان مولر أوكن	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	المورييسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوريين	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلّة	مايكل بارنتى	حصّة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	جوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد التنة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (ج ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرزاق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	فرجينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحباب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى لونغ	عبد العزيز حمدي
٤٧٩-	المقهى (مسرحية)	لار شه	عبد العزيز حمدي
٤٨٠-	تساي ون جى (مسرحية)	كو موروا	عبد العزيز حمدي
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير جاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة چامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن رويبرت ياوس	رشيد بنحو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحميد عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسُرل: الفلسفة علماً دقيقاً	إدموند هُسرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسعار البيغاء	محمد قادري	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفرقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	جى فارجيت	محمد رفعت عواد

خطابات إلى طالب الصوتيات	هارولد بالمر	محمد صالح الضالع	٤٩٣-
كتاب الموتى: الخروج في النهار	نصوص مصرية قديمة	شريف الصيفي	٤٩٤-
اللوى	إيوارد تيفان	حسن عبد ربه المصري	٤٩٥-
الحكم والسياسة في أفريقيا (ج١)	إكوارد بانولي	مجموعة من المترجمين	٤٩٦-
العلمانية والنوع والنولة في الشرق الأوسط	نادية العلى	مصطفى رياض	٤٩٧-
النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث	جوهيث تاكر ومارجريت مريوز	أحمد على بدوى	٤٩٨-
تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع	مجموعة من المؤلفين	فيصل بن خضراء	٤٩٩-
في طقوس: دراسة في السيرة الذاتية العربية	تيتز روكي	طلعت الشايب	٥٠٠-
تاريخ النساء في الغرب (ج١)	أرثر جولد هامر	سحر فراج	٥٠١-
أصوات بديلة	مجموعة من المؤلفين	هالة كمال	٥٠٢-
مختارات من الشعر الفارسي الحديث	نخبة من الشعراء	محمد نور الدين عبدالمنعم	٥٠٣-
كتابات أساسية (ج١)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق	٥٠٤-
كتابات أساسية (ج٢)	مارتن هايدجر	إسماعيل المصدق	٥٠٥-
ربما كان قديساً (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال	٥٠٦-
سيدة الماضي الجميل (مسرحية)	بيتر شيفر	شوقي فهمي	٥٠٧-
المولوية بعد جلال الدين الرومي	عبدالباقي جلبنارلي	عبدالله أحمد إبراهيم	٥٠٨-
الفقر والإحسان في مصر سلاطين المائيك	أدم صبرة	قاسم عبده قاسم	٥٠٩-
الأرملة الماكورة (مسرحية)	كارلو جولدوني	عبدالرازق عيد	٥١٠-
كوكب مرقع (رواية)	أن تيلر	عبدالحميد فهمي الجمال	٥١١-
كتابة النقد السينمائي	تيموثي كوريجان	جمال عبد الناصر	٥١٢-
العلم الجسور	تيد أنتون	مصطفى إبراهيم فهمي	٥١٣-
مدخل إلى النظرية الأدبية	جونثان كولر	مصطفى بيومي عبد السلام	٥١٤-
من التقليد إلى ما بعد الحداثة	فدوى مالطى بوجلاس	فدوى مالطى بوجلاس	٥١٥-
إرادة الإنسان في علاج الإدمان	أرنولد واشنطن وبونا باوندى	صبرى محمد حسن	٥١٦-
نقش على الماء وقصص أخرى	نخبة	سمير عبد الحميد إبراهيم	٥١٧-
استكشاف الأرض والكون	إسحق عظيموف	هاشم أحمد محمد	٥١٨-
محاضرات في المثالية الحديثة	جوزايا روس	أحمد الانصارى	٥١٩-
الوع الفرنسي بمصر من العلم إلى الشرع	أحمد يوسف	أمل الصبان	٥٢٠-
قاموس تراجم مصر الحديثة	أرثر جولد سميث	عبدالوهاب بكر	٥٢١-
إسبانيا في تاريخها	أميركو كاسترو	على إبراهيم منوفى	٥٢٢-
الفن الطليطلى الإسلامى والمدجن	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى	٥٢٣-
الملك لير (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى	٥٢٤-
موسم صيد في بيروت وقصص أخرى	دنيس جونسون	نادية رفعت	٥٢٥-
أقدم لك: السياسة البيئية	ستيفن كروول ووليم رانكين	محيى الدين مزيد	٥٢٦-
أقدم لك: كافكا	ديفيد زين ميروفيتس وروبرت كرمب	جمال الجزيرى	٥٢٧-
أقدم لك: تروتسكى والماركسية	طارق على وقل إيفانز	جمال الجزيرى	٥٢٨-
بدائع العلامة إقبال في شعره الأردى	محمد إقبال	حازم محفوظ وحسين نجيب المصرى	٥٢٩-
مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية	رينيه جيرو	عمر الفاروق عمر	٥٣٠-

٥٣١-	ما الذي حدث في «حدث» ١١ سبتمبر؟	چاك دريدا	صفاء فتحي
٥٣٢-	المغامر والمستشرق	هنري لورنس	بشير السباعي
٥٣٣-	تعلم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوي
٥٣٤-	الإسلاميون الجزائريون	سيفرين لوبا	حمادة إبراهيم
٥٣٥-	مخزن الأسرار (شعر)	نظامي الكنجوي	عبدالعزیز بقوش
٥٣٦-	الثقافات وقيم التقدم	صمويل منتنجتون ولورانس هارينغتون	شوقي جلال
٥٣٧-	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالفار مكارى
٥٣٨-	النفس والآخر في قصص يوسف الشاروني	كيت دانيلز	محمد الحديدي
٥٣٩-	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحي
٥٤٠-	توجهات بريطانية - شرقية	السير رونالد ستورس	رؤف عباس
٥٤١-	هي تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢-	قصص مختارة من الألب اليوناني الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣-	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤-	أقدم لك: ميلاني كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدي الجابري
٥٤٥-	يا له من سياق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦-	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق علي منصور
٥٤٧-	أقدم لك: بارت	فيليب تودي وآن كورس	جمال الجزيري
٥٤٨-	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزيرين ويورن فان لون	حمدي الجابري
٥٤٩-	أقدم لك: علم العلامات	بول كويلي ولينا جانز	جمال الجزيري
٥٥٠-	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وييرو	حمدي الجابري
٥٥١-	الموسيقى والعولة	سايمون ماندي	سمحة الخوري
٥٥٢-	قصص مثالية	ميجيل دي ثريانتس	علي عبد الرؤوف البعبي
٥٥٣-	مدخل للشعر الفرنسي الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤-	مصر في عهد محمد علي	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥-	الإستراتيجية الأمريكية للقرن العاشر والعشرين	أناتولي أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصر الدين الجبالي
٥٥٦-	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدي الجابري
٥٥٧-	أقدم لك: الماركيز دي ساد	ستوارت هود وجراهام كرولي	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨-	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردارويورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩-	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجي	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠-	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦١-	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوي
٥٦٢-	بلايين وبلايين	كارل ساغان	عزت عامر
٥٦٣-	ورود الخريف (مسرحية)	خايننتو بينابينتتي	صبرى محمدى التهامي
٥٦٤-	عش الغريب (مسرحية)	خايننتو بينابينتتي	صبرى محمدى التهامي
٥٦٥-	الشرق الأوسط المعاصر	دييورا ج. جيرتر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦-	تاريخ أوروبا في العصور الوسطى	موريس بيشوب	علي السيد علي
٥٦٧-	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨-	الأصول في الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩-	موقع الثقافة	هومي بابا	ثائر ديب
٥٧٠-	دول الخليج الفارسي	سير روبرت هاي	يوسف الشاروني
٥٧١-	تاريخ النقد الإسباني المعاصر	إيميليا دي ثوليتا	السيد عبد الظاهر
٥٧٢-	الطب في زمن الفراغة	برونو أليوا	كمال السيد
٥٧٣-	أقدم لك: فرويد	ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتي	جمال الجزيري
٥٧٤-	مصر القديمة في عيون الإيرانيين	حسن بيرنيا	علاء الدين السباعي
٥٧٥-	الاقتصاد السياسي للعولمة	نجير وودز	أحمد محمود
٥٧٦-	فكر ثريانتس	أمريكو كاسترو	ناهد العشري محمد
٥٧٧-	مغامرات بينوكيو	كارلو كولودي	محمد قدرى عمارة
٥٧٨-	الجماليات عند كيتس وهنت	أيومي ميزوكوشي	محمد إبراهيم وعصام عبد الحرف
٥٧٩-	أقدم لك: تشومسكي	جون ماهر وچودي جرونز	محيى الدين مزيد
٥٨٠-	دائرة المعارف اللولية (مج ١)	جون فيزر وبول سيترجز	باشراف: محمد فتحي عبدالهادي
٥٨١-	الحقي يموتون (رواية)	ماريو بوزو	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢-	مرايا على الذات (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣-	الجبران (رواية)	أحمد محمود	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤-	سفر (رواية)	محمود دولت آبادي	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥-	الأمير احتجاب (رواية)	هوشنك كلشيري	سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦-	السينما العربية والأفريقية	ليزييث مالكموس وروي أرمز	سهام عبد السلام
٥٨٧-	تاريخ تطور الفكر الصيني	مجموعة من المؤلفين	عبدالعزیز حمدي
٥٨٨-	أمنحوتب الثالث	أنيس كابرول	ماهر جويجاتي
٥٨٩-	تمبكت العجيبة (رواية)	فيلكس دييوا	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠-	أساطير من الموروثات الشعبية الفلندية	نخبة	محمود مهدي عبدالله
٥٩١-	الشاعر والمفكر	هوراتيوس	على عبدالنواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢-	الثورة المصرية (ج ١)	محمد صبري السوربوني	مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣-	قصائد ساحرة	بول فاليري	بكر الحلو
٥٩٤-	القلب السمين (قصة أطفال)	سوزانا تامارو	أمانى فوزي
٥٩٥-	الحكم والسياسة في أفريقيا (ج ٢)	إكوانو بانولي	مجموعة من المترجمين
٥٩٦-	الصحة العقلية في العالم	روبرت ديجارليه وآخرون	إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧-	مسلمو غرناطة	خوليو كاروياروخا	جمال عبدالرحمن
٥٩٨-	مصر وكنعان وإسرائيل	دونالد ريدفورد	بيومي على قنديل
٥٩٩-	فلسفة الشرق	هرداد مهريين	محمود علاوي
٦٠٠-	الإسلام في التاريخ	برنارد لويس	مدحت طه
٦٠١-	النسوية والمواطنة	ريان ثوت	أيمن بكر وسمر الشيشكلي
٦٠٢-	ليوتار: نحو فلسفة ما بعد حداثة	جيمس وليامز	إيمان عبدالعزیز
٦٠٣-	النقد الثقافي	أرثر أيزابرجر	وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسي
٦٠٤-	الكوارث الطبيعية (مج ١)	باتريك ل. أبوت	توفيق على منصور
٦٠٥-	مخاطر كوكبنا المضطرب	إرنست زيبروسكي (الصغير)	مصطفى إبراهيم فهمي
٦٠٦-	قصة البردي اليوناني في مصر	ريتشارد هاريس	محمود إبراهيم السعدني

٦٠٧-	قلب الجزيرة العربية (ج١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨-	قلب الجزيرة العربية (ج٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩-	الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠-	العمارة المدججة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١-	النقد والأيدولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢-	رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣-	السياحة والسياسة	كوان مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤-	بيت الأقصر الكبير (رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥-	عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩١٧ إلى ١٩١٩	أليس بسيريتى	محمد رفعت عواد
٦١٦-	أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧-	الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨-	نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩-	مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠-	السلام الصليبي	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١-	التوبة المعبر الحضارى	وليم ى. آدمز	فؤاد عكود
٦٢٢-	أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣-	نوابر جحا الإيرانية	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤-	أزمة العالم الحديث	رينيه جينو	عمر الفاروق عمر
٦٢٥-	الجرح السرى	جان جينيه	محمد براءة
٦٢٦-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧-	حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨-	أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩-	قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠-	سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١-	مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	ياشرف: حسن طلب
٦٣٢-	المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	بولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣-	الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤-	مكتبة الإسكندرية	روى ماكرويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنسارى
٦٣٥-	التبثيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦-	حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧-	مصر الخديوية	ف. روبرت هنتز	بدر الرفاعى
٦٣٨-	الديمقراطية والشعر	روبرت بن ودين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩-	فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠-	الكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١-	بوتراندرسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢-	أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر ويورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣-	سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدرايادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤-	العلوم عند المسلمين	هوارد دتيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥-	السياسة الخارجية الأمريكية ومسارها الداخلية	تشارلز كجلى ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦-	قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧-	رسائل من مصر	جون نينه	فتحى العشرى
٦٤٨-	بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩-	الخوف وقصص خرافية أخرى	جى دى موباسان	سحر يوسف
٦٥٠-	الدولة والسلطة والسياسة فى الشرق الأوسط	روجر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١-	بيليسبس الذى لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢-	آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣-	مدرسة الطفلة (مسرحية)	إيريش كسترن	سمير جريس
٦٥٤-	أساطير شعبية من أوزبكستان (ج١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسى
٦٥٥-	أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦-	خيز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستوى
٦٥٧-	محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد بحراس
٦٥٨-	حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩-	قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٦٠-	نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١-	روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢-	رحلة إلى الجنود	داسو سالديبار	صبرى التهامى
٦٦٣-	امراة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤-	الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وأنا راي هارك	عصام زكريا
٦٦٥-	عوالم أخرى	بول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦-	تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	ولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومنحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧-	الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨-	ثقافات العولة	فريدريك جيمسون وماساو ميوشى	ليلي الجبالي
٦٦٩-	ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠-	أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١-	قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	جيمس بولنوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢-	مختارات من الشعر الفرنسى للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣-	ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤-	ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥-	أثينا السوداء (ج٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦-	أثينا السوداء (ج٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، مج١)	إنوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨-	تاريخ الأدب فى إيران (ج١ ، مج٢)	إنوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩-	مختارات شعرية مترجمة (ج٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠-	سنوات الطفولة (رواية)	وول شوينكا	سمير عبد ربه
٦٨١-	هل يوجد نص فى هذا الفصل؟	ستانلى فش	أحمد الشيمى
٦٨٢-	نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

- ٦٨٣- سكين واحد لكل رجل (رواية) ت. م. ألوكو
٦٨٤- الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (ج١) أوراثيو كيروجا
٦٨٥- الأعمال القصصية الكاملة (المصحراء) (ج٢) أوراثيو كيروجا
٦٨٦- امرأة محاربة (رواية) ماكسين هونج كنتجستون
٦٨٧- محبوبة (رواية) فتانة حاج سيد جوادى
٦٨٨- الانفجارات الثلاثة العظمى فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار
٦٨٩- الملف (مسرحية) تادوش روجيفيتش
٦٩٠- محاكم التفتيش فى فرنسا (مختارات)
- صبرى محمد حسن
رزق أحمد بهنسى
رزق أحمد بهنسى
سحر توفيق
ماجدة العنانى
فتح الله الشيخ وأحمد السماحى
هناء عبد الفتاح
رمسيس عوض

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٣٨٥ / ٢٠٠٥